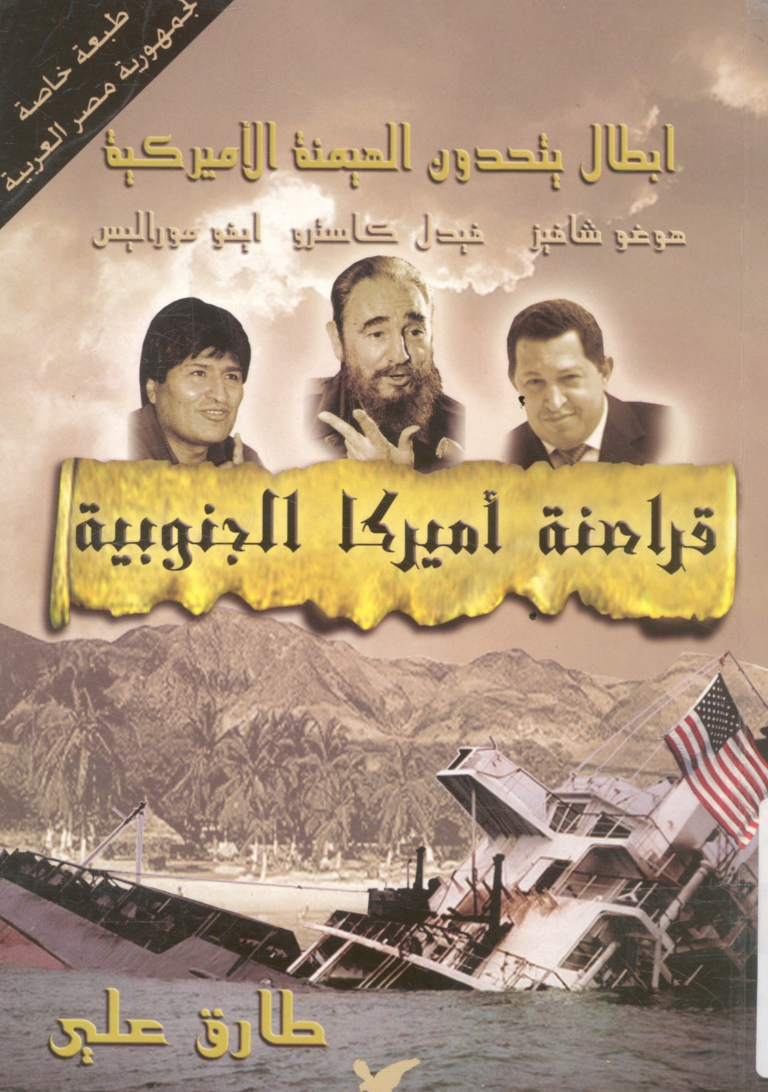

طبعة خاصة
لجمهورية مصر العربية
ابطال يتحدون الهيمنة الأميركية
هوغو شافيز
فيدل كاسترو
ايفو موراليس
قراصنة أميركا الجنوبية
طارق علي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

قراصنة أميركا الجنوبية

أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية

طارق علي

قراصنة أميركا الجنوبية

أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

طبعة خاصة لجمهورية مصر العربية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

e-mail: tradebooks@all-prints.com

website:www. all-prints.com

توزيع: سويدان للتوزيع

تلفون: ٣٦٥٣٦٧٥ ٠١٢

٢٣٠٢٣٢٠٣

ISBN: 978-9953-88-052-5

ترجمة: انطوان باسيل

تدقيق لغوي: فؤاد زعيتر

تصميم الغلاف: نور طويل

الإخراج الفني: بسمة تقي

الفهرس

إلى إدواردو غاليانو، وقلمه، وفكره، علّه، على غرار سيف بوليفار، يتوخّى إزاحة امبراطورية وتوحيد قارة.

المقدمة

هذا الكتاب نتاج عدد كبير من الرحلات، على امتداد الأعوام الأخيرة الماضية، إلى أميركا اللاتينية. سبق وزرت فنزويلا والبرازيل في مناسبات عدة في السنين الست الماضية، وشاهدت بأم العين انهيار الاقتصاد الأرجنتيني. وزرت كوبا، للمرة الأولى في ٢٠٠٥. أقنعتني هذه الرحلات بوجود سبب للأمل. فأميركا الجنوبية هي البرّ الذي ينبثق من قاعدته أساساً البديل الديموقراطي ـ الاجتماعي للرأسمالية الليبرالية ـ الجديدة، ويصيب بعدواه الحياة السياسية في كل مكان. ويا له من فرج بالمقارنة مع صعود النزعة الدينية اليمينية في أمكنة أخرى (بما فيها الولايات المتحدة).

كانت فكرة كولن روبنسون، أن أضع هذا الكتاب. وقد دعمني في ذلك أصدقاء في لندن والولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وكوبا وفنزويلا، وساعدوني جميعاً بطرائق مختلفة. وهم: ماكس أرفيلايز، أتيليو بورون، روزا إيليزالدي، فورّست هيلتون، هيبورا جيمس، ألكس ماين وأمير صادر.

كما أنني مَدين، في شكل خاص، لريتشارد غوت ـ الصديق

والرفيق منذ ١٩٦٦ ـ الذي ساهمت دراسته الكلاسيكية «حركات حرب العصابات في أميركا اللاتينية» Guerrilla Movements in Latin America، ورسائله المنتظمة التي حررها لصحيفة غارديان و«مكتبة بينغوين الأميركية اللاتينية» Penguin Latin America Library، في تثقيف جيل بكامله. ونحت كتبه الأخيرة عن كوبا وفنزويلا، المضي في سياق هذا التقليد. ولكان أمراً مغيظاً لو أنه، هو أيضاً، بايع النظام الجديد. لكنه لا يزال قرصاناً.

كان دفاع ماركوس ريديكر الحيوي عن القراصنة، في «رُذُل من كل الأمم» Villains of All Nations، مصدراً ملهماً آخر. فقد استشهد بمؤلّف من العام ١٧٢٤ للقبطان تشارلز جونسون، يشير فيه إلى القراصنة بوصفهم أبطالَ البحر، و«الآفة» النازلة بالطغاة والجشعين، والشجعان المطالبين بالحرّية. وقد يغالي المرء في سياق الحجة هذا، لكنني لا أزال آمل أن يصبح «كلنا قراصنة»، صيحةً مطّردة في مسيرات العدالة الشاملة.

ولا بد من شكر توم بن، جيلز أوبراين وسيباستيان بدجن من المقر العام لـ «فرسو» في لندن، الذين قدموا نصائحهم حول تحرير هذا الكتاب، وإيصاره النور. وأيضاً شكر الزملاء، القدامى منهم والجدد، في «نيو لفت ريفيو» ـ بيري أندرسون، روبرن بلاكبرن، مايك ديفيس، جاكوب ستيفنز، سوزان واتكينز وطوني وود ـ الذين طالما ساندوني من دون أن يبخلوا عليّ بالنقد، ويواجهوني به حين يستدعي الأمر.

ومن الضروري، في كتاب من هذا النوع، التأكيد أنه لا

يجب أن يتحمل أي من الذين ذكرتُ أسماءهم سابقاً، مسؤولية أي من أعمال شططي الجدلي. لا يتحمل أحد سواي أي مسؤولية في هذا الصدد. فمنذ سنين طويلة ماضية، أشار الفيلسوف السياسي البريطاني المحافظ، مايكل أوكيشوت، إلى السياسة بوصفها حواراً وليس جدالاً. ووجد البعض منا، الوافدون من معتقدات سياسية مختلفة، صعوبة في القبول بمثل وجهة النظر هذه. فاطمئنوا رجاءً، لأن هذا الكتاب هو جدال بالتأكيد.

الفصل الأول

عصر التعمية

حيثما يتحدّث الظلم بأصوات العدالة والسلطة
وحيثما يتحدّث الظلم بأصوات حب الخير والحكمة
وحيثما يتحدّث الظلم بأصوات الاعتدال والحنكة
ساعدنا كي لا نصبح مريرين.

ساعدنا، إذا يئسنا، أن ندرك أننا يائسون
وساعدنا، إذا أصبحنا مريرين، أن ندرك أننا نصبح مريرين
وساعدنا، إذا قبع فينا الخوف، أن ندرك أنه الخوف
اليأس، والمرارة، والخوف.

وكي لا نسقط في خطأ التفكير
جاءنا وحي جديد
ووجدنا مخرجاً عظيماً
أو مدخلاً
وهذا في حد ذاته قام بتحويلنا.

إريش فريد، «صلاة الليل» (١٩٧٨)

ما الذي يحدد درايتنا ويؤثر فيها: كيف نفكّر، ونتصرف، ونعمل؟ هل هي روح العصر؟ وكيف يجب تحديدها؟ الجواب الأنسب لدى هذا المؤلف هو ضغوطات الحياة اليومية وسياقاتها، كما يتم اختبارها داخل بنية اجتماعية محددة في دولة مسيطرة معادية للثورة وحلفائها. وإلا، فكيف يمكن المرء تفسير التحوّلات الجماعية التي طبعت نهاية القرن العشرين، حيث قامت جموع من السياسيين، والأكاديميين، والمفكّرين، والروائيين، والصحافيين، ناهيك بطالبي الترقي الملتحقين بركاب الفائزين، «بابتلاع جماعي» لـ «إجماع واشنطن» Washington Consensus. فقد أدركت غرائزهم المشحوذة، أن المنحى الحاسم في الحياة السياسية والثقافية كان في التماثل. وتحوّلوا، مختزنين كلَّ أفكارهم في سياق وحيد. وولّد ذلك كلّه نفسيته ولغته الخاصتين. ونُظر إلى قواعد النظام العالمي الجديد كما لو أنها مؤسسات إلهية تنبثق سلطتها من مجرّد واقع وجودها: المؤسسة العالمية مفيدة لأنها مؤسسة عالمية، وهي مؤسسة عالمية لأنها مفيدة. وما فرض هذا المنطقَ في الواقع، هو توسُّع حلف شمال الأطلسي («الناتو») شرقاً، وشبكة القواعد العسكرية التي بناها في مئة وواحدة وعشرين دولة.

وأحدثت أزمة البدائل غير الرأسمالية وانهيارها، مقرونةً بانتهاء الحروب الباردة والحارة بين الولايات المتحدة والعالم الشيوعي (١٩١٧ ـ ١٩٩١)، وقعاً شديداً على الكثيرين من الناس الذين كانوا حتى ذاك الوقت، مصطفّين، بصورة إجمالية، إلى اليسار. وحتى أولئك الذين كانت لهم أوهام قليلة، أو

سقطت أوهامهم حول الأنموذج السوفياتي للاشتراكية، تأثروا بشدة بانهياره. وكما في أعقاب عودة الملكية إلى فرنسا في القرن الثامن عشر، ندر من كان في وسعهم التصريح علناً: أنا من رجالات ١٧٩٤. كان ستاندال استثناءً مميزاً، باختياره سنة الإعدامات الملكية بوصفها حاسمة للجمهورية الحديثة العهد. كذلك بالنسبة إلى الكثيرين في أوروبا ما بعد ١٩٩١، لم يعد في الإمكان القول: لا أزال، بالرغم من كل شيء، من رجالات ١٩١٧. وسرعان ما سيؤدي ذلك، في الحالة الأخيرة، إلى استنتاجات أخرى: «ما كنتُ لأكون قط امرأة الإصلاح الجديد»؛ أو «كنت دائم الاعتقاد أن حزب العمّال أخطأ في تأميم المناجم أو خطوط السكة الحديد»؛ أو «أن الهوس الفرنسي بالدولة هو من مخلفات فيشي»؛ أو «ربما لم تكن خسارة اليسار الحربين الأهليتين الإسبانية واليونانية بمثل هذا السوء»... وإلى ما هنالك.

وفي تباين مع أوروبا وأستراليا والولايات المتحدة، كان هناك عدد أقل من النادمين في أميركا الجنوبية. فقد رفضت طبقة كبيرة من الناشطين والمفكرين، إدارة ظهرها للثورة الكوبية. والأهم من ذلك، أنه حتى أولئك الذين كانوا من أشد منتقدي الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، رفضوا الثناء على من كانوا، في واشنطن أو ميامي، أي داخل الولايات المتحدة، يرغبون في اغتياله. وهناك، بالطبع، استثناءات شهيرة، من بينها كارلوس فوينتس وماريو فارغاس يوسا. ولا يمكن، للأسف، قول الشيء نفسه عن معظم المختصّين بقضايا أميركا اللاتينية في الأكاديميات الغربية، أو الذين يخدمون في «الجيش» الإعلامي

العالمي. فقد «نضجوا»، أو تساقطوا، أو، بصريح العبارة، انباعوا. فالمرء لن يكسب إذا لم يُعد الاتعاظ.

بدا انتصار الرأسمالية في الغرب نهائياً. وكانت الفكرتان الأساسيتان للنظام الجديد، هما:

أ ـ النموذج الرأسمالي الجديد، بوصفه الطريقة «الوحيدة» لتنظيم الجنس البشري من الآن وحتى نهاية عمر كوكب الأرض؛

ب ـ الانتهاك الغربي الفاضح للسيادة الوطنية باسم فرض سمته الخاصة لـ «حقوق الإنسان».

وانتشرت هاتان الفكرتان والسياسات الداخلية والخارجية المستندة إليهما، كالحمّى الوبائية على مدى العقدين الماضيين. وأدت الأوهام المغدورة والآمال المُسقطة، إلى نظرة مريرة أشعلت الطموحات الشخصية. وصارت للفرد أسبقية على المجموعة، وتبحبح الأكثر عافية.

وشهدت نتيجة الفكرة الأولى تجويفاً للمؤسسات الديموقراطية، وانحطاطاً مستمرّاً في منظومة الحزب السياسي. ويمكن أيضاً في الهند والبرازيل وجنوب أفريقيا، ملاحظة ما هو شديد الظهور في الغرب. وبعدما تم تفريغ الأحزاب من التباينات السياسية، أضحت هياكل جوفاء، وآليات مصمَّمة لمساعدة النخبة السياسية على تقاسم كل من السلطة والمال. وبات للأحزاب أعضاء أقل وأقل، لكنها تبقى قائمة بفعل شبكة صغيرة من المحترفين، وهم الند السياسي لنظرائهم الذين يمدّون صناعة الإعلان بالموظفين. ففي القرن الماضي، تعرض هربرت ماركوز

لسخرية واسعة لتنبئه بأن منحى الرأسمالية الحديثة يخلق ثقافة استهلاكية يتم فيها أيضاً إنتاج الناس بالجملة، وهو ما سيؤدي، لا محالة، إلى مجتمع مستكين ومشتت الأجزاء. وأعطى انهيارُ الشيوعية دفعةً صاروخية لهذه العملية.

بعد ١٩٩١، أصبح يُنظر إلى أي كلام على المقاومة السياسية، حتى على مستوى الأفكار، على أنه انطواء مجنون ومكابر في الماضي. والكثيرون اليوم ممن كانوا في ما مضى في اليسار، يتوقون اليوم إلى الانتماء إلى النظام العالمي الجديد. وكان هذا بمثابة دفع من القوة بمكان، بحيث إن الكثيرين من الرجال والنساء الأذكياء، الذين وضعوا في ما مضى نصب أعينهم موسكو وبكين أو برينكيبو وكويواكان، أو حتى هافانا وهانوي وماناغوا، وفي بعض الحالات القصوى بيونغ يانغ وتيرانا، ارتدّوا إلى النظام الجديد.[١] وليس التحليل النفسي،

(١) للكاتب الكوبي، آبل برييتو، الذي يتولى اليوم منصب وزير الثقافة في كوبا، تفسير مشابه: الوجود المستمر للثورة الكوبية، يذكّرهم بما كانوا عليه وهم شبان، وبما تخلّوا عنه. ولهذا السبب، القضية الكوبية مزعجة، خصوصاً أنها تبدو كطيف يُخزيهم ويبلغهم أنهم استسلموا. القضية الكوبية متميّزة. وأنا شخصياً، كنت لأخجل جداً لو أنني كنت قط متعبّداً لكيم إيل سونغ. فقد تركتني الزيارتان اللتان قمت بهما في السبعينيات إلى بيونغ يانغ، أتخبط بشعور قوي بالنفور من النظام. وفوجئ جون هاليداي، الذي كان من المتعصبين في ذلك الوقت لكيم إيل سونغ، كيف أنني حتى تدبّرت أمر الدخول إلى البلاد. وأكّد لي أنه لم يكن مغالياً مئة بالمئة في حماسته، لكن من المؤكد أنه كان قريباً من الـ ٩٥ بالمئة. وأنا أتطلع قدماً إلى اعتراف منه بالخطأ على شاكلة سيرة حياة من وضعه لكيم وابنه. وإن كنت آمل، فقط من أجل الأيام الخوالي، أنه لن يعتمد حصرياً على وثائق الاستخبارات الكورية الجنوبية.

طبعاً، بعديم الشأن في تفسير التحوّل الكامل في الآراء السياسية للشخص. لكن، في هذه الحالة، كانت الظاهرة من الانتشار بمكان، بحيث يمكن فقط النظر إليها على أنها تؤشر إلى ارتداد رئيسي لطبقة اجتماعية كاملة،[1] توقّفت عن التفكير من جرّاء مراقبتها المشهد الاجتماعي والسياسي المتغيّر. فالرأسمالية، التي وجدها الكثيرون في ما مضى داءً كالسرطان لا شفاء منه، صار يُنظر إليها اليوم ويبرَّر لها، كأنها العلاج الوحيد المتوفّر.[2] فما الذي يمثّله ذلك، إذا لم يكن رزوحاً ذليلاً أمام مصاعب التاريخ ومخاطره؟

الديانة الجديدة، كما نعرفها، هي ديانة قديمة. فالرأسمالية موجودة منذ خمسمئة عام. وهذا ـ مجرد أنها استمرّت بعد كل أزماتها، بينما الاشتراكية الموجودة حالياً بالكاد عاشت ٧٠ عاماً وانهارت عندما واجهت أول تحدٍّ رئيسي لها ـ يعطيها خاصيّة قديمة بالمقارنة مع تجارب الاشتراكية الحديثة العهد، التي انتهت بكارثة. وهكذا، انتهى الأمر إلى أن مؤيدي «إجماع واشنطن» أصبحوا أنصاف متدينين في إخلاصهم. وأصبح ما يؤيدونه غير

(١) الأمثلة كثيرة جداً، وتتطلب، على المستوى العالمي، دائرة معارف. وقد وفرت صورة مكتوبة لواحد منها في الملحق «أ» بسبب الدور الذي يلعبه في الرواية.

(٢) ينطبق هذا أساساً على السياسة والثقافة الشعبيتين، اللتين ازدرت فيهما الأوهام، والباطنية، ومنافاة العقل، والاعتماد المفرط على الإدراكات النفسية، والموضة، وبرامج تلفزيون الواقع.

قابل للتغيير، ومعصوماً من الخطأ. فالمشاكل كلها ستزول ما إن يتم هدي العالم بأسره كما يجب. ويجب أن تُطرد منه كل الهرطقات، بحيث يصبح متّسقاً بعضه مع بعض. وأي تشكيك في وجهة النظر هذه، يجب أن يُحكَم فيه خارج المحكمة.

وبرغم ذلك، إذا ما تمعن المرء جيداً في أذهان هؤلاء المهتدين الجدد، فإن كل ما يمكن رؤيته هو مجال فارغ إلا من أثاث مستعار. ويريد الكثيرون كبح هذا الواقع، لكنهم لا يملكون أي شيء مما هو موجود هناك. إنها أمتعة النظام الجديد، وهي تؤثر في كل شيء: في معتقداتهم، وإيماءاتهم، ومداهناتهم، وحتى في طريقة ارتدائهم ملابسهم. ويتم الاحتفاظ أحياناً بالتعابير الجسدية القديمة وبالنثر المسفّ؛ فتضيء العيون، وترتفع القبضات احتفالاً بحرب امبريالية جديدة أو بانقلاب.

وبما أن الحرب كانت كارثة وانهار الانقلاب بخزي، لم يعد عرض الثقة بالذات أكثر من مزيج مرتبك من الادعاء والعربدة. وما يمثّله مثل هؤلاء الناس، هو الرأس الملوّث لجبل الجليد. وجبل الجليد هذا هو الذي يحتاج إلى كشف الغطاء عنه.

وتسيطر امبراطورية واحدة، ما عدا الكثير من القنوات الإخبارية التي تبث ٢٤ ساعة في اليوم، على العالم الذي نعيش فيه. وهي كلها، ما عدا اثنتين («الجزيرة» القطرية، و«تيليسور»

الفنزويلية)، تتقاسم جدول الاعمال نفسه.[١] والقصد من تركيز سلطة وسائل الإعلام في أيدي نصف دزينة من أرباب المال العالميين، هو تسويق التغيير في النظام أكثر منه حرية التعبير أو الفكر. ومؤسسات التعمية (بما فيها الشبكات التي تديرها الدولة،

(١) في زمن الحرب، عندما تصبح السيطرة على الإعلام حاسمة للسيطرة على الرأي العام، فإن أي محاولة لتوفير صور تتحدى النظام المسيطر تؤخذ في صورة بالغة الخطورة. وفي خلال الهجوم على يوغوسلافيا [السابقة، قبل أن يتم تقسيمها ـ المترجم] برر حلف شمال الأطلسي الهجوم على محطة التلفزة في بلغراد بدواعي أنها «تبث الدعاية». ومثل هذه الحجج خطيرة لأنها تعطي ذخيرة للإرهابيين لتفجير الـ «سي. أن. أن.» أو الـ «بي. بي. سي.». وفي أفغانستان والعراق قصفت الولايات المتحدة استوديوهات محطة «الجزيرة». وبينما كان أحد مراسلي «الجزيرة» يغطي احتلال بغداد، استهدفته طائرات هيليكوبتر أميركية وقتلته. وكانت «الجزيرة» أعطت الولايات المتحدة في وقت سابق معلومات مفصلة عن مكاتبها في بغداد لتفادي قصف عرضي. وبدلاً من ذلك، تم الأمر قصداً، وعلى مرأى من العامة. ويمكن رؤية مَشاهد من ذلك في الوثائقي الكندي، «غرفة التحكّم» Control Room. وأوقف صحافي موهوب في «الجزيرة»، هو تيسير علوني، بعدما أجرى مقابلة مع زعيم تنظيم القاعدة، أسامة بن لادن بعد شهر من أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، واتُّهم بأنه «إرهابي» في مسقط رأسه إسبانيا. وهو الآن في سجن «ألكالا ـ ميكو» ذي الحراسة المشددة، يمضي حكماً بالسجن لمدة سبع سنوات. ويشك القليلون في براءته، والدليل الوحيد عليه هو أنه حصل على سبق صحافي. ولو توفرت لصحافي لامع، أميركي أو إسباني، فرصة مقابلة بن لادن، فمن المستبعد أنه سيرفض ذلك. «إنهم يكرهون حرّيتنا»، هو شعار متملّقي جورج بوش وتوني بلير، لكن عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن صحافي يقوم بواجبه، يلتزم «المدافعون عن الحرية» الصمت. فالصحافي كان من أصل عربي يعمل لقناة تلفزيونية عدوّة. فمن يبالي؟

مثل «بي. بي. سي.» و«أيه. بي. سي.») تشكل شبكة مهمة من مؤسسات إعادة صناعة الرأي العام، وتدجينه، التي تزنّر العالم. وثنائية الصديق/العدو، المؤمن/الملحد، التي يسوّقها البيت الأبيض و«إجماع واشنطن»، تسيطر على منهج التفكير العام للتغطية الإعلامية. فالهجّاء والناقد النمساوي، كارل كروس، كتب مرة، في أوقات مختلفة، معلقاً أنه «إذا كان المراسل قد قتل مخيلتنا بـ «حقيقته»، فإنه يهدد حياتنا بأكاذيبه».[١]

وغالباً ما أثبتت صورة وحيدة، أُخرجت من إطارها وكُرّرت مراتٍ ومراتٍ، أنها كافية لإقناع مواطني عالمنا الامبريالي ـ العامل لخير البشرية ـ بأن الوقت قد حان لحرب أخرى. وسيطرت صور من هذا النوع على تغطية وسائل الإعلام في خلال التمهيد للحربين على يوغوسلافيا وأفغانستان. لكن، لم تتوفر أي صور محدثة للعراق في ٢٠٠٢، واستُخدمت بتقتير الصورُ السابقة منها التي تُظهر مفاعيل النابالم والغاز السام في إحدى القرى الكردية، بما أنها كانت تعود إلى أكثر من عقدين من الزمن. ولربما استذكر بعض المشاهدين القدامى أن الرئيس العراقي (صدام حسين)، كان في ذلك الوقت حليفاً للغرب، له قدره وشأنه في جمع العواصم العربية (والغربية) ولدى صنّاع القرار فيها، على ما كان عليه المجاهدون الملتحون في أفغانستان (زمن محاربة الاتحاد السوفياتي) وكان يجب الاكتفاء

(١) Karl Kraus, *In These Great Times: A Karl Kraus Reader*, edited by Harry Zohn, Manchester, 1976, p. 78.

بالأكاذيب في غياب الصور. وقد فعلوا ذلك حتى عندما تم كشفها في شكل قاطع على أنها أكاذيب.

وماذا عن زمن السلم؟ تلك الأزمنة، حيث كان من الضروري أيديولوجياً إظهار أهمية التنوع، والرأي العام النابض بالحياة، والسياسات التعارضية لمواطني الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية المحرومين، ولّت منذ زمن بعيد. وقد برهنت الصين أن رأسمالية ديناميكية، لا تتطلب حتى ديموقراطية بدائية. واليوم، يتطلب النظام الجديد تماثلاً اجتماعياً ـ اقتصادياً ـ سياسياً، وأصبحت إدارة الأخبار أكثر أهمية مما كانت عليه في معظم القرن الفائت.[١] ومن خلال بديهة أن القوانين الجديدة تنطبق على كل مظاهر السياسة الامبريالية والاستراتيجية، كيف يمكن تغطيةَ العالم

(١) مثل كاشف عن التماثلية التي يستجلبها النظام الجديد، كان تعليق مدافع عن إحدى وسائل الإعلام الهرمة، على فيلم جورج كلوني الجدّي «ليلة سعيدة، وحظ طيّب» Good Night, and Good Luck، كتب المحرر الثقافي في «بي. بي. سي.»، مارك لاوسن، وقد أخجله، على الأرجح، الغياب الواقعي للإعلام الناقد باضطراد ودوره الهامشي الخاص في انحطاطه، مقالاً بعنوان «غير منصف وغير متوازن» («الغارديان»، ١٠ شباط/فبراير ٢٠٠٦): يريد كلوني من الصحافيين أن يتحولوا عن المقاربة المزدوجة المصدر إلى مسرد بمثقب واحد في مسائل مثل العراق والنفط. لكن، ماذا بالنسبة إلى المشاهدين الذين يؤيدون بوش أو بارونات التنقيب عن النفط؟ فهل يجب أن يُطفئوا أجهزتهم أو يتحولوا إلى «فوكس نيوز»، وهي بمثابة تطبيق يميني موجود لقواعد مورو ـ كلوني التي قلما تشجع تجارب أخرى مماثلة؟ وليس أي من هذا ليوحي بأن «الموضوعية» و«التوازن»، هما هدفان غير قابلين للجدال، أو يمكن تحقيقهما. ولكل تغطية موقف: فحتى موضع يقسم الوقت على العداد بين الأطراف الثلاثة الرئيسية، يقبل ضمناً بالوضع القائم، بينما يأخذ وضعية المحايد. وعلى =

المتغير أن تبقى منيعة؟ بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الصحافيين الغربيين، ناهيك بالأقنية المرتبطة مباشرة بوكالات الاستخبارات، يوجد مقياس واحد لتقويم نظام ما: ليس سجلّه في مجال حقوق الإنسان، بل إذا كانت الدولة المعنية صديقة أو عدوة للرأي السائد في واشنطن. ويمكن حلفاءَ واشنطن أن يقصفوا مدناً، ويعذبوا الناس، ويرتكبوا جرائم حرب، ويتم تصوير ذلك بأنه: إما أمر يؤسَف له لكنه ضروري، وإما يتم لوم الضحايا للموت والقتل اللذين تم إنزالهما فيهم. وفلسطين والشيشان، والعراق وأفغانستان، هي أكثر الأمثلة جلاءً.

ونادراً ما وجدت الأيديولوجية المعلنة للغرب نفسها في نزاع حاد مع الواقع، كما في عام ٢٠٠٢، إبان الانقلاب في فنزويلا المدعوم من الولايات المتحدة والغرب، حيث اعتُبر الرئيس

= حد سواء، فإن تغطية مورو بليتز، بالرغم من أنها تتوافق مع معظم مقاييس البراعة الصحافية، لم تكن لا موضوعية ولا متوازنة. فهي قد انطلقت من فرضية أن إلقاء هتلر القنابل على لندن كان خطأً. لكن الفكرة هي، في ما عدا حالات الانقلاب أو الإبادة الجماعية، أن التوازن يشكل طموحاً أفضل للصحافة الإذاعية، لأنه أقل عرضة للتحامل الشخصي أو الثقافي، ويترك السجل التاريخي أكثر ترتيباً. لذلك، ليس «ليلة سعيدة، وحظ طيب»، بالرغم من ذكائه وأناقته كفيلم، قرص فيديو يقدَّم إلى الصحافيين المتدرجين في أعياد ميلادهم... وفي ثقافة تُقابَل فيها تصريحات وسائل الإعلام بالتشكيك نفسه تقريباً الذي تُقابَل به تصريحات السياسيين، فإن الجواب بالتأكيد ليس المزيد من إعطاء وجهات النظر، بل المزيد من التغطية. «ليلة سعيدة، وحظ طيّب»: فيلم جيد، لكن بمنطق رديء. أحسنت يا مارك. ربما يجب فقط أن تُقدَّم إلى الصحافيين المتدرجين أقراص فيديو عن كيفية إجراء المقابلات مع المشاهير، وإرضاء رؤسائهم، ومن خلال قيامهم بذلك: بناء حياتهم المهنية. إنها الصحافة السلعة في عالم السوق.

المنتخب هوغو شافيز عديمَ الإخلاص والوفاء للمصالح الأميركية في المنطقة (فنزويلا هي أكبر منتج للنفط في أميركا اللاتينية). ورحب واضعو استراتيجيات وسائل إعلام النظام الجديد ومراقبوها، بصخب، بالإطاحة الموقتة لرئيس منتخب، بحيث يُغفر للمرء تخيّله أننا عدنا إلى أزمنة القمع الاستعماري لانتفاضات السكان الأصليين. وظهر التعليق نفسه تقريباً في معظم الصحافة وقنوات التلفزة السائدة. وكما سنرى، فإن الحياة القصيرة لهذا الانقلاب بالذات، جمّدت العملية الإعلامية عند افتتاحية المسرح: فلو مرّ أسبوع آخر لأصبحت التهليلات مصمّة للآذان. هذا الفصل نمّ عمّا خلّفه على مستويات عدة، كما ستتم مناقشة ذلك بتفصيل أوسع في مكان آخر من الكتاب، لأنه من الضروري هنا فقط دراسة حملة التعمية الواسعة في شبكات الإعلام المحسوبة على «إجماع واشنطن».

تغطية الانقلاب في الصحافة الأطلسية ـ الـ «إيكونوميست» والـ «فايننشال تايمز» ـ كانت، كما هو متوقع، منحازة، وتُظهر في الغالب ميلاً إلى التوهّم واعتبار الرغبات حقائق بدلاً من تغطية الواقع الاجتماعي ـ السياسي. كان مراسلا الصحيفتين في كاركاس، هما فيليب غونسون (الذي يعمل أيضاً مراسلاً عند الطلب في كاراكاس لـ «ميامي هيرالد»، وككاتب ممتهن متعدد الأوجه معاد لشافيز عندما يُطلب منه ذلك)، وأندرو ويب ـ فيدال. واتخذ الاثنان موقعاً ثابتاً لهما في مؤخرة الأوليغارشية الفنزويلية وأحزابها السياسية. وأصبح هذان الصحافيان المأجوران، برؤيتهما كل شيء من موقعهما فقط، الحافظين الأساسيين للشعلة الأوليغارشيه في وسائل الإعلام الغربية. فماضي

غونسون الراديكالي كمناصر للثورة الساندينية، وسقوط أوهامه التي أعقبت انهيارها، عكّرا رؤيته إلى فنزويلا. وهو أصبح، بعدما أُصيب بالمضض والاستهكام، مناهضاً متحمساً للعملية البوليفارية، وكان في الأعوام الأولى، خجلاً بعض الشيء، ومتعصّباً أكثر فأكثر مع تنامي شافيز موقعاً وقوة. وطوّر ويب ـ فيدال ـ الأقل ذكاءً، لكن الأكثر انحيازاً ـ نبرة، وطريقة، ومبادئ صحافية من المقالات التشهيرية التي كانت تذكّر، في شكل مستغرب، بالـ «برافدا» في عهد بريجنيف.[1] ولم يخف رجّاز النظام الاجتماعي السيئ السمعة هذا تعاطفه مع الأوليغارشية، ولم تجد الـ «فايننشال تايمز» أي سبب للتشكيك في موضوعيته.

وعندما حاولت حكومة شافيز تولّي أمر عملاق النفط، «بيتروليوس دي فنزويلا»، الذي تسيطر عليه الدولة ـ وقد تم تعيين كبار مدرائه وزعماء نقاباته في مراكزهم على أيدي سياسيي الإدارة السابقة السيئي السمعة كلياً، والذين رفضوا جهارة العمل مع الحكومة الجديدة ـ، أدركت الأوليغارشية الفنزويلية وأزلامها السياسيون، أن الحفاظ على مستقبلهم وحساباتهم المصرفية

---

(١) كانت «برافدا» الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي السابق، وقد اشتهرت بالاختزالية الحادة. واحتل ليونيد بريجنيف منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفياتي لعقود طويلة. وتماثلية الكثير من وسائل الإعلام الغربية اليوم، تذكّر بتلك الحقبة السابقة. فكما كان صدى سياق تفكير الـ «برافدا» يتكرر بأمانة في الصحافة الموالية للسوفيات في أنحاء العالم، هكذا اليوم هو منحى تفكير الاتجاه السائد في واشنطن، وقد أرهفته الـ «إيكونوميست» و«فايننشل تايمز» و«واشنطن بوست» فنّاً رفيعاً، تتم إعادة إنتاجه بإخلاص في كل القارات.

يتطلب تحركاً سريعاً. وكان تعيين مجلس جديد للإدارة بمثابة الإشارة إلى اتحاد عمّال النفط (المرتبط ارتباطاً وثيقاً بحزب العمل الديموقراطي، Accion Democratica المهزوم) للشروع في الإضراب. اقتنع الأوليغارشيون وأصدقاؤهم في واشنطن ومدريد، بأن الاقتصاد سينهار في غياب تدفق النفط، الأمر الذي سيؤدي إلى اضطرابات عامة، ويسمح باستخدام وسائل نقابية عريقة للإطاحة بحكومة شافيز بعدما يكون قد تم إضعافها.

وهكذا، عندما أعطت الإدارة الأميركية، قبل عام تماماً من غزوها للعراق، الضوء الأخضر للانقلاب في فنزويلا، اهتزّ الأوليغارشيون علناً فرحاً. وتلبّس رئيس سابق لغرفة التجارة، متهادم حتى بالمقاييس الفنزويلية، لباس الرئيس الصنيعة. وعندها، أصدر بضعة جنرالات مدجَّنين أمراً بتوقيف هوغو شافيز الذين اقتيد إلى إحدى القواعد العسكرية. عند هذا الحد، كانت الأمور تسوء في ازدياد. ومع انتشار الخبر، ازداد الغضب في الضواحي barrios المحيطة بكراكاس، وقرر الفقراء الزحف إلى القصر الرئاسي، الـ «ميرافلورس» Miraflores. وفي الوقت نفسه، كان حدث آخر بالأهمية نفسها، يدور في القصر. فبينما كانت وسائل الإعلام الغربية جاهزة تنتظر تقديم الرئيس الراضخ للعالم بوصفه منقذ الديموقراطية الفنزويلية (دافعت «نيويورك تايمز» عن الانقلاب بوصفه يحسّن الديموقراطية)، خرج جنرال من القصر وتحدث إلى الفرقة العسكرية. أبلغها أن رئيساً جديداً على وشك الظهور، وأن عليها أن تعزف النشيد الوطني على ما

جرت عليه العادة. اعترض الجنود على أوامره. واستدار الجنرال، الذي أغضبه هذا العصيان، إلى نافخ البوق الشاب، وهو جندي في الثامنة عشرة من العمر، وأمره بأن ينفخ في البوق عندما يشاهد الرئيس الجديد. «اعذرني أيها الجنرال، لكن عن أي رئيس تتحدث؟ نحن نعرف رئيساً واحداً فقط: هوغو شافيز». وطلب الجنرال المستشيط غضباً من نافخ البوق إطاعة الأوامر. عند هذا الحد، سلّم نافخ البوق آلته إلى الجنرال، وقال: «يبدو أنك متشوّق جداً إلى العزف على البوق. خذه. اعزف عليه بنفسك». كان هذا جندياً يمكنه أن يخبر أولاده بفخر: «لم أُطع الأوامر». وأدت تركيبة الفورة الشعبية وخطر التمرّد العسكري إلى العودة الظافرة لشافيز. كان شعب الضواحي قد زحف إلى المدينة للدفاع عن حكومته البوليفارية. قاموا بذلك لأنهم عرفوا أن شافيز قد أُزيح لأنه ساعدهم؛ ولأنهم أدركوا أن فترة «حَمْل» معقدة قد بدأت في فنزويلا تحاول أن تحرر البلاد من سيطرة واشنطن؛ ولأنهم كانوا يؤمنون بأن ضعف البوليفاريين كان أفضل حتى من قوة المعارضة. هذا بالتأكيد هو الانطباع الذي تكون لديّ، بعد سنة من الانقلاب الفاشل، من خلال أحاديثي مع مجموعات من الناس من خلفيات ومشارب اجتماعية وسياسية مختلفة، بعضهم لم يكن من مؤيدي شافيز.

وهكذا، فإن مشاعر نافخ البوق الشاب، كانت أكثر تناغماً مع غالبية مواطنيه في فنزويلا، منها مع مشاعر جماعات وسائل الإعلام المبرمجين للاستجابة إيجاباً مع انقلاب غير ديموقراطي، والذين شرعوا في ذلك من دون أي إحساس بالخجل. وفي

داخل البلاد نفسها، لم يكن للصحيفتين اليوميتين الرئيسيتين، أي تعاطف من أي نوع كان مع شافيز (اعتادت إحداهما على تلقي الرشى أو التمويل السرّي من الحكومات السابقة؛ وقدمت الشروط نفسها للبوليفاريين، لكنها جوبهت بالرفض). وتلقى الانقلاب دعماً من محطة الـ «سي. أن. أن.» الناطقة بالإسبانية، ودعماً أكثر علانية من قنوات غوستافو سيسنيروس. ووجدت الأوليغارشية الفنزويلية في سيسنيروس ممثلها الأكثر صفاءً. كان الملياردير الأميركي اللاتيني، الذي يطمح إلى أن يكون مردوخ، أو برلوسكوني، متورطاً في شكل مركزي في الانقلاب. وفكّر أوّلاً، على غرار أمثاله في أماكن أخرى، في مصالحه الخاصة. فقد خدم الأحزاب السياسية القديمة فقط لأنها خدمت مصالحه، وأظهر تقديره لخنوعها من خلال استخدامه وزير المال النابي، بائع كشّة خاصاً به. وأحبّ أن يدّعي نصفَ ادعاء أن ذلك لم يكن لمكاسب شخصية، بل من أجل مصلحة قارته.[(١)] لكن، لماذا سيقوم بتكريس طاقاته لقارته ما لم تكن هناك أموال يمكن

(١) قام، منذ الثمانينيات، بتوسيع امبراطوريته عبر أميركا اللاتينية لتضم «تشيليفيزون» التيشيلية وتلفزيون «كاراكول» الكولومبي، مع أسهم رئيسية في «دايركت تي. في.» في أميركا اللاتينية الذي تبث أقماره الاصطناعية وجبة من الرياضة، وحلقات الألعاب، والمسلسلات، والاخبار الموجهة في عشرين بلداً أميركياً لاتينياً. وهو يملك أيضاً حصة مربحة في «يونيفيزون»، القناة الإسبانية الرئيسية الموجهة إلى الولايات المتحدة، ومشروعاً تجارياً مشتركاً مع «إي. أو. أل ـ تايم وورنر»، للربط بواسطة الإنترنت في أميركا اللاتينية. انظر: Richard Gott, 'Venezuelas Murdoch', *New Left Review* 39, May-June 2006.

جنيها؟ وهو قد امتلك، منذ ١٩٦١، «فنيفيزيون»، أكبر قناة خاصة في فنزويلا، قبل وقت طويل من تحرك العالم في اتجاهه. وها أنه يُمكن استخدامها اليوم سلاحاً في مواجهة «البرابرة» الذين يهددون سلطة المال. واشتهرت «فنيفيزيون» كثيراً في الأعوام الأخيرة من جراء هجماتها الدائمة على البوليفاريين بوصفهم «رعاعاً» و«حميراً»، والتعبير الأخير يعكس موقف الأوروبيي الأصل من مواطنيهم ذوي البشرة الداكنة. كيف أنهم تضاحكوا في الضواحي المورقة لشرق كاراكاس على عرض الفطنة هذا.[١]

وها أن أكثر تكنولوجيا الإعلام تطوراً، تُوضَع بتصرف الحاجات الأكثر بدائية وتبسيطاً مُفسداً للنظام، لتؤدي كل ما هو مطلوب منها، بما في ذلك الانقلابات والاستبدالات المجونية لرؤساء منتخبين. وتشكل انتخابات تموز/يوليو ٢٠٠٦ في المكسيك، حالة ذات صلة. فبينما كان معظم شبكات الإعلام العالمية، يُعلن عن فوز الجناح اليميني، كان الجناح الليبرالي الجديد يحلل بهدوء ما يجري في البلاد؛ وسرعان ما اتضح أنه كان لمخاوفه ما يبررها. وقد تلقى الفريق المساعدة من مراسلي

(١) قارب سيسنيروس، الباحث عن استعادة سمعته بعد فشل الانقلاب، روائياً قديماً، هو كالوس فوينتس، وأقنعه بكتابة مقدمة زاهية لسيرة حياته التي يطوّب فيها الكاتب المكسيكي سيسنيروس على أنه صوت الحداثة الذي يخوض معركة ضد البرابرة الـ «كوديللو». فعصر التعمية يتطلب تماثلية على كل المستويات، لكن أن يسمح كاتب بمستوى فوينتس لنفسه بأن يتم استخدامه على هذا النحو، لأمر دنيء.

صحيفة «لا جورنادا» المكسيكية المستقلة، الذين كانوا على قناعة بأن المؤسسة، كما في ١٩٨٨، قد سطت على انتخابات عامة أخرى.

وفي غضون ٢٤ ساعة على النتائج الأولية للانتخابات، شككت «أل جيوردانو» التابعة لـ «ناركو نيوز» بالتعمية في أول ثلاثة تقارير أجريت أبحاثها بعناية (وكانت جودتها أفضل بكثير من كل ما نُشر في الصحافة الغربية)، وقامت بإنذار متصفحي الإنترنت حول الممارسات الفاسدة الحاصلة في البلاد:

تبدأ في المكسيك اليوم عملية إعادة فرز الأصوات التي أُدلي بها في انتخابات الأحد الرئاسية... والتي يرفض فيها الحُكّام إعادة فرز الاصوات.

انضمت سلطات المؤسسة الفدرالية للانتخابات IFE (بالأحرف الإسبانية الأولى للتعبير) يوم الثلاثاء إلى حزب العمل الوطني التابع للرئيس فيسينتي فوكس والمرشح فيليبي كالديرون في معارضة إعادة فرز الاصوات. ويأتي هذا في أعقاب ما تم «اكتشافه» يوم الثلاثاء من أصوات بلغ تعدادها ٢,٥ مليون أخفتها المؤسسة الفدرالية للانتخابات منذ انتخابات يوم الأحد، والتي تضاف إلى كمية القرائن المتزايدة ـ وما يوازيها من ارتياب شعبي بالمؤسسات ـ بأنه تم ارتكاب تزوير انتخابي جسيم.

بدأت إعادة الفرز الجزئية في الثامنة من قبل ظهر الأربعاء، في دوائر المكسيك الانتخابية الثلاثمئة ـ لكل منها نحو ٤٠٠ مركز انتخابي

و١٤٠ ألف صوت لجدولتها ـ، وبدأت الشرارات تتطاير بالفعل حول الصراع من أجل إجراء فرز صحيح في ضوء التفويض الشعبي. وأعطى محامو حزب العمل الوطني وقادته ـ وقد تحوّل في الساعات الأخيرة شعورهم بالنصر إلى ذعر واضح ـ الأوامر من مراكز قيادتهم بالمعارضة العامة لأي إعادة فتح لأي صندوق انتخابي، وبالتالي الإعلان العام لمجموع الأصوات التي حازها كل من المرشحين. وفي الجانب الآخر، طوّق ممثلو الحزب الثوري الديموقراطي التابع للمرشح أندرس مانويل لوبيز والكثيرون من المواطنين المستائين، ٣٠٠ مركز للفرز، مطالبين بفرز فعلي للأصوات، صوتاً بصوت...

إحدى المشاكل الرئيسية التي واجهتها المؤسسة الفدرالية للانتخابات وإدارة فوكس، هي أنهما في حال سماحهما بفرز الأصوات فرزاً دقيقاً، ستظهر الحقيقة المُرّة حول العدد غير المعروف لصناديق الاقتراع التي «اختفت في اليومين الماضيين. وعُثر على ثلاثة بالمئة من أصوات مدينة نيزاهواكويوتل ـ وهي معقل لوبيز أوبرادور ـ في مكب نفايات البلدية. وقد اختفى، منذ يوم الأحد، هذه الاثنان بالمئة من النتائج من قيود المؤسسة الفدرالية للانتخابات. وفاقمت مسؤولة في المؤسسة الفدرالية للانتخابات من الجريمة أمس، بعدما كمن لها المراسلون التلفزيونيون، فوضعت الملامة على الجيش المكسيكي. وقالت دفاعاً عن بيروقراطيتها، إن القوات المسلحة هي التي يُفترض بها أن تحرس صناديق الاقتراع، وليس المؤسسة الفدرالية للانتخابات. وأدى ذلك، كما أبلغت مصادر قريبة من الجيش «ناركو نيوز»، إلى غضب كبير في أوساط جنرالات الجيش والقوات المسلحة التي ـ في حال لم يصدق الشعب أو يقبل بالقرار النهائي للمؤسسة الفدرالية

للانتخابات ـ سيتم استدعاؤها لقمع التمرد الوطني الذي سيعقب ذلك.[١]

لم يمكن طمس النطاق الكبير للتزوير، وكان على أكثر المراسلين الغربيين جديةً وحياداً، أن يعترفوا بأنه حصل الكثير من الخداع، خصوصاً بعدما تجمّع مليون ونصف مليون من مؤيدي الحزب الثوري الديموقراطي المعارض في مدينة مكسيكو في ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٦، وتعهدوا بالمقارعة إلى أن يعاد فرز كل صوت بمفرده. وتم التعبير عن الذعر الذي أعقب ذلك في الجناح الأكثر «تنوّراً» للنخبة المكسيكية، بصوت أحد محظيي وزارة الخارجية، خورخي كاستانييدا، في «ميامي هيرالد»، ملمحاً إلى أن لدى المؤسسة المكسيكية ما تخشاه.

وندد كاستانييدا بمطلب إعادة الفرز الشاملة بوصفها غير مقبولة مطلقاً، بالرغم من كل المعلومات التي أصبحت متوفرة بالفعل لدى المراقبين. وكانت مقالته بمثابة التماس من الولايات المتحدة للقبول بكالديرون، بأي ثمن، ومناشدة لكالديرون نفسه أن يسرق عناصر من برنامج معارضه بهدف الفصل بين لوبيز أوبرادور وقاعدته الشعبية. كان هذا بمثابة بديل عن إعادة الفرز الملائمة والشاملة. وشرح كاستانييدا حينها، لماذا على واشنطن أن تبتهج لتخلصها بالكاد من رئيس ذي قاعدة شعبية في المكسيك:

على الولايات المتحدة أن تحصي نِعَمها. فانتصار كالديرون الظاهري كفى واشنطن أحجية رئيسية. وأقول «الظاهري» لأنه، استناداً إلى

---

(١) يمكن دخول موقع «ناركو نيوز» على: www.narconews.com.

البعض، لا يزال الأمر موضع شك. لكن، بعد احتسابين كاملين، تشير الاستطلاعات الانتخابية والاحتسابات السريعة كلها، إلى الاتجاه نفسه: يبدو أنه لا يمكن تصوّر أن تقبل محكمة الاستئناف المكسيكية الخاصة بالانتخابات، بإلغاء الانتخابات، أو بقلب قرار المؤسسة الفدرالية للانتخابات. فربما كان لوبيز أوبرادور «هوغو شافيز» آخرَ. لكن، يمكن بالتأكيد اعتباره لويس إيتشفيريا آخرَ، الذي ترأس البلاد بين ١٩٧٠ و١٩٧٦، واتُّهم أخيراً بارتكاب جرائم ضد الإنسانية في مذبحة تلاتيلوكو في ١٩٦٨، عندما كان وزيراً للداخلية.[1] كذلك، فإن لوبيز أوبرادور لم يوضح مطلقاً موقفه من شافيز أو كوبا في شأن ما يفكّر فيه حقيقة حول الطريقة التي يُحكم بها البلدان. وهو يكشف عن حقيقته ليس فقط من خلال رفضه القبول بقرار المؤسسة الفدرالية للانتخابات ـ ومن حقه بالطبع الاعتراض عليه في المحاكم ـ، بل أيضاً من خلال معارضته في الشارع والتنديد بالمؤسسة الفدرالية للانتخابات ويفوكس على أنهما خائنان للديموقراطية ومهندسا تزوير الانتخابات.

لذلك، من الأفضل لواشنطن أن تتذكر، كما قال الكثيرون من قبل،

(١) في ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٨، احتشد عشرات الألوف من الطلاب والعمال (وزوجاتهم وأولادهم) في تجمّع في ساحة «لا تريس كولتوراس»، في تلاتيلوكو في مدينة مكسيكو. وعند المغيب بدأ الجيش والشرطة في إطلاق الرصاص الحي على الحشود، قاتلين المتظاهرين والمارة معاً، في عملية استمرت خلال الليل، بينما كانت قوات الأمن «تقوم بعمليات مسح» في المنازل المجاورة والشقق السكنية. وتتراوح تقديرات عدد القتلى ما بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ إلى عدة آلاف.

أن وجود إيفو مورالس في الأنديس، أو هوغو شافيز على طول الأورينوكو، هو أمر، ووجوداً ذا قاعدة شعبية على حدودها أمر آخر كلّياً.[1]

بالرغم من هذا النداء، رفض عدد من المراسلين الغربيين إعطاء كالديرون فرصة الشك وعدم اليقين. فاستمر انتقادهم للإجراءات القانونية، وهو ما لم يقوموا به قطعاً عندما كان العمل جارياً في انقلاب ٢٠٠٢ على شافيز في فنزويلا. عندها بعث مراسل «فايننشال تايمز» أندرو ويب ـ فيدال بالرسالة التالية ذات السخونة المفرطة، وهي نموذج للتعمية والدعاية اللتين ستفجرهما الأحداث التي تسرّبت بعد ذلك بـ ٤٨ ساعة، في ١٤ تموز/يوليو:

تَوّج التمرد العسكري الجاري في فنزويلا ليلة أمس، أسبوعاً من التوترات السياسية تميّز بالتظاهرات، والإضرابات، ووقف الحكومة نشرات الأخبار التلفزيونية، وأخيراً بالمعارك التي انتقلت إلى الشوارع. وأطلقت مجموعة من الضباط الكبار، من مختلف قطاعات الجيش، لقب «خائن الأمة» على الرئيس هوغو شافيز، الذي يُعتقد أنه موجود في القصر الرئاسي.

فقد أشعل شافيز التوترات عندما طَرَدَ، عبر التلفزيون، المدراء الكبار في «بتروليوس دي فنزويلا» التي تملكها الدولة، والذين كانوا قد دعوا إلى إبطاء في عمليات تنقيب الشركة وضخها البترول، احتجاجاً على تعييناته الأخيرة فيها.

(١) انظر: *Miami Herald*, 12 July, 2006.

وبالنسبة إلى مروحة واسعة من المؤسسات التجارية، والاتحادات، والمجموعات المدنية، وأحزاب المعارضة، كانت عملية الطرد الحيّة، على الهواء، منتهى سلسلة من الإجراءات التي قام بها شافيز، واعتُبرت لا تُحتمل ولا تُطاق. ورداً على ذلك، شرعوا في إضراب تعطيلي مفتوح. ويقول المحللون إن البلاد رست على هذه الحال من التمرد المدني المفتوح، بسبب الصراع الجوهري حول فهم الفنزويليين للأشخاص الذي اعتقدوا أنهم سيصلون إلى الحكم، وأولئك الذين حصلوا عليهم بالفعل.

انتُخب شافيز، وهو قائد كاريزماتي سابق للجيش قاد انقلاباً فاشلاً في ١٩٩٢، في انتخابات كاسحة منذ ثلاثة أعوام، ممتطياً رغبات السكان الذين صمموا على حظر أحزاب الماضي التي تلونت بألوان الفساد.

يقول لويس ليون، مدير شركة استطلاعات الرأي «داتاناليسيس»، إن الفنزويليين رأوا في شافيز المعَاقِب لمساوئ الماضي، وزعيماً للأمة صاحب رسالة تقليدية أميركية لاتينية شعبية. لكن تبين، في شكل تدريجي بعد انتخابه، أن شافيز كان أمراً مغايراً. وهو يعتقد حقاً أنه ثوري، ولم يؤمن قط بالنظام الديموقراطي، واستخدمه ببساطة ليُضفي شرعية ظاهرية على أفكاره.

وحاول شافيز، في ظل ما يسميه ثورته البوليفارية، أن يُضفي طابعه الشخصي على مزيج مكهرب من التدخّل الأكبر للدولة في الاقتصاد، والإصلاحات الدستورية، والخطاب الراديكالي. وقد بثّ في هذه التحركات، إشارات متكرّرة إلى استحضار شخصية سيمون بوليفار، بطل التحرير الأميركي اللاتيني في القرن التاسع عشر، الذي أطلق اسمه على حركته؛ وأيضاً إلى فيدل كاسترو، رفيقه المقرّب.

وفي الممارسة، بالرغم من البلاغات الكلامية والمردود غير المحتسب من أسعار النفط المرتفعة، توحي استطلاعات الرأي، بعد ثلاثة أعوام، أن غالبية الفنزويليين تعتبر أن حكومة شافيز فشلت تماماً في إيجاد حلول كفيلة بقلب اتجاه الاقتصاد المتراجع، وفي مكافحة الجريمة المتزايدة. أضف إلى ذلك، أن شافيز أظهر نفسه على أنه متغطرس ومستبد. يقول عنه منتقدوه، أمثال تيودورو بتكوف، وزير التخطيط السابق ورئيس تحرير صحيفة «تال كوال» اليومية النافذة، إنه أدار البلاد كما لو أنه «ضابط صف» في ثكنة عسكرية. وأحد الأمثلة على أسلوب شافيز العسكري، هو علاقته التصادمية مع وسائل الإعلام المحليّة، والتلفزيونية بصورة خاصة.[1]

في اليوم التالي، ألحقت مقالة ويب ـ فيدال بمساهمة من زميله الكاتب صاحب التوجهات نفسها، ريتشارد لابر، بعنوان «نهاية النظام التعسفي». ولم تشكل تحسناً لا في الأسلوب النثري، ولا في الموضوعية:

أثبت خروج الرئيس المخلوع، هوغو شافيز، من قصر «ميرافلورس» الحكومي، الذي تميز بالعنف، أنه صورة مرآة منعكسة لدخوله عالم السياسة الفنزويلي. وتماماً كما دخل باندفاع إلى الساحة في محاولة انقلابية منذ عقد، فإن انقلاباً أطاح به.

جاءت استقالة شافيز الإكراهية بعدما قادت مجموعة من الضباط الكبار، ثورة غداة قيام مؤيدي الرئيس بفتح النار على مظاهرة مناهضة للحكومة من ١٥٠ ألف شخص، فقتلوا ١٣ وجرحوا أكثر من مئة.

---

(١) انظر: *Financial Times*، ٢٠٠٢، ١٢ نيسان/أبريل. ولصورة مكتوبة عن بتكوف، انظر الملحق «أ»: «تيودورو بتكوف: رجل كل الفصول».

إن النهاية غير المشرفة لثلاث سنين من نظام شافيز المستبد، شكلت، في مجال أربع ساعات، خلاصة تمرّد للقوات المسلحة. لكن، بينما كانت الكلمة الأخيرة للعسكريين، فإن الاستياء المتزايد لتحالف واسع ـ وغير مألوف بصورة ما ـ لزعماء العمال، والتجار، والمدنيين، ومطالبهم المتصاعدة، كان القوة الحقيقية وراء إبعاد شبح شافيز.

فمنذ نهاية العام الماضي، والسخطُ بين مجموعات التجار يغلي على نار خفيفة، عندما سَنَّ الرئيس مجموعة من ٤٩ قانوناً اقتصادياً جذرياً، زادت من دور الدولة في الاقتصاد.[١]

إن مراسلي «فايننشال تايمز» ـ وهناك حاجة إلى التشديد على أن كل تلك الصحف وشبكات التلفزة والمتزلفين السياسيين الكبار منهم والصغار،[٢] الذين اقتدوا بـ «إجماع واشنطن»

(١) انظر: Financial Times, 13 April, 2002.
إن الدحض الأكثر تفصيلاً وفاعلية لمزاعم أن مجموعات موالية لشافيز فتحت النار، موجود في دراسة غريغوري ويلبرت، «تغيير فنزويلا من خلال الإمساك بالسلطة» Gregory Wilpert, *Changing Venezuela By Taking Power.*

(٢) أحد أكثر الضفادع نقيقاً، ولو أنه تافه، كان دنيس ماك شين، وكان حينها وضيع المقام في الخارجية البريطانية، ولا يخجل قط من تسويق نفسه. وقد أيد الانقلاب علناً، وأشار إلى شافيز بوصفه ديماغوجياً متشدّقاً. وماك شين، الذي أُخرج من الحكومة لأسباب من خارج المنهج، غالباً ما يظهر في برامج الـ «بي. بي. سي.» حول فنزويلا. وسُمع في فترة أكثر حداثة يبلغ متخصصين بريطانيين في شؤون أميركا اللاتينية وأكاديميين، أن مساعدتهم حيوية لأن «توني بلير منزعج جداً من التحول إلى اليسار في أميركا اللاتينية». وقد رحبت «بي. بي. سي.» بالانقلاب، واصفة شافيز بأنه ليس ديموقراطياً بقدر ما هو مستبد. هذا حسن، إذاً. أما ما يصوت عليه الفنزويليون ففي غير موضعه.

(«سي. أن. أن.»؛ «بي.بي.سي.»؛ «إل بايس»؛ «لو موند») في عكس وجهات نظر السياسيين المهزومين وصانعي الانقلاب ـ إما استهانوا بالوقائع التالية، وإما تجاهلوها:

أ ـ إن النفور العام من عنف نظام الحكم الثنائي السابق وعدم كفايته وفساده، كان في أساس الانتصارات البوليفارية. وكانت النتيجة هي انتخاب هوغو شافيز رئيساً، وأنه فاز بأغلبية ساحقة في استفتاء عام على الدستور الجديد للبلاد في مواجهة معارضة مكونة من شتات جميع الأحزاب الأوليغارشية؛

ب ـ إن التوترات السياسية كانت النتيجة المباشرة لرفض الأحزاب السياسية المهزومة القبول بحق حكومة منتخبة في تطبيق برنامجها، وكانت تذكّر بـ «ثورة الطبقة الوسطى التي قام بها الوطنيون التشيليون» ضد الليندي في ١١/٩/٧٣، والتي دبّرها وزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كيسنجر وجهاز الاستخبارات الأميركية الـ «سي. آي. أيه.»؛

ج ـ إن الرجال الذين سمّوا شافيز «خائن الأمة». كانوا يحاولون، في وقت واحد، إحباط الديموقراطية الفنزويلية، ويعملون بالتوافق مع السفارتين الإسبانية والأميركية في كراكاس؛

د ـ إن شركة استطلاع الرأي التي تم الاستشهاد بها، معروفة جيداً بعلاقاتها الوثيقة بالأحزاب السياسية المناوئة لشافيز، والمنغمسة في الفساد؛

هـ ـ إن ٨٥ بالمئة من وسائل الإعلام ملكية خاصة، وقد عارضت شافيز بضغينة، ناشرة في أغلب الأحيان إهانات

شخصية وعرقية، لم تكن ـ ولن تكون ـ لتسمح بها أي حكومة غربية (إن ويب ـ فيدال، الذي دافعت صحيفته عن مهاجمة حكومة بلير للـ «بي. بي.سي.»، بطل مُستَغرب لـ «الحرية» الإعلامية).

وبالرغم من ذلك كله، لم تستول إدارة شافيز على، أو تعاقب أي صحيفة أو محطة تلفزيونية فنزويلية.

وبعد ذلك بأيّام، عندما بلغ انهيار الانقلاب آخر المطاف، اضطر توأم ويب ـ فيدال السياسي فيل غونسون، إلى التسليم في الـ «إيكونوميست» بأنه:

في غضون ساعات، بدأ الانقلاب بالتكشف. كان المخطط الأساسي لطغمة مدنية ـ عسكرية حاكمة واسعة، قد طرح حتى قبل استسلام شافيز للجيش. وقد أحلّ مكانه رئيساً بيدرو كارمونا، رئيس لوبي رجال الأعمال، مع حكومة من متعصبين محافظين استُبعد منها العمّال. وتم إقناع كريمونا، بأن يأمر بالحل الفوري للجمعية الوطنية والمحكمة العليا، وأن يمزّق الدستور الذي وضعه شافيز والذي سبق أن صدقته أغلبية واسعة في استفتاء كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩. وهذا الانقلاب داخل الانقلاب، المتشرنق كالأسروع داخل المؤامرة الأصلية، أغضب الكثيرين ممن عملوا على خلع شافيز.

ويرغم ذلك، كان من المدهش أن شافيز، الذي بدا في ١٢ نيسان/أبريل أنه يفتقر إلى أي دعم عسكري، ستعيده القوات المسلحة إلى قصر الرئاسة بعد ذلك بيومين. لكن، بالرغم من أن كارمونا كان مدعوماً من الكثيرين من الجنرالات والأميرالات، فإنه كان يفتقر إلى دعم ضباط الرتب المتوسطة الذين يسيطرون

على الجنود. واستهان المحافظون بحمية من تبقى من مؤيدي شافيز وغضبهم. فقد أظهرت استطلاعات الرأي، أن دعم شافيز هبط إلى ٣٠٪. لكن مؤيديه في الكثير من ضواحي الأكواخ في كراكاس تدفقوا إلى الشوارع في عطلة نهاية الأسبوع ينهبون ويشاغبون. وفي المجموع قُتل نحو خمسين شخصاً في الأيام الأربعة من الفوضى. وفي النهاية، فشل المحافظون في اتخاذ الإجراءات الأولية لضمان إمساكهم بالسلطة. وكانت انتفاضة بقيادة فرقة الكوماندوس (التي كان شافيز قائداً سابقاً لها) والحرس الرئاسي كافية للإطاحة بكارمونا.

لكن غونسون أوحى من طرف خفي:

ربما عاد شافيز إلى مهامه، لكن بلاده تبدّلت منذ الأسبوع الماضي. فقد كشف الانقلاب أن المعارضة كانت على حق عندما أصرت على أن معظم ضباط الجيش مؤسساتيون، لم يصدّقوا على «ثورة» خافيز (تشافيز) «البوليفارية». ومعظم أولئك الذين دعموا إعادته لم يفعلوا ذلك لأنهم يشاركونه أيديولوجيته، بل لأنهم يؤمنون بحكم القانون. «تمردنا على الحكومة وليس على الدستور»، قال الجنرال إفراين فاسكيز عندما سحب دعمه لكارمونا في ١٤ نيسان/أبريل (مع أنه اعتُقل لاحقاً لدوره في الانقلاب).

وربما جاءت إعادة شافيز مشروطة بتعهدات. وهناك ثلاثة أمور ربما يحاول الجيش محاسبة الرئيس عليها. هناك أولاً، السيطرة على صناعة النفط، وهي المسألة التي أثارت الإضراب العام. ثانياً، يريد الجيش منه نزع سلاح «الدوائر البوليفية»، وهي ميليشيا مدنية ناشئة، أطلق بعض عناصرها المتشددين النار على مسيرة المعارضة. ثم هناك ما

يبدو أنه موقف شافيز المتعاطف حيال الثوار الكولومبيين. فالجيش يريد أمنا حدوديا أكثر تشدداً.(١)

تم الاستشهاد بالكامل بالتعذّرين التوأمين لصانعي الانقلاب، لأن ذلك يعبر عن حكمة وزارة الخارجية الأميركية والاتحاد الأوروبي. فلو أن الائتلاف المتباين الممثل للأوليغارشية بكاملها، قد سيطر، لكانت الأمور كلها بخير. وأعربت كوندوليزا رايس، وكانت حينها مستشارة للأمن القومي في البيت الأبيض، علناً، عن أملها أن الانقلاب قد علّم شافيز «درساً»، وأنه سيتصرف كما يجب في المستقبل. في الواقع، كان كل من الآنسة رايس وأصدقائها في الصحافة العالمية يعبرون في شكل كبير عن أمنيات يتمنون لو تتحقق. فلم يكن لكبار ضباط الجيش سوى تأثير ضئيل في فشل الانقلاب، بل كان مرد ذلك إلى إدراك ضباط الصف في الجيش الفنزويلي، أن الجنود العاديين يهددون بالتمرد إذا لم تتم إعادة شافيز إلى الرئاسة. كان ذلك، بالإضافة إلى التمرّد الشعبي، ما جعل الانقلاب غير قابل للحياة. وخلافاً لآمال الغرب وصحافييه، أعطى القوّة لشافيز وأمن له الانتصارات الانتخابية في الأعوام التي تلت. واعتقاد غونسون أن التصنيفات المنخفضة في استطلاعات الرأي (وهو لا ينيرنا في شأن الشركة التي قامت بهذه الاستطلاعات، وفي أي محافظات) قد دفعت بالسياسيين إلى الاستهانة بكتلة الدعم لشافيز، أمر مسلٍّ للغاية، حيث إن كلاً من جورج بوش والمرتبط معه بالدم الإنكليزي توني بلير [استقال من منصبه من حزب العمال في شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٧،

(١) انظر: 'Hugo Chafez Has Survived for now, but Power Lies, with the Army', *The Economist*, 18 April 2002.

وترك منصبه في رئاسة الحكومة في حزيران/يونيو من العام نفسه، بسبب توسع رقعة الاحتجاج الشعبي ضده ـ المترجم]، كانا عند حدود ٣٠ بالمئة أو أقل في ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦. فهل يبرر ذلك انقلاباً تقوم به هيئة الأركان المشتركة؟ ولو أن مثل هذا الانقلاب وقع بسبب الخلافات حول العراق، فهل «كتلة» الفقراء السود في واشنطن العاصمة، ستقوم بتطويق البيت الأبيض لإعادة الرئيس المفكّر الكبير؟ إنها أسئلة لا تُطرح على حراس المصالح الامبريالية. لكن، بالرغم من أن عَماهما الكامل عن البعد العرقي للسياسة الفنزويلية يتحدث عن نفسه، فمن غير العادل استفراد التوأمين في كاراكاس.[1] فقد تم تكرار خربشاتهما مع بعض التنويع في الـ «إندبندنت»، و«لو موند»، و«ليبيراسيون»، و«إل بايس»، ومعظم وسائل الإعلام الأميركية. أما الصحافة الألمانية فكانت، هامشياً، أكثر تمالكاً للنفس، وتحدثت تقارير صحيفتين برلينيتين عن تورط أميركي في الانقلاب منذ البداية.

«لو موند»، التي كانت في ما مضى مثالاً جدياً على نقل الأخبار من القارات، انحطّت إلى مستوى يعدو حدَّ التعرف إليها.

(١) [في فنزويلا، في ظل ثنائية الحكم] تآكل مبدأ المساواة العرقية من جراء الممارسات المكثفة للتمييز والتفرقة، بما في ذلك، على ما يبدو، التافهة منها، التي تظهر كيف أنه جرت إعادة رسم الحدود العرقية (مثل منع دخول الفنزويليين ذوي البشرة الداكنة إلى مراقص كبار الطبقة الوسطى). هذا السياق نفسه، بالتعبيرات العرقية المشابهة، يجري في بلدان أميركية لاتينية أخرى، مثل البيرو، حيث حكمت المحكمة العليا أخيراً لمصلحة أحد النوادي في منع دخول البيروفيين من ذوي البشرة الداكنة. انظر: Fernando Coronil, *Toward a Critique of Golbalcentrism: Speculations on Capitalisms Nature in Millenial Capitalism*, edited by Jean and John Comaroff, Durham, NC, 2001.

فغداة أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، كتب ناشرها جان ـ ماري كولومباني، افتتاحية انفعالية بعنوان «كلنا أميركيون». وكانت هذه هي الحال بالتأكيد قبل وقت طويل من شهر أيلول/سبتمبر في تلك السنة، حيث تبنّت «لو مونود» وضعية «أطلسية» في خلال عهد ليونيل جوسبان والحكومة الاشتراكية. فقد دعمت حرب حلف شمال الأطلسي على يوغوسلافيا، ونشرت لبعض الأصوات القليلة جداً المخالفة. وتلوّن موقفها من الانتصارات البوليفارية في فنزويلا بالتحاملات نفسها التي كشفت عنها «أكريمد» Acrimed، وهي الموقع الالكتروني الأكثر تطوراً وانتقاداً في أوروبا، ومؤسسه هنري مالر يلسع بشدّة.[١]

وهناك هامشياً، نسخة أخرى من الحملة نفسها، أقل فظاظة، وهي التشبيه المتكرر بين الأميركيين اللاتينيين «الأشرار» (كاسترو، شافيز، والآن موراليس) والأميركيين اللاتينيين «الصالحين» (لولا، باشْلِتْ، غارسيا، وفوكس) مع نستور كريشنر متأرجحاً في الوقت الراهن بين الفئتين. واختَبَرْتُ ذلك عن كثب

(١) انظر: www.acrimed.org. لم تكن «ليبيراسيون» مختلفة كثيراً. وبالكاد، يبدو ضرورياً تذكّر أنه إبان تلك الفترة، كان تروتسكي سابق يرأس تحرير «لو موند»، بينما رأس ماوي سابق رئاسة تحرير «ليبيراسيون». ويكاد يمكن المرء أن يستشعر إحساساً من الخيبة في الصحيفتين عندما رفضت الحكومة الفرنسية دعم غزو العراق. فمعظم صحافييهما كانوا على استعداد للانضمام إلى صيحات استحسان زملائهم الأميركيين. واستعيدت العلاقات الجيدة عندما أقنع الرئيس شيراك بوش بالإطاحة برئيس هايتي المنتخب. نقلت «ليبيراسيون» الحدث بفرح، منددة بالزعيم الهايتي المخلوع بعبارات تجمع بين التعصّب السياسي والعرقية. ولما تعرضه «أكريمد» حول تغطية «لو موند» في فنزويلا، انظر: «الملحق «ب»».

خلال زيارة إلى البرازيل في ٢٠٠٥، عندما أدت محاضرة عامة في جامعة ريو الفدرالية إلى افتتاحية لكبير كتّاب صحيفة البلاد اليومية الرائدة، «فولها دي ساو باولو»، يحمل فيها بشدة على جريمة مقابلة الإصلاحات في فنزويلا بصحراء الليبرالية الجديدة في البرازيل.[١]

---

(١) *Folha de Sao Paulo,* 21 September, 2005، اتهمتني افتتاحية بعنوان Esquerda Obtusa بالتعبير ranco antidemocratico اللاديموقراطي الذي يجب التنديد به بسبب ما يُفترض أنه تحريضي ضمن شرائح من اليسار البرازيلي. ونشر ردّي في الصحيفة بعد ذلك بأسبوع (٣٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥)، وأثار نقاشاً مثيراً للاهتمام. تلقّيت أكثر من ٢٠٠ رسالة عبر البريد الالكتروني من مختلف أنحاء البرازيل، أوحت أنه، مهما يكن الأمر، فإن التجربة الفنزويلية تناقش بحدة في مختلف أنحاء البلاد. كتبت:
ما جادلت به في محاضرة جامعة ريو الفدرالية هو أن الكثيرين من السياسيين (بمن فيهم لولا) يحترمون المؤسسات المناهضة للديموقراطية: صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، وزارة الخزانة الأميركية، منظمة التجارة العالمية. هذه مؤسسات «إجماع واشنطن»، غير منتخبة في كل الأحوال، وموظفوها الرئيسيون تعينهم الولايات المتحدة أو توافق عليهم.
هل الديموقراطية تعني اليوم اقتصاداً ليبرالياً جديداً مع أفضلية للاستهلاك، والمضاربة تعني قطباً للنشاط الاقتصادي، ودخول رأس المال الخاص غير منتهك حتى الآن مجالات التموين الجماعي؟ أهذا ما تسمح به الديموقراطية بحيث ما سنحصل عليه هو ديكتاتورية رأس المال؟ أمن الممكن في هذا العالم الليبرالي الجديد تحدّي هذا الرأي السائد؟ أو هل مثل هذا التحدي يشكل علامة على «الشعبية» أو «الديكتاتورية»؟ هل التنوّع ينعكس في واقع أن المحررين الـ ٢٤٧ لروبرت مردوخ في أنحاء مختلفة من العالم، أيدوا الحرب في العراق؟
أحداث فنزويلا مهمة، ليس لأنه يمكن كل بلد في أميركا اللاتينية أن يتبع هذا الطريق. فلكل بلد مزاياه الخاصة وتقاليده ومؤسساته. لكن أهمية فنزويلا تقع في واقع أن البوليفاريين أعادوا تنشيط الديموقراطية وأعادوا إليها شبابها. أعطى الدستور البوليفاري الشعب حق إعفاء الرئيس من =

= منصبه. ولا يوجد أي بند مشابه لذلك في أي دولة أميركية لاتينية أخرى. إن وجهات النظر التي تعبّر عنها في افتتاحيتك هي ترداد ببغاوي لتلك التي تعبّر عنها الأوليغارشية الفنزويلية وأحزابها السياسية، والتي لطالما هُزمت في الانتخابات الوطنية والمحلية وفي الاستفتاء الشعبي. فالرئيس السابق جيمي كارتر هو من أعلن أن الاستفتاء في فنزويلا كان ديموقراطياً بالكامل. فقد وضع شافيز ثقته بأفراد الشعب، فولّاهم السلطة وجاوبوه بسخاء. وبنكران هذا الواقع لن تتمكن المعارضة ومؤيدوها إلا من إلحاق المزيد من إسقاط السمعة في حقهم.

ومهما تعالت أصواتهم (وأصوات المدافعين عنهم في وسائل الإعلام في الداخل والخارج) حسرة، فالواقع أن البلاد بأسرها تعرف ما حصل. فقد هزم شافيز مناوئيه ديموقراطياً، للمرة الرابعة على التوالي. وحصل هذا بالرغم من عداء وسائل الإعلام الخاصة التام: ولم تبذل الصحيفتان اليوميتان، «أونيفرسال» و«ناسيونال»، وكذلك القنوات التلفزيونية التي يملكها غوستافو سيسنيروس، و«سي. أن. أن.»، أي محاولة لإخفاء دعمها الفظ للمعارضة. وأقنع بعض المراسلين الأجانب في كاراكاس أنفسهم بأن شافيز زعيم عسكري عاتٍ. وهم، شأنهم في ذلك شأن كاتب افتتاحيتكم، يسعون يائسين إلى ترجمة أوهامهم الخاصة إلى حقائق...

فهل يتعلّم لولا وحزبه العمالي شيئاً من هذه التجربة؟ في وسعهم ذلك. ففي فنزويلا يتلقى الآن مليون طفل من مدن الأكواخ والقرى الأكثر فقراً تعليماً مجانياً؛ وتم تعليم ١,٢ مليون أمّي القراءة والكتابة؛ وتم توفير التعليم الثانوي لـ ٢٥٠ ألف شاب وشابة منعهم وضعهم الاجتماعي من هذ الحق إبان النظام القديم؛ وبحلول ٢٠٠٣ كانت ثلاثة مبان جامعية جديدة تعمل بينما سيتم إنجاز ستة أخرى مع نهاية ٢٠٠٦.

وفي ما يتعلق بالعناية الصحية، قام الأطباء الكوبيون العشرة آلاف بتغيير الوضع في الأحياء الفقيرة، حيث أقيمت ١١ ألف عيادة في الضواحي، وزيدت الموزانة الصحية ثلاثة أضعاف. أضف إلى ذلك الدعم المالي المتوفر للأعمال الصغيرة، والمنازل الجديدة التي تبنى للفقراء، وقانون الإصلاح الزراعي الذي تم العمل به وتمريره بالرغم من معارضة الملاكين القانونية والعنيفة. وتم في نهاية العام الماضي توزيع ٢,٢٦٢,٤٦٧ هكتاراً على ١١٦,٨٩٩ عائلة. وبذلك تتضح أسباب شعبية شافيز...

من السخف الإيحاء بأن فنزويلا على شفير مأساة توتاليتارية. فالمعارضة هي التي حاولت أخذ البلاد في هذا الاتجاه... انظر: *Folha de Sao Paolo*, 30 September 2005.

وقلّما يكون مصدر هذا الفيض من الدعاية التي لا تلين سرّاً. فهل تتمكن من فرض إرادتها، وتعيد فرض خاتمة ضارية ووحشية على قارة كثيرة الاضطرابات؟ ولماذا هذا القَدْر من العداء والخوف من الحركات الجديدة، ومن الحكومات التي تبغي بديلاً من «إجماع واشنطن»؟ يُحتمل أن مؤيدي واشنطن تخيّلوا شيئاً مختلفاً: فردوساً، أو عالماً متحولاً إلى سوق، لا يُعارض، ولا تمكن معارضته. أعمى الانتصار الكاسح للرأسمالية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، مؤيدي هذه الرأسمالية، القدامى والجدد، عن أي إمكانية أخرى. فقد تم تدجين الروح العالمية. كانت تلك نهاية التاريخ. وطُرحت الأفكار الراديكالية، وأُرسلت الأعمال التي استندت إليها إلى المحرقة العامة. فالقرون الذهبية أمامنا. وأن يكون محاربو صندوق النقد والبنك الدوليين متحمسين إلى هذه الرؤية هو شأن؛ لكن روح الزمان أحدثت أثراً عميقاً في الكثيرين من المناوئين السابقين لنظام رأس المال. وبدأوا، وقد غلبهم التعب والخوف من المجهول، في تصوير انتصاراته الجديدة بألوان زاهية بديعة، وبلغة أكثر مغالاة من تلك التي استخدمها غلادستون منذ ١٥٠ سنة، عندما وصف بغضاضة أكبر النجاحات الامبريالية بأنها «النمو المُسْكِر والازدياد في كل ثروتنا وسلطتنا».

أثّر سقوط الأوهام في ما بعد ١٩٨٩، والتهكّم والنظرة المريرة إلى الماضي، في كل قارة من دون استثناء. وأولئك الذين تبنّوا اليوم نظرة المنتصرين للتاريخ، جاؤوا من كل الطبقات الاجتماعية والخلفيات السياسية، وشكلوا مزيجاً من: الديموقراطيين الاجتماعيين اليساريين؛ والشيوعيين الأوروبيين؛

والتروتسكيين السابقين؛ وخلاصة المتشيّعين في ريعان شبابهم، وينقلون الآن الرذيلة نفسها لخدمة قضايا أكثر قدماً؛ والماويين الذين سبق وكانوا ميالين إلى عنف الشارع؛ والمنظرين الماركسيين، والمعادين الغيورين للامبريالية الذين دفعتهم حماستهم إلى الدفاع عن الـ «درغ» Dergue الإثيوبية والتدخل السوفياتي الكارثي في أفغانستان؛ والفوضويين السابقين ـ يمكن إيجاد ممثلين عن كل هذه الأنواع يخدمون تقريباً كل حكومة ليبرالية جديدة ـ في أوروبا وأميركا الشمالية، وجنوب أفريقيا والبرازيل، والصين وأستراليا، والعالم الإسلامي، أو، عندما لا يكون ذلك ممكناً، يصفّقون بقوة من على الخطوط الجانبية. إنهم لا يزالون يؤمنون بصراع الطبقات، لكنهم بدّلوا انتماءاتهم.[1] فهم لم يدركوا أن الخط البياني للتاريخ لا يرتفع قط على استقامة واحدة. وهو خط متكسّر ومتناقض، قد يسقط إلى الصفر ثم يرتفع من جديد، فجأة ومن دون سابق إنذار.

اجتمع السياسيون والأكاديميون، والروائيون ومؤلفو المسرحيات، وصانعو الأفلام والصحافيون، للاحتفاء بكل انتصار جديد للرأي السائد في واشنطن. كما أنه لا يجب نسيان أنه في تلك الأيام الجامحة لما بعد ١٩٩١، جاءت أخبار

(١) ما يستأثر بالاهتمام أن الهند، وحدها من بين البلدان الكبرى، كان لها نوع من المناعة ضد هذا المرض، ربما لأن الغالبية المهيمنة من المفكرين اليساريين القريبة من الفئات البرلمانية وغير البرلمانية اليسارية في الهند، احتفظت بقاعدة شعبية ساعدتها على الاحتفاظ برباطة جأشها بعد انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفياتي والصين.

الانتصارات كثيفة وسريعة. وكلما كان «المهتدي» حديث العهد، كلما قويت الحماسة التي يتم من خلالها الدفاع عن النظام العالمي الجديد. هناك توق شديد إلى القطيعة النهائية مع الماضي، وإلى إظهار ذلك في ما يمكن من العلن بأنغام تذكّي نفسها بنفسها، من دون أي حمرة خجل. وهل من طريقة أفضل من التنديد بمعارضي الحروب الإنسانية (السوط الاستعماري الذي هو إرث القرون الماضية الأكثر وحشية وخبثاً) بوصفهم أعداء رجعيين للحضارة، وبكل الخيارات المناهضة للرأسمالية، على أنها تعبّد الطريق أمام التوتاليتارية؟ ولأنهم أقنعوا أنفسهم بأنه ما من طرائق أخرى ممكنة أو مرغوبة، فقد أعادوا صياغة حياتهم وعملهم ليفوا بمتطلبات النظام الجديد. بل إن بعضهم وجد نفسه عاجزاً عن إدانة التعذيب ما دام يُمارَس في مصلحة الإنسانية والحضارة. واكتشف آخرون أن الاستعمار القديم العهد، لم يكن في النهاية بهذا السوء، ودافعوا عن الاحتلالات الامبريالية للدول ذات السيادة وإنشاء محميات غربية جديدة في البلقان أو الهندوكوش. وهم يصرّون طوال الوقت على أنهم الأصوات الحقيقية للعقل. نعم، لقد انضموا إلى صفوف الجيوش الامبريالية كدعائيين؛ نعم، لقد أيدوا حروباً واحتلالات، لكن لم يشكل أي خيار آخر عرضاً مقبولاً. فهل كانت ثمة خيارات أخرى، يومها، عندما سخر مونتاني Montaigne من العرقية الأوروبية، وقاد توسان ثورة ناجحة ضد العبودية، ونند مارك توين بالاحتلال الامبريالي للفيليبين، أو حين استخف مارسل بروست بالادعاءات التوراتية للصهيونية؟

إن اليسار، والحفنة من الصحافيين الشرسين الذين لا يزال مباحاً لهم صوتهم في وسائل الإعلام السائدة، والـ «أغبياء» الذين شاركوا في مهرجانات الندوة الاشتراكية العالمية، والـ «مسلمين الفاشيين»، كلهم سخروا من الاستهكام النابي لجماعة الامبريالية الجديدة ودورهم كمرتدّين غدّارين. ولأنهم وُصفوا على هذا النحو، نفث حنقهم السمَّ في دسم انتهازيتهم. وتحوّل الكثيرون من الصحافيين والأكاديميين الناعمي الكلام، المتباكين، بين ليلة وضحاها، إلى محاربين من أجل قضية الامبريالية، يسعون يائسين إلى إرضاء أسيادهم الجدد، وأصبحوا في الغالب، نتيجة لذلك، أكثر جلفاً وحبّاً للحرب من أولئك الذين يخدمونهم. وبرزت كوكبة مشابهة من الأشخاص غداة هزائم عهود تاريخية في القرون الماضية. فمنظرو إزالة الظلم الاجتماعي «نتعوا» عرباتهم صوب إصلاحات ستيوارت؛ والمناضلون اليعقوبيون احتفوا بهزيمة واترلو؛ ومؤيدو البلاشفة في الغرب صاروا يدافعون بالحجة عن امبراطوريات متعاقبة. وفي حالات كثيرة، صرف هؤلاء الناس، الذين ليسوا في أي شكل من الأشكال من المغفلين، الكثير من طاقتهم في عملية التبرير الذاتي البدائية والدنيئة، ما يعني أن إنتاجهم الأكثر حداثة لا يُظهر إشارات إلى جوعهم الفكري. ففي الوسط الجديد الذي وجدوا أنفسهم فيه، كان هناك من هم أكثر خبرة في مصانعة الزمان، ومدافعون عن الوضع القائم أكثر رسوخاً وأشد توافقاً. وكان عليهم، ليُسمعوا أصواتهم، أن يعملوا بجهد أكبر من جهد الموالين التقليديين: فلديهم ماض يجب محوه. ونجح بعضهم.

فهل كانوا جميعهم منحرفين وغير صادقين؟ لا أظن ذلك. فالارتدادات في معظم الأحيان كانت حقيقية بما يكفي، ولو أن القلّة استمرّوا في إقناع أنفسهم بأنهم لا يزالون في «اليسار الديموقراطي»، أو بأنهم «اليسار الحقيقي الوحيد». ولماذا هذا الإصرار؟ ربما لأن الاعتراف بالتحول الكامل، سيعني وضع إنتاج حيواتهم على كومة حطب محرقة الموت. فالغرور يمنع مثل هذا الإسراف.

جوقة الذين همّهم الأوحد الترقّي وتسلق متن عربة حرب التسعينيات، تسرّعت في الافتراض أن كل شيء آخر انتهى لأنهم هم قد انتهوا. فالأرض استُلبت، وأقمار المراقبة فرشت السماء، لكن الفكر الحرّ والانشقاق لم يختفيا مطلقاً. ولم تكن هذه المسألة على هذا النحو في أي مكان، كما كانت في الفناء الامبريالي الخلفي للرئيس الراحل منرو. فأوهام الوظيفة الحضارية للامبراطورية الدموية، والخطاب الزّنِخ لسياسيي «إجماع واشنطن»، تتعرض للهدم في ساحات المعارك في العراق، وفي جبال أفغانستان، ومن ثم في لبنان. ولم يبدُ للعيان أي بصيص نور بديل سياسي واقعي إلا في أميركا اللاتينية. فالحركات الاجتماعية الجديدة هناك أخرجت زعماء سياسيين جدداً. وهم يُصرّون على أن العالم، بالرغم من سقوط الاتحاد السوفياتي، لا يزال يواجه خيارات قديمة. فإما رأسمالية عالمية مرمّمة مع حروب جديدة وإفقارات جديدة، واختلاط، وفوضى، وإما اشتراكية أُعيد النظر فيها وإحياؤها، ذات طابع ديموقراطي، وقادرة على توفير حاجات الفقراء. صمم هؤلاء القادة على إعادة

تعويم سفينة «أرض الطوبى» Utopia الغارقة، والشروع في سياسات أكثر مساواةً وإعادة توزيع الثروة، وعلى إشراك الفقراء في الحياة السياسية في بلدانهم. وتعرضوا للقدح والذم لإعلانهم عن هذه الأهداف المتواضعة. فجريمتهم الحقيقية أنهم شككوا في يقين النظام الجديد، وتجاهلوا إشارات «المنع» الصادرة عن «إجماع واشنطن». ففي إمكان حليف ما لهذا الرأي السائد، أن يسحق خصومه، ويعذّب السجناء السياسيين ويقتلهم، ويحظر كل الأحزاب المنافسة، ويبيع نصف مقتنيات الأمة من أجل الكسب الخاص، ويظل متمتعاً بخاتم موافقة المجتمع الدولي. أما إذا تحدّت حكومة ما، أولويات النظام العالمي باسم ديموقراطية قوية ودستور غاية في الديموقراطية، والأسوأ من ذلك، إذا استمر مواطنوها العنيدون في إعادة انتخابها، فستُشنّع وتُهاجَم، وتُتهم بالـ «توتاليتارية» لرفضها التوافق مع «إجماع واشنطن»، وتصدر الأوامر بضرورة سحقها سياسياً، وأيديولوجياً، وبقوة السلاح إذا تطلّب الأمر ذلك. هذا هو العالم الذي نعيش فيه اليوم، عالم وصفه هارولد بينتر بازدراء بالغ الأثر.[1]

هذا هو العالم الذي انتُخب فيه هوغو شافيز فرياس للمرة الأولى رئيساً لفنزويلا في شباط/فبراير ١٩٩٨. كانت الغالبية التي خرجت للتصويت له غاضبة ومصمّمة. فقد تُركت جماهير الفنزويليين لعشرة أعوام من دون تمثيل، وغدرت بها الأحزاب

(١) انظر: Harold Pinter, 'Art, Truth and Politic', *The Nobel Prize Lecture*, Nobel Foundation, 2005.

التقليدية بفجور؛ وسُجن المنشقّون، وعُذّبوا وقُتلوا. وقررت الأوليغارشية ـ الراضية والمغتبطة بنفسها والمقتنعة بحصانتها ـ أن تكون الانتخابات مجرد دعابة، واختارت ملكة جمال الكون السابقة، إيرين سايز، مرشحة لها. ومع دنو الانتخابات تم التخلي عنها لمصلحة المسيحي الديموقراطي إنريكي سالاس رومر، الأكثر كاريزماتية، ولو الأقل جمالاً، وهو حاكم كفؤ سابق لولاية كارابوبو. وهو، أيضاً، خسر. وكان على الأوليغارشية أن تقدّم أعذاراً أقل، لو أنها بقيت مخلصة لملكة جمال فنزويلا.

كان انتخاب شافيز (فاز بـ ٥٦,٢ بالمئة من الأصوات) بمثابة انتقام المحرومين. وإلى أن حصل هذا، كانت واشنطن في الواقع تتجاهل أميركا اللاتينية. صحيح أنه كانت لا تزال هناك كوبا، لكن، مع وجود العقوبات الخانقة عليها، كان هناك إجماع على انتظار موت فيدل كاسترو قبل القيام بخطوة جديدة. وبالنسبة إلى البقية، تم بعناية تحوير الديكتاتوريات إلى ديموقراطيات تمثيلية: وألزمت البرازيل والأرجنتين والتيشلي بالتعهد بمتابعة الليبرالية الجديدة. وأصبح في الإمكان الآن، إعادة الجمع والموالفة بين الحرية السياسية والسوق، اللذين تم الفصل بينهما لعقود عدة بسبب الحرب الباردة. وتوقف العالم عن الاهتمام بجنوب أفريقيا. لكن، منذ أزمة البيزو المكسيكي في ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ وما بعد ذلك، أظهرت سلسلة من الانفجارات المالية ـ جنوب آسيا وشرقها، روسيا، البرازيل، الأرجنتين ـ خواء المشروع الليبرالي الجديد.

عارضت غالبية الفنزويليين السياسات الاقتصادية المطبَّقة حينذاك، وكانت عبارة عن عدوان على الفقراء والأقل امتيازاً، بهدف دعم الأوليغارشية المنتفخة والطفيلية، وبيروقراطية صناعة النفط والمدنية الرجعية. وعارض الفنزويليون، بمعظمهم، الاستخدام الحاصل لمخزونات البلاد من النفط. وسخطوا من عنجهية النخبة الفنزويلية التي استخدمت الثروة وذوي البشرة الأقل دكانة لدعم نفسها على حساب الفقراء والغالبية المكونة من أصحاب البشرة الداكنة. ونددوا بتقليد هذه النخبة نفسها لكل القيم ـ الاجتماعية، السياسية، الامبريالية، الثقافية، الاقتصادية ـ العزيزة على قلوب نظرائها الأميركيين. وليس أي من هذا سرّاً.

بحلول ١٩٩٨، اتضح أن هذه الأوليغارشية قد فشلت. وهو ما دفع بالشعب إلى انتخاب هوغو شافيز. أرادوا وضع حد للفساد والامتيازات والخضوع للرأي السائد في واشنطن. وفقط، عندما اتضح أن شافيز كان جاداً ومصمماً على إجراء تغييرات متواضعة، لكن مهمة في البنية الاجتماعية للبلاد، قُرع جرس الإنذار في واشنطن. فمرزبانات الامبريالية الذين كرّسوا أنفسهم لجني المال و/أو بناء مهنة سياسية، أيديولوجية، أكاديمية أو صحافية، يكرهون أي اختلال من تحت، أيْ من القاعدة الشعبية. ومن المفيد إعادة التشديد على أن «مهتدي» «إجماع واشنطن» الجدد، هم في الغالب أكثر قذعاً ضد أي شيء يُشتمّ منه رائحة ماضيهم. ولم تكن المكابرة المريرة المنبثقة من هذه الجهة، أكثر بيّنة منها في أعمالهم ودعاياتهم ضد جمهورية فنزويلا البوليفارية.

وهكذا، فإن التنحية الانتخابية للسياسيين الذين كانت الأوليغارشية تحابيهم، قوبلت باحتجاجات صاخبة من زمرة

عاصية من المعلّقين الإعلاميين، الذين وحّد بينهم تحاملهم على شافيز، الذي نُظر إلى بلوغه السلطة على أنه «شذوذ مجنون»، يعكّر الإيقاعات المهدّئة والرتيبة لسوق الأفكار. هذه هي النظرة التي سوّقت لها وزارة الخارجية الأميركية ورددتها ملحقاتها الإعلامية من دون انقطاع. ونُظر إلى التغييرات في المجتمع الفنزويلي على أنها تراجع إلى الأيام السيئة الخوالي، وخطوة أولى على الطريق إلى التوتاليتارية. ولم يكن صحافيو النظام الجديد «المكدَّسون»، مهتمين في وضع ما يجري في البلاد في سياقه الصحيح. ولم يكن، بالنسبة إلى البعض، من داع للإبقاء حتى على ادعاء بالموضوعية. وتعب آخرون، ممن كانوا في ما مضى من مؤيدي الثورة الكوبية ورجال حرب العصابات النيكاراغويين، من الكفاح، وغيّروا مواقعهم، كما سبق ورأينا.(١)

ولاستحال وجود النقاشات حول الدستور الفنزويلي ومجموع الانتصارات الديموقراطية الستة التي فاز فيها البوليفاريون، دونَ موجة خيبة الفأل التي عصفت بالبلاد بعد الفشل المتكرر

---

(١) أمبرتو أورتيغا، وهو قائد سانديني كبير، ومتمسّك صارم بـ «الاشتراكية العلمية» في أوائل الثمانينيات، طوّر مفهوم «المجتمع الأشبه بملعب كرة القدم»، وأسرّ إلى أحد مقابليه في ١٩٩٦: «توجد سلسلة مراتب. يمكن حشر مئة ألف شخص على مدرجات الملعب، لكن يمكن خمسمئة فقط أن يجلسوا في المقصورات. فمهما كنت تحب الشعب، لا يمكنك وضعهم جميعهم في المقصورات». Quoted in: Eduardo Galeano, *Upside Down: A Primer for the Looking - Glass World*, New York, *2000*. p. *310*.

للديموقراطيين الاجتماعيين في الحركة الديموقراطية، وللديموقراطيين المسيحيين في لجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة الذين أخذوا يشبهون «الصفر» و«الزرق» في القرن التاسع عشر، وهم ليبيراليون ومحافظون تنافسوا على السلطة في ١٨٤٧ ـ ١٨٧٠، لكنهم لم يقدموا خياراً حقيقياً للشعب. وإذ حصلت إشارات دامغة إلى السياسيين القدامى وحسّهم الفطري باللباقة، لم يجد أي من المشيعين مناسباً تذكير القراء والمشاهدين بالأحداث التي أدت إلى الانتصار البوليفاري. فقد تعب فقراء فنزويلا من الاستماع إلى الوعود، وسئموا من نصائح البنك الدولي وبرامجه الاقتصادية المُعَدَّة والقائمة على فرض المزيد من الضرائب. فالجوع أصابهم بالحمّى. أرادوا شيئاً مختلفاً، ولو كان طعمه حاراً بعض الشيء. وحصلوا على هوغو شافيز. وأصبح يُنظر إلى دولة كانت شبه مجهولة من العالم، على أنها مثال يحتذى. إحياء الأمل هذا وظهور بديل متواضع للوضع القائم، أفزعا واشنطن. ومن هنا، التعمية المبرمجة التي تمارسها شبكات الإعلام المتحدة. ومن هنا هذا الكتاب.

الفصل الثاني

الأبخرة الامبريالية

القرد الأبيض العظيم يمسك بمفاتيح هذا العالم، وعلى المكسيكي بعينيه السوداوين أن يخدم القرد الأبيض العظيم، هذا، كي يعيش. كان عليه أن يتعلّم حذاقة استعراض القرد الأبيض العظيم: أوقات النهار، القطع النقدية، الآلات التي تدور في ثانية، والعمل التافه، لكن الذي يدفع أجره بدقة، ويقطع نقدية تامة. إنه وجود كامل من أعمال الشر والخير. إنها فضيلة الخير المستغربة لدى القرد الشرير، والقرود البيضاء التي تهبّ للمساعدة، وللإنقاذ! فهل يمكن أي خدعة أن تكون أكثر مخالفة للطبيعة؟ نعم، إنها إحدى خدع القرد الأبيض العظيم.

د. هـ لورنس، «صباحاً في مكسيكو» (١٩٢٤)

D. H. Lawrence, *Mornings in Mexico*

يبدو لي أحياناً أن أميركا خرجت في مكان ما عن السكّة، وعادت إلى قبيل زمن الحرب الأهلية، أو بعدها بقليل. وبدلاً من المضي قدماً والتطور على طول الخط الذي بدأت منه البلاد، تم تحويلها في اتجاه آخر، وها نحن اليوم نتطلّع من حولنا لنجد أننا قصدنا أمكنة لم نكن ننوي الذهاب إليها. وندرك فجأة أن أميركا تحولت إلى شيء بشع ـ وفاسق ـ متآكلة في قلب سلطتها بالشراء السهل والرشوة والامتيازات الخاصة...

والأسوأ هو الغش الفكري الذي تغذّى منه كل هذا الفساد. الناس يخشون التفكير المستقيم ـ يخشون مواجهة أنفسهم ـ ويخشون التطلع إلى الأمور ورؤيتها كما هي. . .

توماس ولف، «لا يمكنك الذهاب مجدداً إلى الديار» (١٩٣٤)
Thomas Wolfe, *You Cant Go Home Again*

في نظرة مترفعة إلى العالم من الجبروت الامبريالي للمكتب البيضوي في خريف العام ٢٠٠١، كان فريق تشيني ـ بوش واثقاً من قدرته على استخدام أحداث أيلول/سبتمبر لإعادة تقسيم العالم وتقييمه. وأوجز أميرال البنتاغون سيبروفسكي، الرابط بين الرأسمالية والحرب: المخاطر التي يجب تعبئة القوات الأميركية ضدها، تنبثق تحديداً من بلدان ومناطق «منقطعة» عن اتجاهات العولمة السائدة. فماذا كانت حصيلة كشف حساب واشنطن بعد ربع عقد على ذلك؟

من ناحية قيود الدفعات الواردة، لا تزال الصين، ولو أنها تشكل تحدّياً اقتصادياً مستقبلياً، على الدرجة نفسها من الصمت سياسياً على الأقل، بالنسبة إلى كل من روسيا والهند وأوروبا الشرقية.[1] وفي أوروبا الغربية، عاد الاتحاد الأوروبي إلى

(١) الاستثناء الآسيوي الوحيد هنا، هو مملكة النيبال في الهمالايا، التي لا تزال متماسكة منذ عقود على يد عاهل فاسد ونظام طبقي جامد، بحيث كادت ثورة ديموقراطية تُسقط الملكية. وقد تم الشعور بالهزات الارتدادية في دلهي، وأبعد من ذلك في واشنطن. ويبدو أن اتفاق التسوية غير مستقر للغاية.

الاصطفاف بعد بعض الانتفاضات في شأن العراق. ويبدو شيراك اليوم [ومن ثم خَلَفه نيكولا ساركوزي، الرئيس الفرنسي الجديد، والأكثر يمينية ـ المترجم] أكثر تشجيعاً للحرب في الشرق الأوسط من بوش نفسه، والجيش الألماني منشغلاً في القيام بمهام واشنطن في أفغانستان.

أما من ناحية القيود، فإن السيطرة الأميركية على الشرق الأوسط تنفلت. وضعف، إلى حد كبير، موقع الولايات المتحدة في المنطقة في العام الفائت [والعام الحالي]. لم يكن التحول متناسقاً، مع جبهة واحدة على الأقل تتحرك في الاتجاه المضاد، ومع تدخّل ناجح في لبنان في ٢٠٠٤ حطمته الحملة الإسرائيلية العنيفة في صيف ٢٠٠٦، والذي قد لا تكون للأمم المتحدة قدرة على إنقاذه. لكن التيار في كل مكان آخر، يجري في غير مصلحة واشنطن.

في إيران وفلسطين، أذلّت الانتخابات أولئك الذين اعتمد عليهم المجتمع الدولي كأدوات طيّعة أو محاورين، ودفعت بقوى أكثر راديكالية إلى السلطة. وفي العراق، ألحقت المقاومة سلسلة مستمرة من الضربات الموجعة للاحتلال الأميركي حالت دون أي توطيد للنظام المتعاون، وقوّضت الدعم للحرب في أميركا نفسها [يجري الضغط حالياً على الإدارة الأميركية داخل الكونغرس الذي يسيطر عليه الديموقراطيون لجدولة الانسحاب الأميركي من العراق ـ المترجم] وفي أفغانستان، عاد مقاتلو حرب العصابات من «طالبان» إلى التحرك بقوة من جديد، وباتت واشنطن منشغلة في خَطْب ودّ فصائل «طالبان» المقربة من

الاستخبارات العسكرية الباكستانية. وضاعف المزيد من الكشف عن عمليات التعذيب التي مارستها قوات الاحتلال الأميركية والبريطانية، وقيام الغزاة وعملائهم بسلب الموارد المحلّية، من حدّة الحقد الشعبي للغرب في أنحاء العالم العربي. وبالغت القوات الأميركية في توسّعها، بينما يتراجع إيمان الجنود بمهمتهم. وبدأت أصوات في المؤسسة الحاكمة في البلاد تعبّر عن مخاوفها من نكبة شبيهة ـ أو حتى أسوأ ـ بفيتنام تلوح من بعيد. لكن النتائج على امتداد المسرح كله، لا تزال مجهولة، ومن غير المرجح أن تأتي كلها دفعة واحدة.

ومن ثم، هناك أميركا اللاتينية. فعندما تتحد جبهتان، هناك دوماً إمكانية للنجاح. لقد أكسب تحدي هوغو شافيز المعلن للولايات المتحدة، شعبية هائلة في معظم بلدان الشرق الأوسط، كما في أنحاء أخرى من الكرة الأرضية. وشاهد ٢٦ مليون شخص أجوبة شافيز المقتضبة، وموقفه المُسخِّف للسياسات الامبريالية، في مقابلته التي استغرقت ساعة مع الصحافي فيصل القاسم في البرنامج ذي نسبة المشاهدة القياسية، «الاتجاه المعاكس»، على محطة «الجزيرة». وتم تلقي عدة آلاف من الردود في رسائل الكترونية، طَرَح معظمها، بحسب صحافي كبير في «الجزيرة»، سؤالاً واحداً: متى سيُنتج العالم العربي زعيماً كشافيز؟

طُرح السؤال، بالرغم من واقع أن قوى ووجوهاً جديدة، لديها شيء مشترك، تبرز في العالم الإسلامي: مقتدى الصدر، إسماعيل هنيّة، حسن نصر الله، أحمدي نجاد. كلٌ برز من ناحيته من خلال تنظيم فقراء المدن: غزة وجنين، بيروت وصيدا، بغداد والبصرة، طهران وشيراز. فجذور حماس، وحزب الله، وألوية

الصدر، والباسيج، موجودة في الأحياء المدقعة. ولا يمكن تناقضَهم مع آل الحريري، والشلبي، وكرزاي، وعلاوي، الذين يعتمد عليهم الغرب ـ وهم مليوناريو ما وراء البحار، ومصرفيون غشاشون، وحاملو كشّة «السي. آي. أيه.» ـ أن يكون أكثر إطباقاً. فهناك ريح راديكالية تعصف من أزقة بائسي الأرض الحديثي العهد وأكواخهم، محاطة بالثروة الخرافية للبترول.

حدود هذه الراديكالية واضحة كفاية ما دامت تبقى أسيرة القرآن. فبواعث البر والإحسان والتضامن، أفضل للغاية من ذلك الجشع الامبريالي والوكلاء المحليين الخانعين. لكن ما دامت توفّر الضمانات الاجتماعية بدلاً من إعادة الإعمار، فسيجعلها النظام القائم، عاجلاً أم آجلاً، عرضة للاسترداد. ولا يزال على زعماء مماثلين لشخصيات، كشافيز أو موراليس، أن يبرزوا، مع رؤية قادرة على تجاوز الانقسامات الوطنية أو الأهلية، واحساس بالوحدة الإقليمية، والأهم من ذلك استراتيجية عادلة وتحكم بالسواء ومعيدة للتوزيع، على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

إذا كانت موجة التمردات والحركات الاجتماعية المنتشرة في شكل غير متساو في القارة الأميركية الجنوبية، تنهل من تقاليد تمرّدية قديمة العهد هناك، فيمكن أيضاً ردّها إلى الاختلالات الاقتصادية التي خلقها «إجماع واشنطن». وتم، في دول كثيرة، إضعاف الآليات التقليدية للسيطرة، ما أدى إلى إطلاق طاقات ساعدت على خلق مجال سياسي جديد. وإذا كانت التصادمات الحاصلة، هي نتيجة لرأسمالية العصر الحالي الشديدة الضغط، فإن عدداً من الأسئلة القديمة تواجه الزعماء الجدد الذين أفرزتهم الأزمة. فهل يمكن حذف تناقضات اليوم بين ما هو موجود وما

هو ضروري، أم يجب أن تُحارب حتى النهاية؟ ردّ واشنطن الحقيقي على هذه التساؤلات واضح، ولا مجال لأي حدود مبهمة: يجب الانبراء لأعداء العولمة وهزيمتهم، من خلال إجراءات سياسية ـ اقتصادية حيثما أمكن، وبالقوة عند الضرورة.

كانت أميركا اللاتينية المختبرَ الأول للتجارب الهايكية [فريدريش فون هايك، نمساوي حائز نوبل الاقتصاد ـ المترجم] التي أنتجت في النهاية «إجماع واشنطن». ففتية شيكاغو الذين كانوا روّاد الاقتصاد الليبرالي الجديد، استخدموا تشيلي، بعد انقلاب بينوشيه في ١٩٧٣، لاختبار نظرياتهم. كان قد تم سحق الطبقة العاملة التشيلية وحزبيها الرئيسيين، وقُتلت كادراتها القيادية أو اختفت. وبدأ قلة من الصحافيين الغربيين في إنشاد الإطراءات للنظام الجديد في سانتياغو، كاتبين بأسلوب شعري عن كل البضائع الاستهلاكية المعروضة بعد سنيّ «الاشتراكية الشظفة العيش» و«الكلح». وما فضلوا تجاهله هو أنه كان في وسع غالبية التشيليين، أن يتفرجوا على نوافذ العرض وحسب. وأعطت تشيلي «مفعولها» لأن مئات الآلاف من الاشخاص قُتلوا. ولم يبرز إلا في وقت قريب، جيل جديد غير مطبوع بتجربة بينوشيه. كان تلاميذ المدارس الذين تظاهروا عبر تشيلي في حزيران/يونيو ٢٠٠٦، ووُوجهوا بهجمات القنابل المسيلة للدموع والعصي، يرفعون مطالب تتحدى بصورة فعّالة الأرثوذكسية الليبرالية الجديدة. ويتطلب الأمر عادة لشعب مسحوق وقتاً طويلاً، ربّما أكثر من عَقْد من الزمن، كي يتعافى. ليس في أميركا اللاتينية وحسب، بل انظروا إلى بريطانيا أيضاً.

حركات اليوم تختلف واحدتها عن الأخرى، وتتنوع من بلد

إلى آخر، ناهيك بالماضي. ففي الأعوام التي أعقبت الثورة الكوبية، جرت محاولات في مختلف أنحاء العالم لمحاكاة نجاحها من خلال إنشاء مجموعات مسلحة، وتخيّل أن ذلك سيؤدي فوراً إلى كسب الدعم الجماهيري. كانت الثورة المضادة أكثر نجاحاً. فقد عانى اليسار هزائم مأساوية في كل بلد تقريباً، وتضمن ذلك أسر تشي غيفارا وإعدامه في بوليفيا في ١٩٦٧. بعد ذلك بأعوام قليلة، نزل المصير نفسه بسلفادور أياندي في تشيلي. وسُحق التوباماروس بوحشية في الأوروغواي، وتعرض زعيمهم راوول سنديك ورفاقه لعذابات وجرائم بحق الإنسانية. وفي الأرجنتين، أمرت الطغمة العسكرية بتصفية مناوئيها. وبما أن ذلك كله كان يحظى بدعم وكالة الاستخبارات الأميركية، لم يطالب أحد في تلك الأيام بـ «تدخّلات إنسانية» أو حتى بـ «تغيير النظام».

بعد ذلك بعقدين، أصبح الـ «زاباتيستاس» في المكسيك، مصدراً جديداً للإلهام. واختاروا، بذكاء، بناء قاعدة في تشياباس، حيث كانوا يتمتعون بدعم غالبية السكان: دعم كسبوه من خلال البرهنة على مقدرتهم على الدفاع عن الفقراء. وبعبارات أخرى، فإن الـ «زاباتيستاس» حملوا السلاح للدفاع عن سلطة محلّية. كان واضحاً أنه ليس في إمكانهم القيام بذلك على المستوى الوطني، لكن بعض مؤيديهم الغربيين حاولوا تنظير هذا الضعف من خلال الشعار السخيف بأنه «يمكن تغيير العالم من دون الاستيلاء على السلطة»، وهو ادعاء يجب في الواقع الامتناع عنه في السياسة. وفي مكان آخر، خلقت حركة العمال الذين لا يملكون أرضاً في البرازيل (والحركات الاجتماعية الشعبية ضد

تخصيص الماء والكهرباء في بوليفيا والبيرو) أساساً للانتصارات السياسية ضد الليبرالية الجديدة، لكنها لم تثمر كلها بعدُ.

كان انتصار إيفو موراليس على رأس «الحركة نحو الاشتراكية» في بوليفيا، النتيجة الدراماتيكية لهذه الكفاحات وغيرها في ذلك البلد. لكن إذا كانت الانتصارات في فنزويلا وبوليفيا أعادت إحياء الأمل في ما وراء شواطئ أميركا الجنوبية، حيث تحاول كل حكومة تطبيق إصلاحات جدّية في الصحة، والتخفيف من الفقر، والتربية، والزراعة، وتوزيع الأراضي، والمأوى، وسواها، فمن السابق لأوانه تعميم ذلك على مستوى القارة كلها. فكولومبيا أعادت أوريبي إلى السلطة، في ما يشكل واحداً من نجاحات واشنطن القليلة في المنطقة.[1] وتشكل

(١) بينما أعلنت وسائل إعلام مثل «كريستيان ساينس مونيتور»، أن الكولومبيين «خرجوا بفرح للتصويت له»، فإن الواقع أن أقلية صغيرة فقط صوتت في الواقع لأوريبي. فالرئيس الكولومبي جمع فقط ٢٧ بالمئة ممن يحق لهم التصويت في البلاد، بينما كانت تأدية الرابحين من الدورة الأولى من الانتخابات الأخيرة في المنطقة أفضل منه بكثير. وعلى سبيل المثال، صوت ٤٢ بالمئة ممن يحق لهم الانتخاب في بوليفيا، لإيفو موراليس في ٢٠٠٥، وصوّت ٤٦ بالمئة من الأوروغوانيين لتباري فاسكيز قبل ذلك بسنة. وأيضاً في ٢٠٠٤، خرج ٤٢ بالمئة ممن يحق لهم التصويت في فنزويلا دعماً لهوغو شافيز في الاستفتاء الذي جرى في البلاد لإعادته إلى منصبه. وفي الواقع، فإن الرئيس الأميركي الجنوبي الوحيد الذي يحصل على نسبة مئوية بهذه النسبة المتدنية، كما فعل أوريبي، لم يكن سوى أوريبي نفسه منذ أربع سنين مضت. ففي ٢٠٠٢، خرج ٢٤ بالمئة فقط ممن يحق لهم التصويت في كولومبيا لدعم أقرب حلفاء واشنطن الإقليميين. انظر: Garry Leech, 'Putting Uribes "Mandate" Into Perspective', *Columbia Journal Online*, 2 June, 2006. (www.columbiajournal.org).

تشيلي والبرازيل، مع باشليت ولولا في السلطة، البديل الذي يفضله الغرب لكاسترو، وشافيز، وموراليس.[(١)] وفي ما يتعلّق بالاستقطابات الطبقية (أو إعادة توزيع الدخل)، تبقى تشيلي من بين الدول العشر الأوائل. فلا يزال واحد من خمسة من مواطنيها يعيش تحت خط الفقر؛ ويحتفظ عشرة في المئة من السكان بخمسين بالمئة من مجموع الدخل. والنصف الباقي يتقاسمه ٩٠ في المئة من السكان، حيث يعاني الفلاحون والعمّال والنساء أكثر ما يكون. ولا تزال الأجور، حتى عندما يتم تصحيحها بسبب ارتفاع التضخم، أقل من المستوى الذي بلغته في ١٩٧٢ في ظل أياندي، بالرغم من زيادة الستين بالمئة في إنتاجية العمّال. وما لا شك فيه، أن ميشال باشليت، وهي أم عزباء، سياسية تحظى باحترام كبير في تشيلي، لكنها، مثل سابقيها، أسيرة «إجماع واشنطن»، ومن غير المرجّح أن تنفصل عن استراتيجية النخبة التي وضعها بنوشيه ما لم تجبرها حركة اجتماعية شعبية على القيام بذلك. ولا تزال تشيلي، التي انعزلت عن بقية القارة منذ انقلاب بينوشيه، تعتمد بقوة على السوق

(١) في دراسة حديثة، فإن وزيراً سابقاً لخارجية المكسيك، وهو يبحث حالياً عن دور جديد في الحياة السياسية، يشير إلى التطورات الجديدة في أميركا اللاتينية، ويشرح لنخبة السياسة الخارجية الأميركية وجود «يسارين» في أميركا اللاتينية: الأول معاصر، منفتح، إصلاحي، ويدعو إلى ترافد الأمم، وينبع، يا للتناقض، من صميم اليسار الماضي. والآخر، المولود من التقليد الشعبوي الأميركي اللاتيني العظيم، قومي، وحاد، ومنغلق. الأول يعي تماماً أخطاءه السابقة... وتغيّر طبقاً لذلك. أما الثاني، للأسف، فلم يتغيّر راجع: Jorge G. Castaneda, 'Latin Americas Left Turn', in: *Foreign Policy*, May/June 2006.
وعبّر شافيز، بما يشبه الدعابة، عن الحقيقة نفسها في خلال محادثة مع لولا: مشكلتك هي أن الأميركيين لن يحاولوا قط التخلّص منك.

الأميركية الشمالية، وهي لا تزال في تراجع، متحولة إلى اقتصاد تصدير أولي يعتمد بقوة على النحاس.

المأساة البرازيلية تتطلب «أوريبيدس» معاصر، يمكنه أن ينقلنا من الانتحار المشرّف للجنرال الذي تحوّل إلى ديموقراطي، جيتوليو فارغاس، إلى الدم الذي ينساب من الجروح التي أحدثها ذاتياً الرئيس العامل لولا دا سيلفا. ويبدو من المرجّح جداً إعادة انتخاب دا سيلفا رئيساً للبرازيل في ٢٠٠٦ [أعيد انتخابه فعلاً ـ المترجم]، لكن ذلك يجب ألّا يحط من شأن ما يجري في البلاد.

وهناك تورية تهكّمية في واقع أن كلاً من المؤيدين في واشنطن وأوروبا، والمعارضين في البلاد، يرى في لولا «توني بلير الاستوائي».[1] وهو، مثل ندّه الإنكليزي، مستعد لإرضاء أي مستوى، ومحاط بمستشارين وحاشية موالين كلياً لـ «إجماع واشنطن»، وفاسدين حتى العظم. وصحيح أنه، حتى اليوم، لا يزال يرفض المشاركة في خطط الولايات المتحدة لعزل فنزويلا (كما فعل، عرضاً، زميله اليميني العولمي أوريبي في كولومبيا)، إلا أن القوات البرازيلية (إلى جانب وحدات تشيلية وأرجنتينية) أرسلت في ٢٠٠٤ على عجل للمساعدة في احتلال هايتي، بعدما أطاحت قوة أميركية ـ فرنسية بالرئيس المنتخب

(١) تصبح التورية التهكّمية أكثر وقعاً إذا ما تذكّر المرء. بأي سرعة، بعد فوز حزب العمال الجديد في بريطانيا، قام أحد مهندسيه، بيتر مندلسن (وهو حالياً مفوّض في المجموعة الأوروبية بعدما أُخرج مرتين من الحكومة البريطانية بسبب سوء استخدامه لمركزه واستغلاله السلطة) بزيارة البرازيل ليضع نفسه أقرب ما يكون إلى كاردوزا، وهاجم من غير داع لولا وحزب العمّال بوصفهما خارج حظيرة السياسة الجديدة.

ديموقراطياً، والذي عوقب ليس على خطاياه في السياسة، بل لأنه قاوم تخصيص المياه، وطالب بإعادة الأموال التي دفعتها هايتي كعطل وضرر لفرنسا تعويضاً عن الخسارة التي لحقت بالفرنسيين عندما أُلغيت العبودية في ١٨٠٥، وهي مدفوعات استنزفت هايتي لعقود من الزمن.(١)

إن تخلّي حزب العمال التابع للولا، عن برنامجه التقليدي لمصلحة رأس المال الليبرالي الجديد، كان مسألة خيار. فعلى غرار الأحزاب الديموقراطية الاجتماعية في أمكنة أخرى، قررت زعامة حزب العمّال أن الوصول إلى السلطة أكثر أهمية من الالتزام بالبرنامج الذي سيساعدها على بلوغ الرئاسة. فحملة لولا دمجت بين مناشدة مباشرة للفقراء تضمنت إشارات دائمة إلى خلفيته الاجتماعية وتصميمه على خلق مجتمع أفضل، وبين تطمينات متكررة لصندوق النقد والبنك الدوليين، بأنه، في حال انتخابه، لن يبدّل في النظام الذي أقامه سلفه. وهكذا، أصبح لولا بالنسبة إلى ملهم فرناندو، إنريكس كاردوزو، «توني بلير الاستوائي».(٢) وما لبثت أن اختفت حتى غشاوة الكرامة لديه.

إن واقع أن ٦٠ بالمئة من السكان *الفاعلين*، هم *إما عاطلون* عن العمل وإما يعملون في وظائف «غير رسمية» (عمل قصير

---

(١) See: Peter Hallward, 'Option Zero in Haiti', *New Left Review*, 27, May-June 2004, pp. 23-47.

(٢) هناك تحليل مفيد لسياسة البرازيل الاقتصادية، في ظل إدارة حزب العمال، من وضع ليسيو مورايس وألفريدو سعد ـ فيلهو. انظر: Lecio Morais and Alfredo Saad-Filho, 'Lula and the Continuity of Neo-Liberalism in Brazil', *Historical Materialism*, 13:1, pp. 3-32.

المدى بظروف سيئة)، يخلق وضعاً جديداً في كل من البرازيل وأمكنة أخرى من العالم. وهذه العملية، المحورية في عمل الرأسمالية الليبرالية الجديدة، تمنع تفعيل النقابات العمالية، وتحدّ من سلطة المؤسسات التي لها ما يكفي من القوة لمحاسبة السياسيين، وتتجه إلى تكريس نظام عدم المبالاة. فالمال السياسي يلعب الآن دوراً كبيراً في أحزاب يسار الوسط (مثل الديموقراطي الاجتماعي السابق، كما تحب الأحزاب الاشتراكية والشيوعية ان تلقّب نفسها) كما في اليمين. وقد شاعت فضائح الفساد في كل أنحاء العالم.[1] وولّد النظام الجديد أيضاً درجة

(1) وهي تتخذ طابعاً خاصاً في البرازيل، حيث يواجه إجرام العصابات منذ عدة عقود السياسيين الراديكاليين، والنقابات، والفلاحين الذين لا يملكون أراضي. وفي ٢٠٠٢، هز البلاد بأسرها مقتل سلسو دانيال، وهو سياسي ذو شعبية كبيرة في حزب العمال، في الواحد والخمسين من العمر، ومحبوب لاستقامته ونزاهته، وكان انتخب ثلاث مرات، رئيساً لبلدية سانتو أندري في ساو باولو الكبرى. وما أحدث حتى فضيحة أكبر، كان أن عائلة دانيال رفضت أن تقبل أن جريمة القتل حصلت بسبب أخطاء في الشخص أو أنه قُتل خطأً. وأشارت بإصبع الاتهام إلى قيادة حزب العمال. لماذا؟ لأنه، استناداً إلى شقيق سلسو دانيال، الدكتور جواو فرانسيسكو دانيال، قُتل بسبب معارضته الفساد المتزايد داخل حزب العمال، ولأنه كان قد وضع تقريراً عن الفساد في مقاطعة سانتو أندري المحلّية. أعلن جواو أن شقيقه كان جزءاً من احتيال فاسد في سانتو أندري، في عملية كان الهدف منها جمع الأموال لحزب العمال. واستناداً إليه، كان من بين المتورطين وجوه بارزة في الحكومة المحلية، ورجال أعمال في قطاع النقل، بالإضافة إلى قياديين في حزب العمال مثل جوزيه ديرسو وجيلبرتو كارفالهو، وهو السكرتير الخاص للولا. واستناداً إلى جواو، بدأ بعض أعضاء العصبة، بطريقة غير شرعية، في تحويل الأموال المخصصة لحزب العمال إلى حساباتهم الخاصة. وعندما اكتشف سلسو دنيال ذلك، وضع تقريراً يفضح فيه عملية الاحتيال، فقُتل، واختفى التقرير. وذلك كله يبدو صحيحاً. وواقع أن دانيال نفسه جمع المال لحزب العمال بهذه الطريقة لأمر محزن، لكنه يعكس واقع البلاد. واستناداً إلى «فاينتشال تايمز» المؤيدة للولا (٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٦): «يعتقد النائبون العامون أن =

= اختطاف دانيال وقتله، عملية قتل متعاقَد عليها، ويقولون إن مسؤولين حكوميين تدخلوا في التحقيقات لترويج أنها كانت «جريمة عادية». وهم على اقتناع بأن دانيال قد أُسكت لأنه تطلّع إلى وقف مكيدة فساد تقوم بتحويل أموال لحزب العمال اليساري، الجناح التابع للولا. وقال بوليفار لامونيير، وهو مستشار سياسي في ساو باولو، إن «هذا بمثابة نيتروغليسيرين. وإذا أقيم رابط بين عملية القتل وتمويل حزب العمال، فسيتغير المشهد السياسي بكامله». وبدا أن التطورات اللاحقة، أقامت الرابط. ففي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥، ضُبط رئيس أركان لولا، جوزي ديرسو، ولباسه التحتي مفتول بالمعنى الحرفي للكلمة: فقد وُجدت رزم من الدولارات في سرواله التحتي في خلال عملية تفتيش عشوائية في المطار: كانت تلك أموال حزب العمال المخصصة لشراء الأصوات في البرلمان. وطُرد من عضوية المجلس الأدنى بـ ٢٩٣ صوتاً مقابل ١٩٣. وكان ديرسو زعيماً طالبياً سابقاً نشط إبان الديكتاتورية العسكرية الوحشية في الستينيات من القرن الماضي. وهرب إلى كوبا، حيث تلقى تدريباً على حرب العصابات، وخضع لجراحة تجميلية لتسهيل عودته بحيث يساهم في تحرير بلاده. وقد أدى تحوله إلى السياسة الليبرالية الجديدة إلى سقوطه. وكل المقابلات على التلفزيون وفي الصحافة المكتوبة، التي تستذكر ماضيه الراديكالي، لن تؤدي إلى عودة جوزي القديم من جديد. وقد غيّر الكوبيون وجهه، لكن حتى هم، مع ما يملكونه من تكنولوجيا طبية متطورة، لن يتمكنوا من زرع دماغ جديد له. بعد وقت قليل على فضيحة ديرسو، كان على وزير المال، أنطونيو بالوكي، وهو محظي لدى مؤسسات تمويل عالمية والمدافع الرئيسي عن تحول حزب العمال إلى اليمين، أن يستقيل من منصبه غداة تزايد الضغوطات الكبيرة في شأن تورطه في خطة تحويل أموال من متعهدي أشغال عامة إلى حزب العمال في ريبيراو بريتو، وهي مدينة في ولاية ساو باولو، كان رئيس بلدية سابقاً لها. كان الاحتيال في الواقع مطابقاً لعملية سانتو أندري وغيرها من المدن التي كان يحكمها حزب العمّال سابقاً. وكان بالوكي، شأنه شأن ديرسو، راديكالياً سابقاً تزعّم في ما مضى الجناح التروتسكي المبالغ في انتهازيته وتمسكه بالعقيدة. وقد وضعت الانتهازية نفسها والتصلب في العقيدة في خدمة الفصائل الليبرالية الجديدة المسيطرة داخل حزب العمال. كانت المعارضة تريد للولا أن ينزف، لكن فشلها في المجيء ببديل موثوق، عنى أن لولا خرج في الواقع من دون أن تلطّخه فضائح الفساد. وبالنسبة إلى الفقراء، يتعلق الأمر بالدماسق وليس بالملك. وها أن حزب العمال ينزف حتى الموت.

عالية من سرعة التقلب لدى الفقراء، وهذا ما يشكل القاعدة لراديكالية شعبوية.[١]

تعي المؤسسة السياسية ذلك، لكن لا يوجد اليوم فارق جوهري بين زعماء حزب العمال والمعارضة التي تواجههم. والفوارق التي كانت موجودة دُفنت في الماضي. فالإكراهات التي يفرضها النظام المعولم، ما إن يقبلها جميع الأطراف، ستجعل الديموقراطية زائدة عن الحاجة. والدكتور جيرالدو ألكمين، المعارض للولا، حاكم سابق لولاية ساو باولو، وتكنوقراطي حتى العظم. ولاحظت الـ «فاينَنشال تايمز»، بإحساس ملموس من الراحة، أنه:

يصعب أحياناً، عندما تتحدث عن الرجال المسؤولين عن وضع برامج المرشحين للحكم، أن تميِّز بينهم.

فماركو أوريليو، من معسكر الرئيس، يسرد بسرعة لائحة قصيرة من الأولويات: الاحتواء الاجتماعي عبر خلق فرص العمل؛ والإنماء الاقتصادي من خلال الاستقرار المستمر والاستثمار في البنى التحتية؛ الإصلاح السياسي؛ والارتقاء في التعليم الذي يتركز في صفة خاصة على العلوم والتكنولوجيا.

ولجوزي كارلوس ميرللس، من معسكر ألكمن، لائحة مشابهة: برنامج

---

(١) لدراسة جدية عن الشعبوية، أجراها أحد أكثر خبراء العالم خبرة في الموضوع، انظر: Ernesto Laclau, *On Populist Reason* (London and New York, 2005).

تربوي نشط يركز على تعميم التعليم الابتدائي وعلى مزيد من التعليم في مجالي العلوم والتكنولوجيا؛ النمو من خلال الاستثمار في البنى التحتية؛ الإصلاح السياسي؛ والتقليل من البيروقراطية ومن كلفة الحكم.

وسيكون من السهل الاستنتاج، أن لهما الأفكار نفسها حول كيفية تحقيق أهدافهما.

علينا أن نُبقي التضخم منخفضاً، وحساباتنا متوازنة، ونواصل جهودنا من أجل خفض سرعة تأثرنا بالهزات الخارجية، يقول غارسيا. وفكرتنا هي في الأساس الاستمرار في السياسة الاقتصادية الراهنة.

وبالرغم من نفي حزب العمال للأمر، فإن الاستمرار في السياسة الراهنة يعني الإبقاء على السياسات التي أدخلتها الحكومة السابقة: استخدام سياسة نقدية متشددة لمكافحة التضخم، وسياسة مالية متشددة مفترضة ـ خفض الإنفاق على الاستثمار، وبرغم ذلك السماح بزيادة المصاريف الراهنة ـ لمواجهة المستوى المرتفع من المديونية الحكومية التي تعادل حالياً ٥٠ بالمئة من الناتج القومي العام، والتي تشكل عائقاً كبيراً أمام الاستثمار.

ويجد ميرللس أيضاً صعوبة في معارضة سياسات خصومه. ويقول إن حكومة لولا أتت ببعض الأفكار الجيدة، لكن ينقصها حسن التدبير.[١]

---

(١) انظر: *Financial Times*, 4 July, 2006.

والأرجنتين، هي دراسة حالة مثيرة للاهتمام. فانهيارها شكل رسالة إلى العالم عامة، وليس إلى أميركا اللاتينية وحسب. فهذا ما سيحدث لك أيضاً إذا اتبعت في شكل أعمى، ما تمليه عليك واشنطن. ولم يتعلم الكثيرون هذه الأمثولة (وبالتأكيد ليس البرازيل أو الهند)، لكن على الحركات الاجتماعية، وعلى الذين يعملون للتغيير، درسها وفهمها. فهذه بلاد اعتقد زعماؤها والكثيرون من مفكريها، أنهم متفوقون على سائر أميركا اللاتينية. وشعرت النخبة بالتأكيد بأنها أكثر قرباً من أوروبا منه مع جيرانها. وأبقت حكومة كارلوس منعم على ارتباط البيزو الأرجنتيني بالدولار خلال أعوام ١٩٩٠، وعندما حصل الانهيار في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، كان الخراب تاماً. وفي أوائل ٢٠٠٣ في بوينس أيرس، أبقاني بعض الأصدقاء صاحياً حتى ما بعد منتصف الليل لأرى بأم العين غزو الأولاد من الأحياء الأكثر فقراً نسبياً لمركز المدينة. وصلوا في تشكيلات، أشبه بالجراد. كانوا يضعون قفازات بلاستيكية ويحملون أكياساً بلاستيكية قديمة، ويبحثون في صناديق القمامة، من دون أي اكتراث بالمارة، عما يؤكل، أو أي شيء آخر يمكن الإفادة منه. ولم تشهد الأرجنتين ذلك قبل الانهيار، برغم أنه شائع في أنحاء كثيرة من العالم. إنها الصدمة التي أحدثها الانهيار الاجتماعي التام، الذي حوّل الشعب راديكالياً، وأدى إلى درجة من التنظيم الذاتي غير مسبقة من قبل حتى الآن في الأميركتين. كانت التجمعات الشعبية في بوينس أيرس (وقد شاركتُ في أحدها) في أوجها مؤثرة للغاية وحاشدة بقوة، ومظهرة بوجودها المثير

لكوامن النفس إمكانية العيش بطريقة مغايرة، ومع أولويات مختلفة.[1]

وأمكن انتصار كيرشنر الانتخابي، ومحاولاته إيجاد طريق ثالثة بين شافيز ولولا، فقط بسبب ما أصاب البلاد عندما دُمّرت سياستها واقتصادها من جراء رفض النخبة الأرجنتينية الانفصال عن «إجماع واشنطن». وساعد على ذلك أيضاً، بروز فنزويلا كقطب اجتذاب لفقراء أميركا الجنوبية. ففي محاولة لمنع العدوى البوليفارية من بلوغ حجوم وبائية، خفضت الولايات المتحدة، هامشياً، من ضغوطها على بلدان أخرى للامتثال بالمطلق لمتطلباتها الامبريالية. وصارت «الاختلافات بين الأصدقاء»، بحسب تعبير كوندوليزا رايس، مسموحة فقط لأن الخيار كان الأسوأ. ويستعيد ذلك ذكرياتِ التحالف من أجل التقدّم الذي أقامته واشنطن في ١٩٦١ غداة الثورة الكوبية. فقد اقترح التحالف إصلاحات اجتماعية تهدف إلى عرقلة أي تكرار لكوبا. ومعظم ما اقتُرح يُطبّقه الآن شافيز وموراليس، لكن واشنطن تمنعه. وأدى مخطط كيرشنر لدفع ٣٠ سنتاً عن كل دولار تدين به من القرض البالغ ١٠٠ مليار دولار، إلى توفير كمية كبيرة من المال على الأرجنتين، وإلى خفض مديونية البلاد. والحال، أن

---

(١) كتبت ناعومي كلاين، في شكل خاص، عن هذه العملية. كان النص الذي وضعته للفيلم الوثائقي «الغلّة» The Take الذي أخرجه آفي لويس، بمثابة لقطة فوتوغرافية سريعة للأرجنتين، حيث اضطر الناس إلى التحول إلى التنظيم الذاتي، وتولّي أمورهم بأنفسهم.

التخلف التام عن الدفع كان سيؤدي إلى عقوبات. إلا أنه، مع لحظ أن هذا القرض قد ساهم في تحطيم البلاد، كان عليه التخلف عن الدفع، وطلب العطل والضرر من صندوق النقد والبنك الدوليين لما فعلاه بالأرجنتين. ونُقل عن كيرشنر قوله بنصف مزاح يائس «إننا بحاجة يائسة إلى إعادة تكوين بورجوازية وطنية».

وبرغم ذلك، فواقع أنه تمكن من أن يقرر من جانب واحد دفع ثلاثين بالمئة من القرض، يعكس الوقع الذي تركته إعادة ولادة أميركا اللاتينية على القارة، وفي أمكنة أخرى. فالمتظاهرون في الفيليبين يرفعون صور شافيز؛ ونزل الفلاحون في غرب البنغال بعشرات الآلاف لاستقبال الزعيم الأميركي اللاتيني في كالكوتا؛ وقياديو حزب الله في لبنان يشيرون إليه بالـ «الأخ شافيز». فقد أعاد البوليفاريون إشعال الأمل، وبرهنوا للعالم السجين، إمكانية التغيير.

المشكلة مع شافيز، من وجهة نظر الولايات المتحدة، أنه كان دائم الاستعداد للعمل على جبهتين حاسمتين. ففي حين انبرى سيمون بوليفار لمجابهة جبروت الامبراطورية الإسبانية في القرن الثامن عشر، وحارب من أجل الاستقلال، فإن الفنزويلي الذي استعار اسم المحرر للحركة الجديدة، مصمم على القيام بالأمر نفسه حيال الولايات المتحدة. فالبوليفارية الجديدة تدمج بين القومية القارية والإصلاحات الاجتماعية ـ الديموقراطية التي ألهبها ارتفاع أسعار النفط. إنه هذا المزيج الذي أنتج العداء

والتوتّر بين الطرفين. ويمكن فقط حلّ التناقض السياسي من خلال تخويل السلطة للفقراء، ونشر التعليم وتطويره، وتوفير الصحة والمأوى للجميع. وبعبارات أخرى، من خلال «عكس أولويات «إجماع واشنطن» رأساً على عقب». وهي ليس بالمهمة السهلة، لكنها بدأت، وهذه البداية المتواضعة تفتح مجالات جديدة لتحديد ما إذا كان من الممكن بناء مجتمع متحرر من الفقر، ومن الاندفاع والسقوط، ومتحرر من المضاربين المتوحشين، ومن ابتزازاتهم، ومن قوى السوق التي لا يمكن السيطرة عليها، والتي تسيطر على الاقتصاد العالمي، ويكون في الوقت نفسه محتضناً للديموقراطية. ولأن البوليفاريين يطرحون هذه الأسئلة كتوطئة، يُشهِّر بهم بلغة مستهلكة المدافعون عن النظام الجديد في كافة أنحاء العالم.

الفصل الثالث

الثور الشرس والحمير الماكرة

. . . الولايات المتحدة يبدو أن العناية الإلهية قدّرت لها أن تُمطر الشقاء على الأميركتين باسم الحرّية. . .

سيمون بوليفار، رسالة إلى باتريك كامبل (١٨٢٩).

شرح وانويل لاديرا لماذا ذكر أنه لم تعد هناك حاجة إلى القول بعد الآن: هاكم تاريخ فنزويلا: ثور شرس، معصوب العينين، وحلقة موضوعة في أنفه، يقوده إلى المسلخ حمار ماكر صغير.

وهو ما ردّ عليه ماركوس بالقول: هذا ما تراه. وهو ما أسمّيه بصنع الحذاء على القياس. أرادوا في مدرسة كيوداد بوليفار أن يُدخلوا في رأسي ما كُتب عن تاريخ فنزويلا، ولم أتمكن قط من فهم ذلك، وها أنا اليوم أفهم ذلك كلّياً.

Romulo Gallegos, Canaima (1935)

إنها سادس أكبر دولة في أميركا اللاتينية، والأكثر غنىً بالمصادر الطبيعية. وقد قارن الفيلسوف الفنزويلي الراحل والمربّي ماريانو بيكون مرّة، خريطة بلاده بـ «جلد الثور المجفف تحت الشمس الاستوائية»، وقد تم تقطيعه في شكل سيئ بحيث بقي بعض الأجزاء ملتصقاً به. وليس هذا الشيء الوحيد الذي

بقي ملتصقاً بالبلاد. فالجيش الفنزويلي لعب، في معظم فترات القرن العشرين، دوراً رئيسياً في دعم مصالح الأوليغارشية والدفاع عنها، إن في شكل مباشر، وإن عبر شبكات متنافسة من السياسيين. ففي فترة فتوّة الجمهورية، التي استمرت أعواماً عدة، قام نظام خوان فيسنتي غوميز ببيع نفط البلاد إلى شركات أجنبية محظية، ولم يحتفظ بسجلات عن الحصص التي تم الحصول عليها في المقابل.[1] ولا توجد إحصائيات حول أرباح (ربما كانت كلمة نهب تشكّل وصفاً أكثر دقة) شركة النفط ما بين ١٩١٤ و١٩٣٦.

وغوميز ـ وهو واحد من ديكتاتوريي القارة الكثيرين الذين أرسى غارسيا ماركيز كتابه «خريف البطريرك» *The Autumn of the Patriarch* عليهم ـ كان مديراً داهية تمكّن من الموزانة بين مصالح شركات النفط والنخبة المحلّية التي تحولّت تدريجياً إلى أوليغارشية، وأمسك بالبلاد بيد من حديد. استولى غوميز على السلطة في ١٩٠٨، واحتفظ بها (في ما عدا فاصلين وجيزين) حتى ١٩٣٥. وفي ١٩٠٢، فرضت ثلاث قوى أوروبية ـ ألمانيا، وبريطانيا، وإيطاليا ـ حصاراً على البلاد (التي كانت لا تزال تتعافى من حرب أهلية منهكة) في هجوم مشترك، وقصفت مدينة بويرتو كابيّو المرفئية، وهددت باحتلال دائم إذا لم تُدفع الديون الخارجية. كانت القوى الامبريالية في تلك الأيام تعمل في شكل

(١) لمعرفة المزيد انظر: Fernando Coronil's magisterial work, *The Magical State: Nature, Money and Modernity in Venezuela*, Chicago, 1997.

مباشر. لكن الوساطة الأميركية التي جاءت في وقتها، دفعت الخطر، وتم إبرام صفقة. وفي ١٩٣٠، وكتمييز لمئوية وفاة سيمون بوليفار، سددت فنزويلا كامل ديونها الخارجية.

وجاء الفاصل الديموقراطي (١٩٣٥-١٩٤٨) الذي شهد انتخاب رائد روائيي البلاد رومولو غاليغوس رئيساً، بمثابة فرج، ولم يتم التشكيك قط في التزامه الحداثة الليبرالية. كانت أصالة غاليغوس السياسية ـ الثقافية مميزة. وتستحضر رواياته الأكثر قوة، دونيا باربارا وكانايما، روح فاكوندو لسارميينتو، و«تمرّد في الأراضي الخلفية» *Rebellion in the Backlands* لدا كونيا، وهما روايتان كلاسيكيتان من أواخر القرن التاسع عشرة صوّرتا الصراعات في الأرجنتين والبرازيل على أنها صراعات بين البربرية المحلية ـ الأصلية والحضارات المحدثة الموروثة من أوروبا القديمة. لكن، على ما يتحاجج به فرناندو كورونيل بإقناع، فإن بنية الدولة الفنزويلية تستند حصراً إلى الحكم الثنائي، وما الديموقراطية الحديثة، والديكتاتورية البدائية، إلا وجهان لعملة واحدة. ومهما تغيّر كل شيء آخر، فإن الأوليغارشية المستندة إلى النفط قد تنامت، كما تنامى معها التناقض بين أقصى الفقر وأقصى الثراء.

في ١٩٥٢، أطاح بيريز خيمينيس بدعم من واشنطن، حكومةَ غاليغوس المنتخبة، وشرع في المباشرة في عملية إصلاح اقتصادية أدت إلى نمو غير متوازن، وإلى زيادة الفقر، والتدمير التام لطابع كاراكاس القديمة.[1] واختفت المدينة ذات الأسطح

(١) انظر: Coronil, op cit.

القرميدية التي كانت موجودة منذ أكثر من ثلاثمئة وخمسين عاماً. وسلب خيمينيس موارد الدولة ليثري بسرعة (من دون أن يتقاسمها في شكل عادل مع بقية النخب العسكرية أو السياسية)، وبذّر أموالاً زائدة عن الحد في مشاريع أبنية مبهرجة. وأثار أحدها، وهو نادي الضباط الجديد، بعض النثر الإعلاني الجدي في مجلة «تايم» في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٥٥:

> لا يمكن أي شيء في فنزويلا ـ بل حتى خارجها ـ أن ينافس الـ «سيركولو دي لاس فويرزاس أرماداس» المهيب، وهو النادي الاجتماعي لضباط الجيش وكبار المسؤولين الحكوميين. إنه كناية عن فندق (تلفاز في كل غرفة)، ومطاعم، وبار، وصالة كوكتيل، وناد ليلي، وحوضي سباحة، وإسطبل، وقاعة رياضة، وساحة مسايفة، وقاعات بولينغ، ومكتبة، ومسرح. وهو يحتوي على بعض اللمسات الفاخرة البارزة: أرض رخامية، نوافذ بلون البولارويد الأزرق، وأقمشة الأوشية المطرزة، والزهريات الـ «سيفر»، وساعات «تيفاني»، وحافظة نبات ذات جدران زجاجية تحتوي على جزلة حية ونضرة من الأدغال الفنزويلية. ويرتدي بعض زوجات الكولونيلات فساتين «بالمان» بقيمة ألف وخمسمئة دولار للفستان، لمجرد الذهاب إلى قاعات الرقص الكبرى في النادي.[1]

لم تكن فساتين «بالمان» هي التي رفعت فنزويلا إلى مرتبة

---

(١) شاركت في ٢٠٠٤ مع قراصنة زائرين آخرين، يشاركون في أحد المؤتمرات، في حفل عشاء في نادي الضباط، دعا إليه هوغو شافيز. ولا يزال بهاؤه المبهرج بادياً للعيان. كانت الصحبة مؤثرة، لكن الطعام كان يذكّر ببريطانيا منتصف الستينيات.

دولة الفناء الخلفي المحظية للولايات المتحدة، بل كانت الأسباب الحقيقية أكثر ابتذالاً بكثير ومفهومة تماماً: لقد أعطى النظام الجديد امتيازات للشركات الأميركية أكثر من سَلَفه. فإبان نظام خيمينيس، أدى تخفيض الضرائب عن الشركات الأجنبية بفنزويلا إلى خسارة ٤,٥٠٨ ملايين بوليفار. كان نصف أرباح «ستاندارد أويل» السنوية تؤمّنه رافدتها الفنزويلية، وقد بلغت في فترة سبع سنوات (١٩٥٠-١٩٥٧) ٧٩,٣ مليار دولار.[(١)] وزادت في حجم الأرباح سياسة الحكم الديكتاتوري القاضية بدفع مرتبات منخفضة ومنع الإضرابات. ولإبقاء الأمور على هذه الحال، دُعيت الـ «أف. بي. آي.» والـ «سي. آي. أيه.» إلى القيام بعلمية «مراقبة» دورية للقوى العاملة والمساعدة على اجتثاث دعاة الانقلاب على الوضع القائم.

لم يُترك أي شيء للصدفة، وتم تنظيم هجرة يمينية خُطط لها بعناية من إسبانيا وإيطاليا والبرتغال، للمساعدة على تنحية العمال المحليين والسيطرة عليهم. كان ذلك مختلفاً عن الهجرة الانسلاخية إلى أميركا اللاتينية التي عبرت الأطلسي؛ ولا تزال التقاليد الراديكالية لأوائل الحركات العمالية الأوروبية سالمة في شكل كبير. واستخدم الديكتاتور الفنزويلي المهاجرين الجدد لمحاربة الميول الكفاحية المتزايدة للقوى العاملة المحلّية، وكان الأوروبيون الجدد غيارى على دعمهم خيمينيس. ومنحته الحكومة الأميركية في ١٩٥٥ وسام الاستحقاق.

---

(١) Coronil, op cit.

كانت الصورة التي عرضتها المجلات الأميركية عن كاراكاس، أنها مدينة كثيرة الحركة، وحديثة. كانت ناطحات سحابها البيضاء الخاطفة للأبصار تتوقد على الخلفية الخضراء لجبال الأنديز، لكن مدينة فيلانويفا الجامعية بجدرانياتها التي صممها «ليجيه» وآخرون، لم تكن، للأسف، هي المعيار. وحتى بينما كانت ناطحات السحاب تمضي صعوداً، مترافقة مع عربدة من تهاني الذات، كانت أصوات تنصح بالحذر، وتنذر بأن المدينة عرضة لهزة أرضية ستُفقدها طابعها، وسرعان ما ستصبح رثّة وملطّخة. ووصفها غبريال غارسيا ماركيز بالمدينة «المشؤومة، الخيالية، وغير الإنسانية»، لكن ما من مستمع.

ونما الفساد بسرعة ارتفاع ناطحات السحاب. وأثار التفاوت المتنامي في الثروة بين الأغنياء والفقراء، احتجاجات شعبية متزايدة انفجرت تظاهرات عفوية في الشوارع، وأحياناً هجمات على هندسة الامتياز التي طبعت عهد خيمينيس. وأطلقت الكنيسة الفنزويلية، الخائفة من تحوّل التوترات إلى حمام دم، النار من كل أسلحتها على هيئة رسالة رعوية وقّعها رئيس أساقفة كاراكاس. وبينما وافق رئيس الأساقفة على الزيادة الإحصائية في الدخل الفردي، فقد ندد بالأجور المنخفضة، وبانتهاك حقوق العمال، وبغياب الخدمات الاجتماعية للفقراء، وتحدّى أيّاً كان في البلاد، أن يؤكد أن هذه الثروة موزعة بطريقة تصل فيها إلى جميع الفنزويليين، بما أن كتلة هائلة من الشعب تعيش في ظروف لا يمكن اعتبارها إنسانية. وكان قرار الكنيسة الخروج إلى العلن، مؤشراً إلى عدم استقرار النظام وعدم تماسكه.

ذهب خيمينيس بعيداً، وحان وقت اعتزاله. جمعت نخبة رجال الأعمال قواها مع الأحزاب التقليدية، ووافقت قمة عُقدت في نيويورك بين زعماء غرفة التجارة وزعماء الحركة الديموقراطية، والاتحاد الجمهوري الديموقراطي، والحزب المسيحي الديموقراطي، على الانتقال إلى حكومة جديدة. بدأ تلميع الوجه الآخر من العملة. وأُطلق على ذلك اسم «الطغمة الوطنية». وأقام هذا التحالف الجديد اتصالات مع الجيش كشفت عن استياء الضباط المتزايد من خيمينيس، وهي نتيجة مباشرة لجشعه الذي لا يرتوي (وسيظهر في وقت لاحق مذنباً في اختلاس ٢٠٠ مليون دولار، وهو في سدة السلطة). شجّع السياسيون ورجال الأعمال على التمرّدات العسكرية. وحصل بعضها وسُحق بعنف. وزاد ذلك في عزلة الديكتاتور. وشجّعت تركيبة من الإضرابات ومظاهرات الشوارع، رؤساء القوى المسلحة على مواجهته. وعلى ما يجري غالباً في أوضاع كهذه، فقد تخلى عنه، في آخر أيامه، أقرب المقربين إليه. وأزيح في كانون الثاني/يناير ١٩٥٨ مع توفير مخرج آمن له إلى الولايات المتحدة. كانت القيادة العليا للجيش هي التي شدّت الأنشوطة، ولولا ذلك لتعثّرت «الطغمة الوطنية».

وهكذا، توافق السياسيون، في ما بينهم، على اقتسام المسلوبات: فبدلاً من التخاصم حول مغانم السلطة، تدبّروا أمر اقتسامها في ما بينهم. ودبّر رومولو بيتانكورت من الحركة الديموقراطية، ورافاييل كالديرا من لجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة في الحزب المسيحي الديموقراطي، خطة، هي

ميثاق بونتو فيخو، لإبقاء الديموقراطية داخل قيود متشددة، وتصعيب أمر المشاركة فيها على الأحزاب الأخرى. وضمنت الصفقة عملياً أن الحركة الديموقراطية، أو الحزب المسيحي الديموقراطي، سينجح في الانتخابات، وأن يتم الاستغناء من الآن وصاعداً، عن الحاجة إلى أن يلعب الجيش دور المرسّخ للوضع القائم، وإحباط اليسار النابض بالحيوية، والذي كانت له يد طولى في إسقاط بيريز خيمينيس. وبقي اليسار الديموقراطي خصماً فاعلاً حتى فترة مديدة من السبعينيات، لكنه لم يتمكن من تجاوز انقساماته الداخلية، أو تمكين الحركة الديموقراطية من إحكام قبضتها على النقابات العمالية. ومن ١٩٦٩ وصعوداً، عندما بدأت الحركة الديموقراطية باكتساح السلطة مع الحزب المسيحي الديموقراطي، كان الحكم المؤسساتي الثنائي، الحصين ظاهرياً، قد احتل مكانه، مستثنياً جميع الخارجيين، ومطبّقاً فقط من الإصلاحات تلك التي تدعم سلطة الحزبين الحاكمين.[١]

ساهمت واردات النفط في تلميع الواجهة، لكن البنية الاجتماعية للبلاد لم تُمَس. فارتفعت المكاسب والفقر معاً. وفي ١٩٨٨، بعد ثلاثة عقود من حكومات الحزب المسيحي الديموقراطي ـ الحركة الديموقراطية، كان مستوى الفقر ٣٨,٥ بالمئة، ومعدل التضخم السنوي ٤٠,٣ بالمئة. وكان لا مناص من الاضطراب الذي جاء بعد ذلك بسنة.

(١) Jeremy Adelman, 'Andean Impasses', *New Left Review* 18, November-December 2002, pp. 41-72.

كان ٢٧ شباط/فبراير ١٩٨٩ يوماً مضيئاً في تاريخ فنزويلا. ففي شوارع غاريناس، وهي مدينة ريفية صغيرة في ولاية ميراندا الشمالية، بدأت سلسلة من الاحتجاجات الجماهيرية العفوية قام بها الشعب ضد إجراءات اتخذتها حكومة الحركة الديموقراطية، التي استهلكت مثل شقيقاتها في أوروبا، عالمها الأيديولوجي. بدت هذه التظاهرات في ظاهرها بسيطة نسبياً. ولم يكن للحكومة، شبه المشلولة من جراء إضراب جزئي لرجال الشرطة، ولا للعمال والفقراء الذين نزلوا للتعبير عن غضبهم، أي فكرة عن الوقع الشديد الذي ستحدثه الساعات الثماني والأربعون المقبلة على مستقبل البلاد. فقليلون هم المحتجون الذين تصوّروا مستقبلاً مختلفاً. فقد حركتهم، ببساطة، الرغبة في الاحتفاظ بالمكاسب التي نالوها. وأدركوا أن الأوليغارشية تعتبرهم كائنات رثّة، تافهة، وبائسة. وربما حان الوقت لإظهار كم يمكن أن تصبح قوتهم الجماعية مُميتة، وقادرة على التغيير. ومن المفيد أيضاً تسجيل أن ما سيعرف بالـ «كاراكازو»، كان أول ثورة شعبية حقيقية للفقراء ضد الرأسمالية الليبرالية الجديدة، سابقة تاريخ سياتل بعقد من الزمن.

ليس صعباً معرفة كنه أسباب هذا الغضب الذي كان يتراكم ببطء ضد نظام الحركة الديموقراطية الذي كان يرأسه كارلوس أندريس بيريز إبان فترته الشحيحة الثانية في الحكم (١٩٨٩ ـ ١٩٩٣). كانت الحركة الديموقراطية في ما مضى، الحزب الديموقراطي ـ الاجتماعي الأقوى في أميركا اللاتينية، كما كان الملحق الأكبر في الاشتراكية الدولية لناحية عدد أعضائه نسبةً

إلى السكان. وفي الولاية الأولى كرئيس (١٩٧٤ ـ ١٩٧٩). إبان الفورة النفطية، امتزجت خطابات بيريز بالعسل والأمل. فقد تذمّر من البنك الدولي، واصفاً، بلغة شائقة، الاقتصاديين الذين يتقاضون منه أجراً، بأنهم عمّال إبادة جماعية مأجورون من التوتاليتارية الاقتصادية، ومشيراً إلى صندوق النقد الدولي على أنه القنبلة النيوترونية التي تقتل الناس، لكنها تترك المباني قائمة. الخطاب كان شعبياً، لكن الأعمال التي أعقبت هي التي أعطته دعماً أكثر قوة في أوساط الفقراء: تأميم «شل» و«إكسون» و«يو. أس. ستيل».

مرة أخرى، بعد عشر سنين، شن حملة انتخابية نشطة. وقال إنه يقوم بذلك لقلب مجرى التاريخ، بحيث يخدم الفقراء. وستصنع إعادة انتخابه التاريخ. وقد ندد مرة أخرى بالمؤسسات المالية العالمية بلغة مفرطة: مرّة أخرى وصف صندوق النقد الدولي بأنه القنبلة التي تقتل الناس فقط (la bomba solo-mata-gente). ونجح في ذلك. وفاز بـ ٥٣ بالمئة من الأصوات. وحضر نحو دزينيتن من رؤساء الدول، بمن فيهم فيدل كاسترو ودانيال أورتيغا، حفلات التنصيب، حيث تعهد بيريز، مرة أخرى، بصنع التاريخ. وعرف القليلون جداً ممن صوتوا له لبلوغ السلطة، أنه، بينما كان يتحدث، كان مستشاروه يطمئنون القنبلة التي تقتل الناس فقط، بألا تأخذ خطاباته على محمل الجد. ففي غضون أسابيع على انتخابه، انقلب على شعاراته التي رفعها، وتحوّل سائراً إلى الوراء. وها أنه يشرح الآن أن صنع التاريخ يعني انعطافاً كبيراً في الاتجاه السياسي el gran viraje. ولربما

أمكن القبول بعدم قدرته على الوفاء بوعوده، لو لم تكن إجراءات التقشف التي طبقها معاكسة لها تماماً: رُفعت الرقابة على الأسعار، وأُوقفت المعونات في شكل وحشي، وكان الفقراء الضحايا هم الذين تحملوا وطأة الإصلاحات.

ذلك هو «رطل اللحم» الذي طلبه صندوق النقد الدولي في مقابل عرضه لقرض بـ ٥,٤ مليارات دولار. فـ «إعادة التعديل البنيوي» المطلوب، جاءت على حساب أولئك الذين صوتوا له لبلوغ السلطة. وها هم بدأوا يكرهونه ويعادونه كخصم لهم، بسبب أقواله التي لم تقترن بالأفعال. لقد سيطر كارلوس أندريس بيريز على الحياة السياسية في فنزويلا لوقت طويل، بحيث إنه اعتقد بعدم وجود أي غيوم لا يمكن تبديدها. وتجاهل الإشارات الأولى للاضطرابات. فالسياسيون الذين تُسكرهم السلطة، يتخيلون أنهم منيعون ولا يُمَسّون. ولم يكن بيريز، بهذا الصدد، مختلفاً عن زملائه في أمكنة أخرى من العالم. وتكمن مشكلته في البنية الاجتماعية المتقادمة في البلاد، حيث كان يتم تجاهل الفقراء في ضواحي الأكواخ، ويُتركون يتأججون غضباً. وظهرت الأحزاب السياسية بأكثر مظاهر الودّ، وأعربت عن تعاطف كبير مع معاناة الفقراء، لكنها لم تفعل شيئاً. وبقي الجيش هو المؤسسة الوحيدة التي لم يتمكنوا من السيطرة عليها سيطرة تامة.

وقبل عشرة أيام على الـ «كاراكازو»، كان بيريز قد خضع ذليلاً لصندوق النقد الدولي، ووافق على تطبيق الإجراءات التي

أصرّت عليها هذه المؤسسة (والتي يصفها عادة المتعذّرون في وسائل إعلام «إجماع واشنطن» بالـ «الإصلاحات»)، في مقابل تمويل الدين الخارجي للبلاد. ولم يخصّ صندوق النقد الدولي فنزويلا بمعاملة خاصة. فهذه سياسة يطبّقها في مختلف أنحاء الكرة الأرضية (ما عدا الولايات المتحدة) من دون خشية على ضحاياها، وباستحسان ودعم من شبكات النخب التي طالما كانت المستفدة الرئيسية منها.

في تلك الأيام الأولى لإعادة التنظيم الليبرالي الجديد، استخدمت الشعارات المنمقة كلمات مثل التقدّم، والترشيق، والتحديث، والإصلاح، وأحياناً الثورة، بهدف التستر على تدمير التقدّم الحقيقي الذي تحقق، إبان القرن العشرين، في بعض نواحي الحياة اليومية، ولصالح أقلية ذات شأن. وفهم فقراء فنزويلا غريزياً حقيقةَ الأمر، ويعود إليهم الفضل الهائل في ذلك من دون الاستفادة من مشورة المفكرين المرتدّين، بمعنى أن الأمر كان مشروع هيمنة جديداً. ولأنه كذلك، لا يمكن الاعتراض عليه. ولم يضيّعوا الكثير من الوقت في تنظيم استعراض للقوة ضد الحكومة الجديدة التي سبق لهم أن اعتبروها حكومتهم. شعروا بالخيانة. وكما هي الحال في الغالب في هذا النوع من الأزمات، أظهر الشعب في الشارع، أنه مصنوع من مادة أكثر صلابة من قادته السياسيين، وأنه ثاقب الفكر أكثر منهم.

وفي غضون ساعات قليلة، انتقلت عدوى الغضب الذي

عصف بشوارع غواريناس، إلى بقاع أوسع من العاصمة كاراكاس، وأطلقت سلسلة من الانتفاضات الناشئة في كل من كاريكواو، لا غوارا، ماراكي، فالنسيا، باركويسيميتو، غوايانا، ميريدا، وماراكايبو. وكان أكثر ما تخشاه الحكومة، هو أن الثورة قد تصيب المناطق الحساسة التي تقع فيها آبار النفط ومصافيه، وتؤثر بالتالي في تدفقه. لكن النظام فضّل الخيار المميت بدلاً من تقديم التنازلات، وبخاصة في مسائل خصامية لا تحتمل التسويات، مثل النقل العام وأسعار المحروقات.

أعلن بيريز، في ٢٨ شباط/فبراير، حالة الطوارئ، وعلّق كل مواد الدستور المرتبطة بالحريات المدنية. ومُنعت كل التجمعات العلنية. وتولّى الجيش الفنزويلي السيطرة. وأول عمل قام به هو فرض ١٢ ساعة من حظر تجوّل أجبر المواطنين على التزام منازلهم من السادسة مساءً إلى السادسة صباحاً. وعلى امتداد الأسابيع الأربعة التالية، أمر الجنرالات الجنود، وهم في معظم الحالات من المجندين الجدد تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٢٠ عاماً، بمهاجمة الأحياء الفقيرة، وبخلق حالة من الخوف والذعر، من خلال القيام بأعمال إرهاب، وإذا اقتضى الأمر، إطلاق النار وتعمد القتل. وها أن خطة أفيلا، وهي سلسلة من الإجراءات وُضعت في الستينيات للتعاطي مع فصائل الكفاح المسلّح (بما فيها تلك التابعة للزعيم تيودورو بتكوف) في الأرياف، قد وضعت موضع التنفيذ ضد سكان المدن غير المسلحين.

وبحسب التقديرات غير الرسمية، أدت المذابح التي تلت

إلى خسائر في آلاف الأرواح، جميعهم من المدنيين، بما في ذلك الكثير من النساء والأطفال. وفي بعض الحالات، كان القتلى مطروحين على جوانب الطرق، حيث كان في انتظارهم الرصاص، خارج مساكنهم الصغيرة. وكان الردّ العالمي خافتاً، وخجولاً، على هذه المجازر. فلم تكن قد درجت العادة بعدُ على وصف المجازر بالإبادة الجماعية، وعلى التهديد بالتدخّل الإنساني. فكيف يمكن مجزرةً ارتُكبت للعمل على إنجاح الرأسمالية الليبرالية الجديدة، أن يكون أبطالها أكثر من مشاغبين محافظين، يقاومون الإصلاحات. وجرى التعاطي معهم بحزم من أجل الحفاظ على القانون والنظام؟

اعترفت الحكومة بـ ٢٧٦ قتيلاً فقط، من دون أن توفّر أي أرقام عن الجرحى والمختفين. وكانت وجهة النظر غير الرسمية في كاراكاس، تقول بمقتل عدة آلاف. وكشفت تحقيقات تالية عن المزيد من القتلى، لكن الأمر اقتضى عشر سنين أخرى، ليؤكد حكم صادر عن محكمة حقوق الإنسان الأميركية وجهة النظر هذه:

إلا أن لائحة [القتلى الذين تم الاعتراف بهم رسمياً] قد أبطلها ما أعقب ذلك من ظهور للمقابر الجماعية... ووافقت منظمتان غير حكوميتين، أجرتا التحقيق على الأرض، بالإضافة إلى خبراء دوليين، على أن معظم الوفيات نتج عن إطلاق عملاء الدولة الفنزويلية النار من دون تمييز، بينما نتجت أخرى عن إعدامات ميدانية. ووافقتا كذلك على أن عناصر في القوات المسلحة فتحوا النار على الحشود، وعلى

المنازل، ما تسبب بمقتل الكثيرين من الأطفال والمواطنين الأبرياء الذين لم يكونوا مشاركين في أعمال جرمية.(١)

لا يمكن عادةً القمعَ وحده، أن يسحق حركة شعبية منظمة لها قدرة على الوجود السرّي، ويمكنها أن تعاود الظهور والضرب من جديد بعد بضع سنين. لكن، من الجنون تخيّل أن قمع الدولة غير فعّال في إخماد انتفاضة عفوية. وهي تحتاج تحديداً إلى القيام بذلك لتفادي ظهور منظمة سياسية فعالة تستخدم العفوية الجماهيرية لأهدافها الخاصة. وتحفل القارة بأسرها بأمثلة تناقضات طبقية بلغت أوجها، لكنها عجزت عن الحل. وواضح أن القمع يأتي مفعوله على المدى القصير، لكن بيريز مضى في أسلوب المبالغة في القتل الذي أعطى مردوداً عكسياً بالكامل. وهو لم يكن حتى ليتخيّل أن أحد ارتدادات «الكاراكازو» سيكون بدء نقاش داخل جسم ضباط الجيش الفنزويلي نفسه، وسوف يؤدي بعد بضع سنوات إلى الانعطافة البوليفارية El Boliverian Viraje.

المؤسسة الوحيدة التي لم تكن خاضعة كلّياً لسيطرة النخبة السياسية الفنزويلية، كانت الجيش. وبدأت مجموعة من الضباط الشبان، الذين استاؤوا من استخدام الجنود المجندين حديثاً لسحق «الكاراكوزو»، في الاجتماع بوتيرة أكبر. وغالباً ما كان يرأس النقاشات، عقيد (كولونيل) شاب يدعى هوغو شافيز،

(١) Inter-American Commission on Human Rights, (www.cidh.oas.org).

مولع بمثال سيمون بوليفار، وبكتابات سيمون رودريغيز. جاء توقيت تأسيس المجموعات البوليفارية الراديكالية في الجيش وسلاح الطيران في أواخر التسعينيات عندما اجتمعت مجموعة من الضباط، جلّهم من الملازمين الشبان، في شكل غير رسمي، وناقشوا وضع البلاد والقوات المسلحة[1]. أما الضباط الأكبر سناً ورتباً، والذين كانت لهم اتصالات بمجموعات الكفاح المسلح في الستينيات، فقد اتصلوا بزملائهم الأصغر سناً. الأكبر سناً كانوا أعضاء في المنظمة السرية «أرما» (الحركة الثورية للجنود في الخدمة). وفي ١٩٧٨، اتصل أحدهم، وهو قائد السرب الجوي، ويدعى وليام إزّارا كالديرا، بالملازم لويس ريّس ريّس الذي عرض أن يجعله على اتصال مع أصدقائه. لكن ريّس اعترف في ما بعد قائلاً، «كنت أبالغ، لأنه كان لي صديق واحد يشاركني هذه الأفكار: هوغو شافيز. بعد ذلك ببعض الوقت، التقينا ثلاثتنا في بالو غراندي، وهو حي راق في كاراكاس. وما أوجزه لنا هذا «السيّد» كان حركة مدنية وعسكرية واسعة».

بعد أربع سنين على ذلك، كان كل من شافيز وريّس ينظمان الضباط الذين يشاطرونهما الرأي، ضمن مجموعات نقاش صغيرة في القوات البرية والجوية. ولم تعد نقاشاتهم محصورة فقط

(١) هناك أوجه كثيرة للشبه مع مجموعات الضباط الأحرار داخل الجيشين المصري والعراقي في خلال خمسينيات القرن الماضي.

بالفساد داخل القوات المسلحة، بل شرعوا في مناقشة المشاكل التي تواجه المجتمع الفنزويلي ككل. ومع ازدياد حجمهم، شرعوا في المرحلة التالية الخطرة، القاضية بإجراء اتصالات مع مجموعات مدنية. وشرح ريّس أن أول منظمة تم الاتصال بها، كانت «القضية الراديكالية»، وهي حزب يساري باع نفسه لليبرالية الجديدة. وصار اليوم واحداً من أسوئها

... [في ذلك الوقت] عملنا مع أعضاء من «القضية الراديكالية» في غيانا. كانوا قد أنشأوا فريق عمل جيداً مع نقابات الحديد والصلب.

وما لبث أن تم اختراق المجموعة، وبدأت مخابرات الجيش حملة قمع محترسة. وعندما أُبلغ الرئيس كارلوس أندريس بيريز بوجود حركة انشقاق منظمة داخل الجيش، تحرّى عن رتب الضباط المعنيين، وعندما أُبلغ أنهم من رتبة رائد وما دون، تجاهل الخطر. فهم كلما ارتفعت رتبهم ستتم رشوتهم وإخضاعهم. لكن بعضهم كان يخضع لرقابة شديدة. ومات بضعة أعضاء من المجموعة في ظروف غامضة، بينما كان يتم نقل آخرين باستمرار. وبرغم ذلك، لم تتمكن القيادة العليا من تدمير الحركة. لماذا؟

أتدري ما الذي عمل لمصلحتنا في ذلك الوقت؟ لقد شهدت القوات المسلحة صراعاً داخلياً كبيراً على السلطة، وهو ما حرف أنظارهم عن تحركنا. كانوا يتحاربون في ما بينهم لتقرير من يتولى قيادة الجيش، ومن ينال حظوة هذا الحزب أو ذاك، ومن سيفوز بالانتخابات، وماذا سيكون موقف كل واحد منهم. وربما اعتقدوا أن الضباط الصغار المنزعجين، لن يلبثوا أن ينسوا الأمر برمته عندما يحصلون على

الترقية. . . وما لبث أن بدأ بعض الأساتذة الجامعيين يشاركون في اجتماعاتنا.[(١)]

لم تكن محاولة شافيز في ١٩٩٢ لإطاحة النظام، الذي أمر بقتل مواطنيه، صاعقة نازلة من سماء صافية، لكن الخطة ذهبت شزراً، وأمكن بسهولة عزل المتمردين. ورأى البعض في المحاولة، نسخة فنزويلية عن هجوم فيدل كاسترو في ١٩٥٣ على ثكنة مونكادا، لكنها كانت في الواقع أكثر خطورة. فقد حققت أهدافها العسكرية، لكنها لم تنجح سياسياً لأنها فشلت في استثارة الانتفاضة الجماهيرية التي كانت هدفَها المعلن. وفي شكل يثير الدهشة، ظهر شافيز على التلفزيون، وتحمّل المسؤولية الشخصية عن المحاولة والفشل. وفي بلد لا يتحمل فيه أحد أي مسؤولية عن أي شيء، كان لذلك وحده وقع قوي على السكان. وأدى رفع راية التمرد عالياً ضد صندوق النقد الدولي، على مرأى من كل البلاد، إلى ترك أثر في الكثير من الناس.

(١) أجرى المقابلة مع لويس ريّس ريّس، حاكم ولاية لارا، الصحافيان الكوبيان روزا مريام إليزالدي ولويس بايز في ٢٠٠٤. هذه المقابلة، وغيرها من المقابلات، نُشرت في كتاب «شافيزنا: روايات غير منشورة» *Our Chavez: Unpublished Accounts*, Havana, 2004. ومقابلة ريّس أخّاذة في شكل خاص بسبب التفاصيل التي يوفّرها عن التنظيم داخل القوات المسلحة في الثمانينيات والتسعينيات. وروايته عن الاستياء الراديكالي داخل الجيش وسلاح الجو، توفر ترياقاً مفيداً لروايات وسائل الإعلام الغربية التي تصوّر شافيز على أنه ديكتاتور عسكري متعطش للسلطة. والمقابلة الكاملة، التي تتضمن رواية ريّس لانقلاب نيسان/أبريل ٢٠٠٢، منشورة في الملحق «ج».

وأظهرت استطلاعات الرأي أن ٦٠ في المئة من البلاد كانت متعاطفة مع الانتفاضة الفاشلة.

انتهى شافيز ورفاقه المتمردون في السجن، مهزومين، لكن تراودهم فكرة الثورة من جديد. وأُطلقوا بعد ذلك بسنة ونصف السنة. والسبب الوحيد لعدم معاملتهم بقسوة أشد، هو شعبيتهم. وكان هناك رجل عجوز في هافانا يراقب الوضع عن كثب، من بعيد. وما إن أطلق شافيز حتى تلقى دعوة إلى محاضرة عن بوليفار في القاعة الكبرى في جامعة هافانا. كان الفنزويلي مرتبكاً بعض الشيء مع وصوله في ١٩٩٤ لإلقاء محاضرته، لكنه كان أيضاً متحمساً كثيراً لرؤيته الوجه الملتحي المألوف في انتظاره في المطار. كان ذلك لقاءه الأول مع فيدل كاسترو، الذي يعتبره حتى أولئك الأميركيون اللاتينيون الذين يختلفون معه، أنه صورة عن مآثر بوليفار، ومارتي، وساندينو. أراد الزعيم الكوبي من جهته، أن يفحص شافيز عن كثب، ويسائله بحيث يمكنه أن يحدد إذا كان معدن الفنزويلي الشاب صلباً ونقياً بما يكفي لإنجاز المهمة الملقاة على عاتقه.

وفي محاضرته في هافانا تلك السنة، شرح شافيز ما الذي تعلّمه من السيمونين ـ بوليفار ورودريغيز ـ: لا تخدم مصالح الآخرين، وقم بثورتك السياسية والاقتصادية الخاصة، ووحّد هذه القارة في مواجهة كل الامبراطوريات:

قال بوليفار: لا يمكن علاج «الغرغرينا السياسية» بالملطّفات والمهدّئات. وفنزويلا مصابة كلياً، من جميع الوجوه، بالغرغرينا.

فالمانغا الخضراء ستُينع، لكن المانغا المهترئة لا تينع قط؛ ويجب الحفاظ على بذور المانغا المهترئة وزرعها لتتمكن نبتة جديدة من النمو. وهذا ما يحصل في فنزويلا اليوم. ما من مجال لأن يُشفي النظام نفسه... فستون بالمئة من الفنزويليين يعيشون في حالة فقر مدقع.

هذا لا يُصدَّق، لكنه صحيح: ففي عشرين سنة في فنزويلا، تبخرت ٢٠٠ مليار دولار. سألني الرئيس كاسترو: أين المال إذاً؟ إنه في الحسابات المصرفية الأجنبية لكل من تولى السلطة في فنزويلا تقريباً، مدنيين وعسكريين، وعملوا على ملء جيوبهم، محتمين بالسلطة التي كانت لهم...

إن القرن المقبل، برأينا، هو قرن الأمل؛ إنه قرننا، إنه القرن الذي سيولد فيه الحلم البوليفاري من جديد...(١)

قد لا يكون فيدل كاسترو، أظهر ذلك علناً في تلك المناسبة، لكنه أبلغ زملاء في المجالس الخاصة، أنه تأثر كثيراً بشافيز. فما لا شك فيه، أنه كثير الاطلاع، لكن كاسترو قدّر فرادة الفنزويلي وتركيبته. إنه ذو أصالة بلا شك. وسياسيو فنزويلا أقل دهاءً، بحيث لم يتمكنوا من أخذ شافيز على محمل الجد كونهم متعجرفين، مغتبطين بأنفسهم، وأنانيين، وذوي بشرة فاتحة. لم يكونوا على استعداد لتعلم أي أمثولات، في ما عدا الاستثناء المدهش للسناتور مدى الحياة، رافايل كالديرا، من

(١) *Granma*, 15 December, 1994.

لجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة، البالغ ٧٧ عاماً. وهو الذي ينظر إليه أخصامه الحزبيون، بوصفه «جثة سياسية»، قد أعاد إحياء نفسه بزخم لافت. فبعد أسبوع على انتفاضة ١٩٩٢ الفاشلة، عزف مدبِّر الأمور المحنّك، لحناً شاذاً في برلمان سيطرت عليه الديماغوجية والهجمات المسعورة على الضباط المجدّفين، الذين تجرأوا على تحدي الطقوس المقدسة للديموقراطية. ولاحظ كالديرا غياب أي تحرك من الشعب للدفاع عن هذه الديموقراطية بالذات، وشرح الأسباب لزملائه المصابين بالدهشة:

من الصعب الطلب من الناس الاحتراق في سبيل الحرية والديموقراطية، بينما يعتقدون أن الحرية والديموقراطية عاجزتان عن إطعامهم، وعن إبطاء الزيادة الفاحشة في كلفة المعيشة، وعندما لا يمكنهما التعامل بفاعلية مع آفة الفساد. يجب استهجان الانقلاب [golpe] وإدانته. لكن، ما لم نُعِر انتباهاً إلى أهدافهم، فسيكون الاعتقاد أننا إنما نتعامل مع مجرّد ضباط طموحين ينطلقون بتسرّع في مغامرة على حسابهم، خداعاً من قبلنا.[(١)]

لكن، بدا أن معظم زملاء كالديرا عاجزون أصلاً عن التعامل مع مصدر الغضب الجماهيري. ولصب المزيد من الزيت على النار، وافقت حكومة بيريز على تعليمات صندوق النقد

---

(١) Quoted in: David Hillingers, 'Political Overview' in *Venezuelan Politics in the Chavez Era: Class, Polarization and Conflict*, edited by Steve Ellner and Daniel Hellinger, Boulder, 2003, p. 32.

الدولي الجديدة من أجل تطبيق جولة أخرى من إجراءات التعديل البنيوية، وإن كانت أكثر صرامة. بيد أن محاولة الانقلاب هزّت الحكومة. فبعد ذلك بعام، هُدّد بيريز من قبل حزبه بالذات، بمواجهة تهمة الإخلال بالوظيفة ما لم يوافق على الرحيل طوعاً. والتهمة كانت الفساد. فقد أقامت دعوى ضده عشيقته سيسيليا ماتوس نفسها، وسيطه الرئيسي مع نخبة رجال الأعمال. كانت هي الطوق الذي تم لفه حول عنقه. وأدت أوساخ الشيطان إلى تلطيخ أيدي الطرفين. وهذا كله كان معروفاً من الملأ، وأضاف إلى الغضب غضباً. أزيح بيريز أخيراً في أيار/مايو ١٩٩٣، لكن، لم يعد ممكناً إطالة نزاع النظام القديم مع الموت إلى ما لا نهاية. ونقل كالديرا إلى المسرح رئيساً لائتلاف سبعة أحزاب. وأحد وزرائه الجدد، الملتزم مواجهة الإجراءات التي سبق وأدت إلى الموت والتمرد، كان تيودورو بتكوف، زعيم محاربي العصابات السابق الذي حذا حذو الكثيرين من الشيوعيين السابقين في روسيا وأوروبا الشرقية، وانتقل إلى الجانب الآخر. وبررت الحكومة تبريراً كاملاً اللقب التهكّمي الذي أطلقه عليها الشارع، وهو حكومة العاجزين. فبعد أكثر من شهر بقليل على تأدية كالديرا وحكومته المؤلفة من حمير ليسوا على هذا القدر من المكر، اليمين التقليدية، انهار الاقتصاد الفنزويلي. ولمنع الانهيار التام للنظام المصرفي، استخدمت القروض الخارجية والأموال التي تم تحصيلها من الضرائب وعمليات الخصخصة. وفي خلال سنة واحدة صُرف ١٢ في المئة من الدخل الوطني العام (٦,٥ مليارات دولار) لدعم عشرة مصارف. وبينما كان ذلك يجري، كان جناح

المضاربين في الطغمة الوطنية، كما حاله دائماً، مشغولاً في تهريب الأرصدة سرّاً إلى حسابات في الخارج. وساهم التعايش القائم بين المال والسياسة، في ضمان أن الاقتصاد والسياسيين التقليديين سيغرقون بالترادف.

وقفزت أرقام الفقر المخيفة، في ظل رافايل كالديرا وحكومته (مع تيودورو بتكوف متربعاً سعيداً كوزير للمكتب المركزي للتنسيق والتخطيط)، إلى ٦٦,٧ في المئة مع حلول ١٩٩٥.[١] هذه هي الخلفية التي تشرح انتصار شافيز الانتخابي الذي تلى ذلك. فقد رأت غالبية الفنزويليين، على نطاق واسع، في مشاركته في تمرّد ١٩٩٢، محاولة خاطر فيها من أجل إسقاط نظام فاسد لا يمكن الدفاع عنه. وجعل ذلك منه لدى الفقراء، بصفة خاصة وليس حصراً، بطلاً قومياً. ومع بدء حملته الانتخابية الطويلة للرئاسة، شرع شافيز في الحديث عن الحاجة إلى ثورة بوليفارية تضع حداً للفساد وللخيانات المتسلسلة لنظام الحزبين. كان الأمر يتطلب إصلاحات جذرية سياسية واقتصادية ـ توزيع الأراضي ودستوراً جديداً ـ من أجل تحويل بنيوي للنظام السياسي ولحياة الناس اليومية. وإذا كانت المؤسسة بأكملها أصبحت فاسدة، والتزلّم يزحف على كل المستويات، فسوف يصبح الانتصار الكامل الطريق الوحيد لدفع البلاد قُدُماً.

(١) توفّر دراسة جوليا بوكستن الرصينة، «السياسة الاقتصادية وصعود هوغو شافيز» 'Economic Policy and the Rise of Hugo Chavez' in Ellner and Hellinger, op. cit.، تقويماً مفيداً لحالة الاقتصاد في ظل الحكم الثاني وسنيّ شافيز الأولى.

حقق شافيز مراده، بينما فشل مناوئوه، تدعمهم وسائل الإعلام بأسرها ـ لم تدعم أي صحيفة رئيسية أو شبكة تلفزيون واحدة شافيز ـ في فهم الشحنة التي تقف وراء انجذاب المواطنين المحرومين إلى البوليفارية. ومن خلال إعلان اتحادها ضد عدو مشترك، كانت الأحزاب السياسية تُظهر مواقف بدائية، وجائرة، ومن وجهة نظرهم الخاصة، غير عقلانية. كانت بدائية لأنهم رفضوا أخذ تحدي الخلاسيين mestizo على محمل الجد؛ وجائرة لأنهم افترضوا، بدعم من السلطة الدينية، ممثلة بالكنيسة، وواشنطن، أن لهم حقاً إلهياً في حكم البلاد؛ وغير عقلانية لأنهم وضعوا مصالحهم الفئوية الضيقة فوق مصالح البلاد ككل. لقد أخطأوا في حساباتهم هذه المرة: قللوا من قَدْر شافيز الذي أصبحت جاذبيته لا تُقاوَم، والذي فاقهم دهاءً في المناورة على كل جبهة من الجبهات.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨، حصل البوليفاريون على الرئاسة بـ ٥٦ في المئة من الأصوات. وهُزم الحزبان الأوليغارشيان: الحركة الديموقراطية ولجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة. وتم في السنة التي تلت، تبني دستور جديد للبلاد بدعم كبير من الناس. وفي العام ٢٠٠٠، أعيد انتخاب شافيز لست سنين. وارتفعت الغالبية التي يتمتع بها إلى ٥٩ في المئة. ومن المرجح أنه سيُعاد انتخابه مرة أخرى في ٢٠٠٦، للأسباب نفسها [استطاع شافيز الفوز بمرة ثالثة في الانتخابات ـ المترجم].

ابتهج البوليفاريون بالنصر، لكنهم بقوا على حذر. لم يبدلوا أسس النظام. وشرح شافيز علناً، وفي مناسبات عدة، أن ذلك كان مقصوداً. فنحن لم نعد في القرن العشرين. لم يكن هذا عهد الثورات البروليتارية، بل بداية عملية إعادة نظر في الاشتراكية نفسها ضد النظام السابق. ومن سخرية القدر، أن السياسيين الليبراليين والموالين للغرب إلى أقصى الحدود، والصحافيين المرتبطين بأذيالهم، الذين كانوا ليعتبروا الأمر جريمة لو أن شافيز حرك الدعم لتنفيذ ثورة خالصة ضد النظام السابق، هم الآن الذين ينتقدونه لعدم القيام بما يكفي لتحسين أوضاع الشعب. وعندما تولى البوليفاريون السلطة، كانت الأوضاع في فنزويلا كالحة بحق: خُمسا السكان يعيشون في فقر مدقع، بينما كان عُشر السكان يتقاسمون نصف دخل البلاد الوطني. ولم يكن التناقض على هذا البروز في أي مكان آخر، كما في كاراكاس وحدها. فالضواحي الثرية حيث يعيش الأغنياء، التي امتصوا منها المزيد من المال من النظام على مدى الأعوام العشرين المنصرمة، كانت تتناقض بشكل صارخ مع مدن الأكواخ على التلال التي يعيش فيها الناس العاديون، وغالبية كبرى منهم كانت فقيرة، مرذولة، مقسو عليها، ومتروكة لتكتوي بالبؤس. كانت غاضبة، وأحياناً كان حنقها يتغلّب على صبرها ويأسها. هنا يقع قلب الحركة البوليفارية.

وإذا صحّ تماماً أن البوليفاريين، في ولايتهم الأولى في الحكم، بقوا أسرى اقتصاد الجملة، وعجزوا عن توفير مكاسب فورية لمن هم في أمس الحاجة إليها، فإن الحلول الجزئية التي

بدأ تطبيقها بعد ٢٠٠٢، كانت غاية في الأهمية. فقد حسّنت حياة الملايين من الشعب الفقير من خلال تأمين التعليم وعناية صحية أفضل لهم. ولا يمكن قياس هذه الإنجازات بعبارات نقدية فقط. وأولئك الذين يرفضونها أو يستخفون بها، ليست لهم، في معظم الحالات، دراية كبيرة بالأزمة الاجتماعية التي استحوذت على فنزويلا، أو بأسباب شعبية العملية. ويُقدّر، مع حلول منتصف الولاية الثانية للعملية البوليفارية، أن رأسمالاً بقيمة ثمانية مليارات دولار، قد هُرّب من البلاد، مترافقاً مع إنشاء تحالف غامض بين بعض قادة الجيش الموالين للجيش الأميركي، وغرفة التجارة وشبكات الحركة الديموقراطية ولجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة، في محاولة لإسقاط النظام بانقلاب. وها أن هؤلاء المدافعين عن الديموقراطية ضد التسلّط، والذين هزمهم الشعب في الانتخابات، يخططون للسيطرة العسكرية على البلاد.

أغضب واشنطن المنحى الحادُّ الذي اتخذه شافيز في السياسة الخارجية لبلاده، فور تسلّمه السلطة. فطوّرت الجمهورية البوليفارية علاقات وثيقة مع كوبا، وبدأت بإرسال مساعدة حيوية لكسر العزلة الاقتصادية المفروضة عليها؛ ورفضت مقاطعة العراق، وهاجمت نظام العقوبات المفروضة من الأمم المتحدة؛ وأدانت صراحة هجمات ١١ أيلول/سبتمبر على الولايات المتحدة، لكنها عارضت، بالدرجة نفسها، غزو أفغانستان؛ وأحيت دعوة سيمون بوليفار إلى فدرالية دولة أميركا الجنوبية، لكن ليس ضد إسبانيا هذه المرة، بل ضد الولايات المتحدة.

[وشكلت ما يشبه «الحلف» مع النظام الإيراني المناوئ لواشنطن، وأدانت الحرب الأميركية ـ الإسرائيلية ضد «حزب الله» في صيف ٢٠٠٦ ـ المترجم]. لم تهدف هذه السياسات إلى تهدئة واشنطن أو النخبة الفنزويلية، فمن المستحيل على شافيز القيام بتغييرات جذرية في السياسة الخارجية، ويبقى بطريقة ما موالياً لـ «إجماع واشنطن» على الجبهة الداخلية. وعرفوا، أفضل من أصدقائهم الليبراليين الجدد، أنه يمكن فقط المثابرة على سياسة خارجية ذات توتّر عال من خلال الدعم الجماهيري، وأن ذلك يتطلب سياسة داخلية على القدر نفسه من الراديكالية، تماماً كما يمكن بسهولة ربط سياسات المحافظين الجدد الاجتماعية في الديار بالمغامرة الامبريالية في الخارج. وما له وقعه في النفس، شأنه دائماً، هو تلك القوة الأيديولوجية الموضوعة بتصرّف واشنطن لفرض محرّماتها وأحكامها الاعتباطية بغطرسة بطّاشة وانتقامية. وتم ذلك من خلال شبكة مؤثرة: وكالات الاستخبارات، والصحافيين المدجنين، والأكاديميين السلسي القيادة، والمرتدين الطوعيين إلى القضية الامبريالية. وقد ساعدوا كلّهم في تهيئة المسرح لمزيد من التدخلات الدراماتيكية.(١)

---

(١) من كان ليتخيّل، سوى قلة من المتطاولين في العناد مثلي، أن «نيويورك ريفيو أوف بوكس» الجليلة، الكتاب المقدّس لمستقيمي الرأي، ستبحث عن دور تلعبه في هذه المهمّة الدنيئة؟ فمحرر «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، روبرت سيلفرز، عضو طويل الأمد في مجلس العلاقات الخارجية (وهو ملحق ليبرالي في وزارة الخارجية الأميركية). فقد قرر، في غضون أشهر على انتصار شافيز، الشروع في الهجوم. خيار الكتّاب كان =

جرت ثلاث محاولات متضافرة لهزم شافيز: الأوليان من خارج البرلمان، وشهدت الثالثة تضافر السياسيين المحبطين يستخدمون بنوداً في الدستور سبق أن اعترضوا عليها بقوة. وجاءت المواجهة الأولى، كما نوقشت في الفصل الأول، في نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وخُطّط، على مدى عدة أشهر، بعناية

= مفتوحاً. ولأمكنه مقاربة كارلوس فوينتس أو ماريو فارغاس يوسا، أو أي متبجّحين امبرياليين أقل شهرة من أميركا اللاتينية. لكن سيلفرز قام، بدهاء، بخيار أقل وضوحاً. فقد قارب الفائز بجائزة نوبل، ف. س. نايبول، وهو محافظ من الطراز القديم ذو قلم لاذع. كان نايبول، الذي ترعرع في ترينيداد، وهي على مسافة رحلة بالقرب من فنزويلا، على دراية بالبلاد، وله أصدقاء مقربون في كاراكاس. تمت مقاربته ووافق على دراسة العرض. كان لا يزال متردداً عندما بدأ يتلقى تقارير استخباراتية أميركية رُفعت السرّية عنها، أو ربما شبه سرية عن فنزويلا. ولأنه بالتحديد من المدرسة المحافظة التقليدية، غضب نايبول للاستهانة به واستغلاله بمثل هذه الطريقة الفظة. ورفض السقوط في فخ سيلفرز، وتبادل معه بعض الكلام الجارح. وهذه هي المرة الثانية، من وجهة نظر نايبول، التي ينتهك فيها سيلفرز الأخلاقيات الصحافية. حصل الانتهاك الأول عندما كان نايبول في طهران في الأيام العصيبة، لكن هذه قصة أخرى. وأرجأت «نيويورك ريفيو أوف بوكس» تقريرها من فنزويلا لبضع سنين. وأوفدت إلى كاراكاس بديلة من الدرجة الثانية على شاكلة ألما غيّرموبرييتو الموثوق بها دائماً، حيث دعّم تحاملها فيل غونسون، صحافي «ميامي هيرالد» على القطعة، ورجل الـ «إيكونوميست». ما تكشفه هذه الحادثة هو هذا الطيف من الدعم الداخلي، الممتد من «نيويورك ريفيو أوف بوكس» إلى تلفزيون «فوكس» الذي اختزنته واشنطن. وعلى عكس العراق، حيث انقسمت المؤسسة الامبريالية في شكل خطير، ما من مكان للانشقاق في ما يتعلّق بالفناء الخلفي الأميركي اللاتيني. ولن تؤخذ الولايات المتحدة قط مرة جديدة على حين غرة، كما حصل في كوبا. لكنها، لم تكن مستعدة لفنزويلا، وتطلّب الأمر حملة دعائية موحّدة لتحضير الرأي العام للإجراءات التي قد تتم الحاجة إلى اتخاذها.

للانقلاب: تم تدبير مظاهرة شعبية تهدف إلى استثارة مواجهة مع الحكومة، واستخدام المواجهات الناتجة عن ذلك، مبرراً لانقلاب عسكري. واتضح أن كبار الضباط المبتهجين بالنصر، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن أن ذلك سيكون واحداً من أقصر الانقلابات عمراً في التاريخ، ولم يسلّموا بذلك في اليوم الفعلي الذي أمسكوا فيه بالسلطة. وتبجّح الأميرال كارلوس مولينا على التلفزيون، بأنه كان يجري التخطيط منذ سنة لإسقاط الرئيس شافيز، ومنذ وقت أطول في بعض القطاعات. وبرغم ذلك، فقد التقت كل الأفكار والتيارات حول التخلّص من هذه الحكومة المشؤومة، كما أسفر الأمر عن ذلك تماماً. وكان أحد زملائه، الانقلابي golpista، العقيد خوليو رودريغيز، على الدرجة نفسها من الصراحة، عندما أبلغ أحد الصحافيين أنه: بدأ منذ ١٢ شهراً مضت، بكل جدّية، تشكيل حركة قوية تحققت لحسن الحظ اليوم. لكن، لسوء حظ العقيد، فهي لم تمتد كثيراً إلى أبعد من ذلك اليوم.[١]

(١) Quoted in: Gregory Wilpert, *Changing Venezuela By Taking Power*, forthcoming.
إن رواية ويلبرت للانقلاب هي الأكثر استيفاءً من بين تلك التي قرأتها، وتدعم بفيض من الوقائع القضية التي أثارها الفيلم الوثائقي الأيرلندي «الثورة لن تُتلفز» *The Revolution Will Not Be Telivised*. ويمكن الحصول على ريبورتاج ويلبرت المثالي من موقع www.venezuelanalysis.com. وهو موقع يقوم بانتظام بتشريح ما يكتبه الـ «إسكواليدو» escualido في البلاد والخارج. انظر أيضاً دراسته: 'Collision in Venezuela', *New Left Review* 21, May-June 2003, pp. 101-116.

بل إن واقع التخطيط للانقلاب، على امتداد أكثر من سنة، يجعل من المستحيل أخذ نفي الولايات المتحدة لتدخلها، على محمل الجد. فقبل شهرين على الانقلاب، أبلغ مدير الـ «سي. آي. أيه.». بهدوء، لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، أنه إذا لم يبدّل شافيز من أسلوبه فلن يكمل ولايته. ثم، كيف تدخل ثلاث بوارج حربية أميركية المياه الإقليمية الفنزويلية من دون إذن، وتُلقي بمراسيها على مقربة من الجزيرة التي يُعتقل فيها شافيز؟ وهل يُصدّق ان أوتو (الـ) رايخ الثالث، السفير الأميركي السابق في فنزويلا، الذي يقوم بدور اللوبي لـ «موبيل أويل»، ومساعد وزير الخارجية لشؤون نصف الكرة الغربي في إدارة بوش، لم يكن على اطلاع على ما يخطط له أصدقاؤه في فنزويلا؟ وسواء اجتمع المتآمرون في سفارة الولايات المتحدة أم في سفارة إسبانيا، فمسألة ليست ذات صلة. فالبلدان كانا متورطين معاً في المؤامرة.(١)

---

(١) بعد الهزيمة الانتخابية لخوسيه ماريا أزنار في ٢٠٠٤، دمّر محظيّوه في وزارة الخارجية الإسبانية الدليل، لكنهم نسوا تغيير أو تدمير الأقراص المدمجة في حواسيب الوزارة. وأظهرت هذه عمق تواطؤ أزنار، وصدمت رئيس الوزراء الاشتراكي الجديد زاباتيرو. وأعطى التعليمات لوزير خارجيته بالاعتذار علناً من شافيز، الأمر الذي أثار استياءً كبيراً في الصحافة اليمينية في إسبانيا. وطُبّعت العلاقات بين البلدين، وبعد ذلك بأشهر زار رئيس سابق للوزراء، هو فيليبي غونزاليس، كاراكاس، ليقوم بأعمال اللوبي للمصالح التجارية، وأكد لشافيز أنه هو، غونزاليس، كان معارضاً كلياً للانقلاب. ومن غير المعروف إذا كان شافيز ساءله عن التعليقات المنحازة التي تظهر دائماً في الصحيفة «الغونزاليسية»، «إل بايس».

إلا أنه لم يكن للضوء الأخضر من واشنطن، أن يضمن شخصاً مأمون الجانب في كاراكاس. والشخص الذي وقع عليه الاختيار، بيدرو كارمونا إستانغا، هو رجل أعمال فاسد، أقسم اليمين على عجل في ١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٢ كرئيس لفنزويلا، وكان قد أوصى، في إحدى سفراته إلى مدريد، على وشاح رئاسي على قياسه في أحد محلات الموضة.(١) ارتداه باعتزاز، متلمساً الحرير بأصابعه، بينما ظهر على التلفزيون لحلّ البرلمان، وتعليق الدستور، وتعطيل المحكمة العليا، وطرد حكام الولايات المنتخبين. وهي إجراءات أخذت «الرايخ الثالث» على حين غرّة، وجعلت بعض الأغبياء المفيدين لكارمونا، من أمثال تيودورو بيتكوف، يصألون ألماً. كانوا يؤيدون الإطاحة بشافيز، لكن ذلك كان كثير الفظاظة على رقّة مشاعرهم. ولحسن الحظ لم تدم تلك النقاشات طويلاً.(٢)

مع هزيمة شافيز الظاهرية، بدأت الفصائل المختلفة المتورطة

---

(١) أوصى كارمونا شخصياً على الوشاح الاحتفالي الرئاسي في محل لأحد مصممي الأزياء في مدريد، متخصص في البزات العسكرية. وتم اكتشافه بين الأشياء التي خلفها وراءه، ويقف دليلاً يدعم الاتهامات الموجهة إليه. وكان مانويل فيتورو دي لا توري السفير الإسباني في كاراكاس، وسافر مع السفير الأميركي إلى ميرافلوريس لعقد اجتماع مع كارمونا في ١٣ نيسان/أبريل.

(٢) انظر الملحق «أ» حول صورة وصفية لتيودورو بيتكوف، مقاتل حرب العصابات، والشيوعي المُصلح، والوزير في حكومة الحزب الديموقراطي المسيحي وحزب الجبهة الليبرالية الجديدة، والصحافي الشرس، ومقصد جميع الصحافيين الأجانب المعادين للبوليفارية.

في الانقلاب في الاقتتال حول اقتسام المغانم. وطالب البيروقراطيون المدلّلون وعمال النفط التابعون للحركة الديموقراطية، بزيادات في الأجور، وبموقع في الحكومة الجديدة. رفض كارمونا، وهو شخص غير موهوب ومنطو على نفسه، ذلك وجاهة، وأخذ يحشر حكومته بالأباراتشيك apparatchiks، السيئي السمعة، من لجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة. وعندما قامت ابنة شافيز بتهريب رسالة إلى الزعيم الكوبي، فيديل كاسترو، واتضح للشعب الفنزويلي أنه لم يقدّم قط استقالته، تدفق سكان مزارع التلال المطلة على كاراكاس إلى الشوارع السفلى، حارقين السيارات، وناهبين المحلات، ومهددين باحتلال المدينة وقصر ميرافلورس ما لم يعد رئيسهم المنتخب. هذا الدخول إلى المسرح السياسي، أثار بشدة حفيظة الفقراء في مختلف أنحاء البلاد، وخلت الثكنات العسكرية في قلب كاراكاس بعدما انضم الجنود إلى الحشود ملوّحين ببيريهاتهم وبنادقهم بينما كانت الجموع تطوق القصر الرئاسي. فقد المتآمرون أعصابهم، ورموا بكارمونا السيئ الحظ ليل ١٣ نيسان/أبريل، وأطلقوا شافيز. عندها فقط، تنصّلت واشنطن من الانقلاب، في الصباح نفسه، الذي كانت صحيفة السيرة تلك تدّعي فيه أن التحرك العسكري قوّى الديموقراطية:

باستقالة الرئيس هوغو شافيز أمس، لم تعد الديموقراطية الفنزويلية مهدّدة بالطامح إلى لعب دور الديكتاتور. فالسيد شافيز، الديماغوجي المخرّب، استقال بعد تدخّل الجيش وسلّم السلطة إلى زعيم أعمال محترم، هو بدرو كارمونا. . .

بدأت أزمة هذا الأسبوع بإضراب عام احتجاجاً على استبدال مدراء محترفين في شركة النفط التابعة للدولة، بموالين سياسيين. واتخذت منحىً خطيراً يوم الخميس، عندما أطلق مؤيدون مسلحون لشافيز، النار على مضربين مسالمين، قاتلين ما لا يقل عن ١٤، وجارحين المئات. كان ردّ شافيز معهوداً. فقد أجبر خمس محطات تلفزيونية خاصة، على التوقف عن البث لعرضها صوراً عن المذبحة. وفي وقت مبكر من يوم أمس، أجبره قادة في الجيش على التنحي، رافضين إصدار الأوامر للجنود بإطلاق النار على مواطنيهم لإبقائه في السلطة. وهو موقوف الآن في قاعدة عسكرية، وربما يتم اتهامه بعلميات القتل التي حصلت يوم الخميس.[١]

بالكاد كان مصدر تلك التعمية سرّاً، ولطالما دُحضت ونقضت الإشاعة المضللة بأن مؤيدي شافيز أطلقوا النار على المضربين المسالمين، التي رددتها حرفياً شبكات الإعلام المعولمة. لكن، على ما لاحظه مرة طبيب هتلر المفضّل، فإن الكذبة التي يتم تكرارها بما يكفي، غالباً ما تصبح الحقيقة. وادعى أنه تعلّم ذلك من دعائيي بريطانيا الامبريالية إبان الحرب العالمية الأولى، وما بعدها.

وفي فنزويلا نفسها، في ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢، وقبل بضع ساعات تماماً على توقيف شافيز، ظهر نائب الأميرال فيكتور راميريز، وهو أحد كبار صانعي الانقلاب، في بث حي على «فينيفيزيون»، شاكراً علناً المجتمع المدني على مساعدته

(١) *New York Times*, 13 April, 2002.

على إفلات زمام الديكتاتورية: كنا نملك سلاحاً مميتاً: الإعلام. فدعوني أشكرْكم بما أن الفرصة أتيحت لي الآن. وفي الوقت نفسه، في إسبانيا، سمع مشاهدو «تي. في. أيه.» الصحافية الفنزويلية باتريسيا بوليو تقدم تقريراً من كاراكاس. وربما أُعجبوا بمهاراتها التحقيقية عندما أبلغتهم بابتسامة العارف: أعتقد أن الرئيس المقبل سيكون بيدرو كارمونا. وفي خلال اليومين اللذين كان فيهما في السلطة، عرض كارمونا وظيفة على باتريسيا الشابة (التي كتب والدها رافايل باليو قصة الانقلاب في الصفحة الأولى من «إل أونيفرسال» تحت عنوان «خطوة إلى الأمام». وكان متمالكاً للنفس أكثر ببعض الشيء من نغمة قفزة عملاقة للإنسانية إلى الأمام في محطات التلفزة الخاصة). أوحى بأن عليها أن تصبح رئيسة المكتب الفنزويلي المركزي للإعلام. كان والدها يضمر طوحات كبيرة في أن يصبح كارل روف الديكتاتورية، كما هي الحال في الإدارة الأميركية في عهد «المحافظين الجدد». لكن هذه الأحلام العذبة أسفرت عن لاشيء. وبالكاد كان تعبير الأميرال عن الامتنان مفاجئاً، إذا أخذنا في الاعتبار أن المعارضة كانت عملياً تحتكر الصحافة المكتوبة و٩٥ بالمئة من الموجات الفضائية، وكانت مسترسلة في حملة حقد لا تتوقف منذ أن تم انتخاب شافيز. وفي انتقاد جدلي لوسائل الإعلام الفنزويلية، قام سيمون لوموان، وهو محرر رئيسي في «لوموند ديبلوماتيك»، بتشريح دورها في الأزمة:

بعد مجيء شافيز إلى السلطة في ١٩٩٨، كانت جميع القنوات ذات

الملكية الخاصة ـ فينيفيزيون، راديو كاراكاس تلفيزيون، غلوبوفيزيون، وسي. أم. تي ـ وتسع من الصحف الوطنية الرئيسية العشر، بما فيها «إل أونيفرسال»، و«إل ناسيونال»، و«تال كوال»، و«إل إمبولسو»، و«إل نيوفي بايس»، و«إل موندو»، قد تولت دور الأحزاب السياسية التقليدية التي تضررت بانتصارات الرئيس الانتخابية. وقد وضعها احتكارها الإعلام في موقع قوي. وأعطت الدعم للمعارضة، ناقلة، في ما ندر، البيانات الحكومية، من دون الإشارة مطلقاً إلى غالبيتها الواسعة، بالرغم من تثبيت تلك الغالبية في صناديق الاقتراع. ووصفت دوماً أحياء الطبقة العاملة، بأنها مناطق لا فائدة منها، تسكنها طبقة خطيرة من الأناس الجاهلين والمجرمين. ولا شك في أنها كانت تتجاهل زعماء الطبقة العاملة وتنظيماتها، باعتبار أن صورتهم ليست جميلة. . .

وقاربت المعلومات التي نُشرت حد الغرابة. وعلى سبيل المثال: كشفت مصادر في أجهزة الاستخبارات، عن اتفاقات عُقدت مع عناصر مرتبطين بـ «حزب الله» في جزيرة مارغريتا الفنزويلية تديرهم السفارة الإيرانية. وعليكم أن تتذكروا أنه عندما كان شافيز يقوم بحملته الانتخابية، كان المدعو مقداد كريماً للغاية. ولأنه يجب تسديد القرض، ها أن إيران ستحوّل فنزويلا إلى قاعدة عمليات لها في مقابل تدريب فنزويليين في منظمات إيرانية للدفاع عن الثورة الإسلامية. أصبح الارهاب في وسطنا. . .

في ٢١ آذار/مارس وضعت «إل ناسيونال» العنوان الرئيسي التالي: «هوغو شافيز يعترف بأنه رئيس شبكة إرهابية». وفي اليوم التالي

أشارت «تال كوال» إلى الشعور بالغثيان الذي تسببت به الكلمات العدائية التي يستخدمها لتخويف الفنزويليين. وشعر الرئيس بالإهانة لتشبيهه بعيدي أمين، أو موسوليني، أو هتلر، ولتسميته بالفاشي، أو الديكتاتور، أو الطاغية، ولتعرّضه لسيل من الهجمات. وفي أي دولة أخرى، كانت مثل هذه الأعمال ستقاضى بتهمة التشهير. إنه هجوم مزعج وسفيه، بهذه الطريقة وصف وزير التجارة، أدينا باستيداس، الأمر. يتهمونني بتمويل زرع القنابل في الشوارع. ولا يمكنني الدفاع عن نفسي. وإذا ما هاجمتهم، فإنهم يشتكون إلى الولايات المتحدة!

ورد شافيز على هذا القصف الإعلامي، مستخدماً أحياناً لغة قاسية وحادة، خصوصاً من خلال إذاعته الأسبوعية «ألو بريزيدانتي!»، على القناة التلفزيونية الوحيدة التابعة للدولة. لكن هذا النظام لا يشبه الديكتاتورية بأي طريقة، ولم يُتبع تنديده القاذع بإجراءات للسيطرة على سيل المعلومات. ولم يُسْجن أيٌّ صحافي منذ تولى شافيز السلطة، ولم تقفل الحكومة أي وسيلة إعلام. وبرغم ذلك، فإنه يُتهم بالازدراء بحرية الإعلام وبـ «مهاجمة أجهزة التواصل الاجتماعي»...[1]

وبالرغم من فشل الانقلاب، لا تزال أقسام في المعارضة، لا تجيز لنفسها تقبّل أسباب هزيمتها. لام أولئك المعارضون كارمونا على فشله في إرضاء مصالح كل فئة كانت متورطة في محاولة الانقلاب؛ ولاموا الجنرالات الجبناء على عدم تخلّصهم من شافيز عندما سنحت لهم الفرصة؛ ولاموا واشنطن لأنها لم

(١) Maurice Lemoine, *Le Monde Diplomatique*, August, 2002.

تختطف شافيز وتحاكمه على «جرائم ضد الإنسانية». وطوّروا الكثير من النظريات الزائفة حول الديكتاتورية التي يخطط شافيز لإنزالها بهم، وتعودوا على النظر إليه بوصفه انقلابياً mestizo منحطاً، أو قرداً (كما تشير أحياناً محطات التلفزيون الخاصة إلى الرئيس المنتخب)، بحيث صعب عليهم الاعتراف بالشعبية الكبيرة الحقيقية التي تمتّع بها شافيز في البلاد.[1]

وبما أن الأمر كان مجرّد تعثّرات تكتيكية، أو هكذا كانوا يعتقدون، أفقدتهم فرصتهم الكبيرة في ١١ ـ ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. فقد أخذوا في تطبيق خطط أخرى لزعزعة الاستقرار. وفي كانون الأول/ديسمبر، انضمت بيروقراطية اتحاد عمّال النفط

(١) هذه النظرة عبّر عنها بإقناع فيل غونسن، الذي لا يخلو منه مكان وهو يندد بالوثائقي الأيرلندي «الثورة لن تُتلفز» من بين كل الأمكنة، على صفحات «فرتيغو» *Vertigo*، وهي مجلة فصلية للفيلم والفيديو المستقلين في العالم. وكان رود ستونمان، الذي فوّض بوصفه رئيساً لمجلس الإدارة، بإجراء الوثائقي باسم مجلس الفيلم الأيرلندي، قد نبّهني إلى المجلّد ٢، الرقم ٧، خريف/شتاء ٢٠٠٤. فهنا كتب غونسن عن شافيز: «... إنه ديماغوجي أميركي لاتيني عسكري إلى حد ما نموذجي، ينكر علناً الديموقراطية التمثيلية (بالرغم من أنه استخدمها لبلوغ السلطة)، وها هو الآن منصرف إلى إحلال الديكتاتورية... وتوزيعه للثروة ليس أكثر أو أقل من عملية شراء استهكامية وزبائنية (هكذا) لقاعدة السلطة العسكرية ـ المدنية... وقد أظهرت الاستطلاعات في شكل دائم، أن الغالبية ستصوّت من أجل تغيير في الحكومة...». كانت هذه تقريباً نسخة كربونية عن وجهات النظر المعلنة لرايس، ورامسفلد، وأوتو (الـ)رايخ الثالث، وبقية العصبة التي مولت الكونتراس ودربتها وسلحتها في نيكاراغوا. وهم، على الأقل، بقوا على استقامة واحدة. وستثبت الأحداث اللاحقة، كما سنرى، أن غونسن وأصدقاءه في كاراكاس، كانوا على خطأ.

المترفة، الخائفة على موقعها وامتيازاتها إلى اتحادات أصحاب مهن الطبقة المتوسطة ـ الأساتذة، والأطباء، والمهندسين. . . إلخ ـ في إعلان إضراب كامل عن العمل كانت أهدافه سياسية صراحة: إسقاط الحكومة البوليفارية. وصعب في هافانا عدم مقارنة ذلك كله مع الإضرابات المزعزعة للاستقرار لمزارعي الخضار، وللطبقة المتوسطة في تشيلي في ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ ضد الراحل سلفادور أياندي. وفي سانتياغو، استبقت الإضرابات الانقلاب. وحاولوا في كاركاس معالجة فشله. وفي الحالتين معاً، كانت الولايات المتحدة تعمل بفاعلية.(١)

---

(١) فيليب أجي، مسؤول رئيسي في الـ «سي. آي. أيه.» في أميركا اللاتينية في الستينيات، انشق عن الصف وكتب «داخل الوكالة» *Inside the Company*، وهو كناية عن فضح مدمّر للعنف، والإرهاب، والتعذيب، التي مارستها الـ «سي. آي. أيه.» ضد خصومها في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية. وأجي، المقيم الآن في كوبا، كتب عن الإخلال بالاستقرار في فنزويلا: «إن برنامج التدخل السياسي في فنزويلا هو واحد إضافي من مختلف التدخلات في العالم التي تديرها وزارة الخارجية الأميركية، ووكالة التنمية الدولية، ووكالة الاستخبارات المركزية (سي. آي. أيه.)، والصندوق الوطني للديموقراطية، إلى جانب مؤسساته المشاركة الأربع: وهي المؤسسة الجمهورية الدولية التابعة للحزب الجمهوري؛ والمؤسسة الديموقراطية الوطنية التابعة للحزب الديموقراطي؛ ومركز الأعمال التجارية الخاصة الدولي التابع لغرفة التجارة الأميركية؛ والمركز الأميركي الدولي للتضامن مع العمّال التابع لاتحاد العمال الأميركي ـ مجلس المنظمات الصناعية ـ، وهو اتحاد النقابات الرئيسي في الولايات المتحدة. أضف إلى ذلك، أن البرنامج يتمتع بمساندة شبكة عالمية من المنظمات الملحقة. وتنجز التنظيمات المختلفة عملياتها من خلال مسؤول وكالة التنمية الدولية في السفارة الأميركية في كاراكاس، ومن خلال ثلاثة مكاتب خاصة في كاراكاس تحت إشراف السفارة، هي: IRI (أنشئت في ٢٠٠٠)، وNDI =

لم تكن الخطة بالسر الكبير. فمن خلال وقف إنتاج النفط وغيره من السلع (بما في ذلك البيرة)، ومن ثم إقفال مدارس البلاد ومستشفياتها، أمل أولئك الذين يدعمون الإضراب، أن يؤدي ما ينتج عن ذلك من فوضى إلى سلخ غالبية البلاد عن شافيز، وإجباره على الاستقالة، أو على الأقل الإعلان عن انتخابات فورية. كانوا، شأنهم دائماً، واثقين من أنهم سيفوزون

= (٢٠٠١)، وشركة استشارات أميركية متعاقدة مع وكالة التنمية الدولية، تدعى «بدائل التنمية، المحدودة» Development Alternatives, Inc. (2002). وتطوّر هذه المكاتب الثلاثة عمليات مع العشرات من المستفيدين الفنزويليين الذين تقدم إليهم مساهمات مالية مصدرها وزارة الخارجية، ووكالة التنمية الدولية، والصندوق الوطني للديموقراطية، وأيضاً، وهذا أمر مرجح كثيراً، لكن لا تتوفر عليه الإثباتات، من الـ «سي. آي. أيه.». وعمليات التنظيمات الثلاثة مفصلة تفصيلاً كبيراً في مئات الوثائق الرسمية التي حصل عليها الصحافي الأميركي جيريمي بيغوود من خلال طلبات قُدّمت باسم قانون حرية الحصول على المعلومات، وهو قانون يستوجب نزع طابع السرّية عن الوثائق الحكومية وإطلاقها، بالرغم من أن الكثير منها يتعرض لمقص الرقابة عند إطلاقه: (www.venezuelanalysis.com. 9 November, 2005).

وأكثر التحليلات تفصيلاً عن التورط الأميركي هو «التدخل الأميركي في فنزويلا: خطر واضح وداهم» لديبورا جيمس *US Intervention in Venezuela: A Clear and Present Danger*, by Deborah James, Global Exchange 2006. ويمكن قراءة الوثيقة على:

http://www.globalexchange.org/countries/americas/venezuela/USVZrelations.pdf.

وتعترف جيمس بعمل إيفا غولليبنغر التي كانت مصممة، مع جيريمي بيغوود، على كشف الحقيقة: Gollinger, *The Chavez Code: Cracking US Intervention in Venezuela*, Havana, 2005.

فيها ويعودون إلى السلطة. ونجحوا فعلاً في خلق الفوضى، لكن خططهم ارتدت عليهم مرة جديدة. فهل خسر «الحمير» كلّياً مكرهم؟ لقد دُمّر يقين أصحاب البشرة الفاتحة، وحقهم في السلطة هو الأهم بينها. ولفرط يأسهم، هجموا في كل الاتجاهات، بغض النظر عن النتائج. وماذا غير ذلك يمكن أن يشرح جبل العثرات الكبرى الذي قذفته الحركة الديموقراطية ـ لجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة، وحلفاؤها بعناية، بحيث إنه عندما انهار غطّى الركام بُناته؟ وبقيت المعارضة وأصدقاؤها في الخارج يرفضون الاستسلام. وجاءت المحاولة الثالثة بعد عامين على الانقلاب، لكنهم اختاروا هذه المرة سلاحاً دستورياً على هيئة استفتاء لإسقاط الرئيس، سوّغه الدستور البوليفاري. وما من ديموقراطية غربية أو غيرها (في ما عدا سويسرا) تودع هذا الحق ـ إزاحة رئيس منتخب عن طريق الاستفتاء ـ في الدستور.

كانت لي، إبان سفرات عدّة إلى فنزويلا على امتداد الأعوام الخمسة الماضية، محادثات عدة مع هوغو شافيز في قصر ميرافلورس. وتضمنت المواضيع المطروحة أحلامه لأميركا اللاتينية، وتقويمه للولايات المتحدة، ولأزمة الشرق الأوسط، وبخاصة العراق وفلسطين، بالإضافة إلى نقاشات متفرقة حول الأدب. وتحدث، في أحد هذه الأحاديث، عشية استفتاء آب/ أغسطس ٢٠٠٤، عن ردات فعله على انقلاب ٢٠٠٢ والإضراب الاداري:

كنت واثقا، بعد الصدمة الأولية، من أن الانقلاب لن ينجح. فما إن نشرت ابنتي الرسالة بأنني لم أستقل، بل تمت إزاحتي بانقلاب غادر غير ديموقراطي، حتى بات الأمر مسألة وقت. لكن، لا بد من أن أعترف بأنني كنت أكثر قلقاً خلال الإضراب، حيث لم يكن شخصي هنا في خطر، بل فقراء فنزويلا، الأناس الذين اعتمدنا عليهم في دعمنا. وقالت المعارضة جهارة إن أبناء مدن الأكواخ، العاطلين عن العمل والغاضبين، سيثورون علينا إذا حُرموا من البيرة. وكانوا يأملون طبعاً أن يتمرّد الشعب، ويقبل بالثمن المطلوب منه لعودة الأمور إلى سابق عهدها. وقد دفع الشعب الفنزويلي بالفعل الكثير لما تم القيام به باسمه. وساعد عاملان على رفع معنوياتي. الأول هو الدعم الذي احتفظنا به في البلاد. وأذكر أنني، في أحد الأيام، ضقت ذرعاً من المكوث في هذا المكان، فقررت الذهاب إلى البراري على التلال. قدت السيارة برفقة حارس واحد ورفيقين للاستماع إلى الناس وتنشق هواء أفضل. حركت الاستجابة مشاعري بقوة. جاءت إلي امرأة وقالت: (شافيز)، اتبعني. أريد أن أريك شيئاً. تبعتها إلى مسكنها الصغير جداً. كان أولادها وزوجها ينتظرون داخل الغرفة نضوج الحساء. قالت لي: انظر ماذا أستعمل للنار. إنه ظهر سريرنا. وغداً سيأتي دور الأرجل، وفي اليوم الذي سيليه الطاولة، ومن ثم الكراسي والأبواب. سنتمكن من البقاء أحياءً، لكن عليك ألا تستسلم الآن. وفي طريقي خارجاً، جاءت مجموعات من الفتيان وصافحوني: يمكننا العيش من دون بيرة. لكن تأكد من القضاء على هولاء الـ . . . كان الناس غاضبين جداً، لكنهم كانوا يعرفون على من تقع المسؤولية، وكنا نتلقّى تقارير مماثلة من كل أنحاء البلاد. لقد آذت الطبقات المتوسطة نفسها كثيراً بذلك الإضراب.

فَشَلُ الإضراب في شرخ الدعم لثورتنا، كان الأمر الأكثر أهمية، وبات علينا الشروع في الهجوم. كيف؟ تحدثت مع فيدل، وهو صديق ورفيق. نصيحته إبان الانقلاب كانت أيضاً ثاقبة جداً. لا تقم بأي شيء متسرّع، قال لي، فهذه القارة لا تحتاج إلى أياندي آخر. كن حذراً جداً. وها أن الرفاق الكوبيين فتحوا أبوابهم على مصراعيها. ففي غضون أسبوعين، وصل إلى فنزويلا عشرة آلاف طبيب كوبي مع مستشفيات ميدانية وأدوية كوبية. هيأوا العيادات وبدأوا في علاج الناس في غضون ٢٤ ساعة. فمؤسسات الصحة في هذه البلاد كانت حكراً على الميسورين، وغالباً ما كان سكان البراري يضطرون إلى السفر، لمسافات طويلة، ليعاينهم طبيب. وها أنهم يُعايَنون على مقربة من منازلهم. أغضب هذا أصحاب المهن الطبية، كما أغضب زعماء المعارضة. وقالوا جهارة إن الأطباء الكوبيين إرهابيون، أُرسلوا للقيام بأعمال عنف. لقد كذّبوا أنفسهم هنا، لأن مؤيديهم عرفوا أن هذا هراء. ثم إن أطباءنا رفضوا قبول مرضى هذه العيادات في مستشفياتهم. وما إن حصل ذلك حتى أمرتُ كل المستشفيات العسكرية بقبول كل من توصي به هذه العيادات. وهكذا، نجحنا في هذا الصراع أيضاً. كذلك، بدأ الأساتذة بالتوافد من كوبا ومن أماكن أخرى في أميركا اللاتينية، وشرعنا في افتتاح مدارس بديلة عن تلك التي أُقفلت من جراء إضراب الطبقة المتوسطة.

كل من الانقلاب والإضراب كان أمراً سيئاً، لكن تينك المحاولتين لتدميرنا علّمتانا أيضاً أمثولات كثيرة. وأعتقد أننا في النتيجة ربحنا أكثر من مناوئينا. وها أنهم دفعوا قدماً بهذا الاستفتاء. واقتنع الكثيرون منّا بأن مئات، إذا لم يكن آلاف التواقيع التي جُمعت مزوّرة، لكن هذا

حق دستوري أعطيناه للشعب، وسنلتزم به. وأنا لست متأكداً، لكنني أعتقد أننا سنربح. والكثيرون يرون الأمر على ما هو عليه. . . فها هم يحاولون ذلك بعد فشلهم في الانقلاب والإضراب، وهذا أفضل. كان عليهم استخدام هذه الوسيلة في ٢٠٠٢. وماذا لو فشلوا؟ فيدل مقتنع بأنهم سيحاولون الاغتيال. وإذا فعلوا ذلك فسيثيرون حرباً أهلية...

وها أن أقل بقليل من مليون طفل فنزويلي من مدن الأكواخ والقرى الأكثر فقراً، يتلقون تعليماً مجانياً؛ وتعلّم ٢,١ مليون أمّي بالغ القراءة والكتابة؛ وتوفّر التعليم الثانوي لـ ٢٥٠ ألف طفل حرمهم وضعهم الاجتماعي من هذا الامتياز خلال «النظام القديم». وبحلول ٢٠٠٣، كانت ثلاث جامعات جديدة تعمل، وستُنجز ست أخرى بحلول ٢٠٠٦.

وفي ما يتعلق بالعناية الصحية، فإن ١٤ ألف طبيب كوبي أُرسلوا لمساعدة البلاد، بدّلوا الوضع في الأحياء الفقيرة التي أقيمت فيها ١١ ألفاً من عيادات الجوار، وزيدت موازنة الصحة ثلاثة أضعاف. أضف إلى ذلك الدعم المالي المتوفّر للأعمال الصغيرة، والمنازل الجديدة المبنية للفقراء، وقانون الإصلاح الزراعي الذي سُنّ وشُرع به بالرغم من معارضة الملاّكين القانونية والعنيفة. وبنهاية ٢٠٠٣، تمت إعادة توزيع أكثر بقليل من ٢,٢٦٢,٤٦٧ هكتاراً وُزعت على ١١٦,٨٩٩ عائلة.

الحجة الناشزة التي قدّمتها افتتاحية معادية في الـ «إيكونوميست» (كما في مقالة غونسن في «فرتيغو») خلال أسبوع الاستفتاء، أي أنه تم القيام بذلك كله لكسب الأصوات، هي حجة غبيّة. فهنا يخلط

المدافعون عن النخبة العالمية بين دسائسهم الخاصة والواقع. ففي العالم المعولم، حيث لا توجد فروقات أساسية بين الفصائل السياسية المتنافسة للنخبة، فإن السياسة تتعلق حصراً بالسلطة. عالم يمكن فيه أصحاب المليارات الذين يدعمون كلينتون أو بوش، أو رجال المال الذين دعموا تاتشر أولاً ومن ثم بلير، الانتقال من طرف إلى آخر بسهولة.

والتيارات البوليفارية في أميركا اللاتينية، مهمة بالضبط، لأنها تشكل تحدياً للسياسات التقليدية المحلية. ولهذا السبب، تمقتها النخبة ودعائيو وسائل إعلامها. ولو أن شافيز كان ببساطة مهتما بالسلطة لأمكنه إبرام صفقة مع الأوليغارشية المحلية والفوز بدعم الصحافة المالية العالمية. لقد أراد البوليفاريون السلطة بالضبط للتمكن من تطبيق إصلاحات حقيقية.[1]

عندما حدث ذلك في آب/أغسطس ٢٠٠٤، كانت نسبة الإقبال على الاستفتاء أكثر من ٦٠ في المئة. وكان لفوز شافيز بـ ٥٨ بالمئة، مقابل ٤٢ في المئة، لم يصوتوا له، ارتدادات أبعد من حدود فنزويلا. فقد رأت أميركا اللاتينية في نتائج الاستفتاء انتصاراً للفقراء على الأغنياء. لقد وضع شافيز ثقته

---

(١) انظر: Richard Gott, *Hugo Chafez and the Bolivarian Revolution*, London and New York, 2005. هي الدراسة الأكثر تفصيلاً وإفادة حول التغييرات في فنزويلا. وغوت هو أول صحافي أوروبي يلفت النظر إلى أهمية هوغو شافيز في مقالة صحافية استقبت الأمور قبل حدوثها في «لندن ريفيو أوف بوكس»، (Robinson' 'Footprints', *London Review of Books*, 17 February, 2000).

بالشعب من خلال تخويله السلطة، فردّ الشعب بسخاء. ولإدراك الحكومة الفنزويلية أن العمليات الانتخابية هي من الأحداث العالمية التي تُراقبَ أكثر ما يكون عن كثب، فقد سمحت بوجود مراقبين من كل مكان، بما في ذلك مركز كارتر في الولايات المتحدة. وفي وقت كان الكتبة والصحافيون المأجورون المدجّنون، الذين أعماهم تحاملهم، عاجزين عن تقبّل النتائج، أعلن الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، أن تلك كانت واحدة من أنزه الانتخابات التي سبق وعاينها. ومن أجل ذلك، طعنت به المعارضة، وأسيئت معاملته، وبُصق عليه في أحد مطاعم الجزء الثري من كاراكاس.(١)

(١) لا بد من أن أحداً ما في الـ «إيكونوميست» أدرك ببساطة أنه ليس في وسعه نشر مقالات لغونسن، الذي كانت مصداقياته قد استُهلكت موقتاً. وتم نشر مقالة وحيدة عن الاستفتاء، لامرأة من مركز كارتر تعلن فيها بوضوح أن النتائج كانت حرة وعادلة. ولم تحذُ الـ «فايننشال تايمز» حذوها. لكنها سرعان ما عادت تزاول أعمالها كالمعتاد. وكونهما قد أقنعتا نفسيهما بأن شافيز ما هو إلا زعيم عسكري متسلط، ولأنهما تسعيان يائستين إلى ترجمة أحلامهما إلى واقع، قاربت تقاريرهما قصص الخيال العلمي: فكما في تقاريرهما السابقة عن انقلاب ٢٠٠٢، كان اثنان من أسوأ المسيئين لا يزالان، كلاهما، مثبّتين عميقاً في مؤخرة الأوليغارشية، كما لو أنهما، في لاوعيهما، يقلّدان علاقة رئيس وزراء بريطانيا بمتقلّد السلطة في البيت الأبيض. ولم يقدّما أي دليل على وجود سجناء سياسيين، ناهيك بالمعتقلات على غرار غوانتنامو، أو بأماكن التعذيب على غرار أبو غريب، أو عن إقالة مدراء في التلفزيون أو ناشري صحف (وهو ما حصل من دون الكثير من الجلبة في بريطانيا في عهد بلير، والتي أيدتها في الواقع ثلاث مقالات منفصلة في الـ «فايننشال تايمز»)، أو القوانين الجديدة التي تسمح بالتوقيف من دون محاكمة.

وأسقطت المعارضة المزيد من سمعتها بالاعتراض على النتائج، لكنها فشلت في محاولتها. ومهما ارتفعت صيحات مضضها (وصيحات المدافعين عنها في وسائل الإعلام في الداخل والخارج)، فقد عرفت البلاد بأسرها، في الواقع، ما قد حصل. لقد هزم شافيز مناوئيه ديموقراطياً للمرة الرابعة على التوالي. فالديموقراطية في فنزويلا شقت طريقها، تحت راية الثوار البوليفاريين، عبر نظام الحزبين الفاسد المُحبّذ من الأوليغارشية وأصدقائها في الغرب. وحصل هذا في مواجهة عداء كامل من وسائل الإعلام ذات الملكية الخاصة.

وعمّت موجةٌ من الضعضعة المعنوية، المعارضةَ ومؤيديها العالميين بعد هزيمتهم في الاستفتاء. لو أنه فقط، بعبارات برشت، أمكنهم حلّ الشعب الفنزويلي وانتخاب شعب جديد غيره. ولم يعد في الإمكان نفي الدعم الشعبي العنيد لشافيز، في داخل البلاد. وكان واضحاً حتى في مكان آخر، أن المعارضة الفنزويلية أضحت فاقدة المصداقية كلياً، وقوة مستهلَكة. فقد «الحمير» مكرهم، وبرز «الثور الشرس» مرة أخرى منتصراً.

وها أن المعارضة اليائسة والمفلسة، تقرر أنها ستقاطع الانتخابات البرلمانية المقبلة المقرر إجراؤها في السنة التي تلي. وبما أن البوليفاريين خيّبوا أمل المعارضة برفضهم أن يكونوا متسلّطين، فالطريقة الوحيدة التي يمكن حكّام الثنائية القدامى محاولتها لإلقاء اللوم على الحكومة، كانت في الانسحاب من العملية الديموقراطية. أما هل يسعون جاهدين إلى الفوز في الانتخابات الرئاسية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، أو يتركون

شافيز يعود من دون معارض، فهو سؤال يبقى مفتوحاً [سقط رهانهم بفوز شافيز مرة جديدة في الانتخابات ـ المترجم]. وحتى الآن، وحده تيودورو بتكوف أعلن عن نيته مواجهة شافيز. وما يؤمل به، حتى ولو أنه يتمتع فقط بنسبة ٣ بالمئة، أنه لن ينسحب بضغط من أصدقائه في المعارضة. فالصحة السياسية للديموقراطية الفنزويلية، تتطلب مناظرة ونقاشاً، وليس انقلابات أو اغتيالات.

وتشير استطلاعات الرأي إلى أن شعبية شافيز ارتفعت إلى ٧٠ بالمئة، لكن مهمة المعارضة السياسية الجدّية هي أن تقدّم إلى جماعة الناخبين، بديلا جديداً.(١) وبفضل الدعم الكامل

(١) انظر: *Still in Diapers: How Primero Justicia Has Blown its Greatest Opportunity*, by: Julia Buxton. Posted on 2 December 2005 on www.vicuk.org, the Venezuelan Information Centre website.

وكما تلاحظ بكستون، وهي واحدة من بضعة أكاديميين موضوعيين في هذا الحقل، يبدو أن حتى واحداً من أكثر زعماء المعارضة ذكاءً وأقلهم مرارة، قد اصطف مع المفلسين الخائفين جداً من الخسارة مجددا:

من بين جميع شخصيات المعارضة، فإن خوليو بورجيس، زعيم حزب بريميرو جوستيسيا، ربما يملك الحظ الأفضل في تقديم بديل موثوق به لهوغو شافيز في انتخابات ٢٠٠٦ الرئاسية. وبالرغم من أن برنامجه بتحرير الاقتصاد لا يلقى صدىً في أوساط غالبية الناخبين الفنزويليين، التي قاومت محاولة البلاد السابقة للتقدم في اتجاه النموذج الليبرالي الجديد في ١٩٨٩، فإن لبورجيس القدرة على التواصل مع الناس العاديين. وقام زعيم بريميرو جوستيسيا في الأشهر القليلة الأخيرة، بجولة في البلاد ملتقياً الفنزويليين العاديين، ولاعباً دوراً مركزياً في إعادة الشرعية إلى المعارضة الفنزويلية: الاستماع إلى الشعب. وبورجيس أيضاً شاب، ومدرك لأكثر =

لوسائل الإعلام الخاصة، تتوفر للجمهور في شكل دائم، وجهات نظر النخبة القديمة. ولماذا حتى إذاً، التفكير في المقاطعة؟ أم أن القضية هي في أن الشكل الوحيد من الديموقراطية الذي يُعتبر أنه يعمل في هذه الأزمنة الكبرى، هو الثنائية التوافقية: الحركة الديموقراطية ـ لجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة في الحزب المسيحي الديموقراطي، الديمقراطيون ـ الجمهوريون، حزب العمال الجديد ـ المحافظون، الحزب المسيحي الديموقراطي، حزب الجبهة الليبرالية وإلى ما هنالك، يدعمها إعلام شركات ومؤسسة سياسية لا تحتمل أي تغيير حقيقي. ولهذا السبب، يؤدي تحدي هذا النوع من السياسات في فنزويلا وبوليفيا، إلى استفظاع اعتنت في صناعته النخبة العالمية، وسياسيوها، ووسائل إعلامها.

ووجد استهتار المعارضة الفنزويلية صدىً مشؤوماً بين مؤيديها في الولايات المتحدة. ففي ٢٢ آب/أغسطس ٢٠٠٥،

= المسائل إلحاحاً التي تواجه الفنزويليين، وبصفة خاصة مشاكل الأمن الشخصي وعدم القدرة على بلوغ النظام القضائي. وتفوّقه الأكبر هو في عدم ارتباطه بالحركة الديموقراطية ولجنة تنظيم الانتخابات السياسية المستقلة، وهما الحزبان التقليديان المهيمنان اللذان سيطرا على النظام السياسي الفنزويلي ومؤسسات الدولة مدة أربعين عاماً إلى ان اكتُسحت سيطرتهما الحصينة بعد انتصار شافيز الانتخابي الجارف في ١٩٩٨. وبينما يُتوقع على نطاق واسع، أن ينتصر شافيز في ٢٠٠٦، هناك دائماً إمكانية أن يخلق الركود الاقتصادي، والتصدعات داخل حركة شافيز، أو التبدل في التقييم الشعبي للحكومة، مساحة صغيرة ينمو فيها بديل سياسي. ويورجيس في مركز ملائم لملء هذا المجال.

أبلغ بات روبرتسون، المبشر الأصولي المسيحي، والمرشح السابق لتسمية الحزب الجمهوري لمرشحه للرئاسة في ١٩٨٨، والمؤيد الشديد للإدارة الحالية، بهدوء، أكثر من مليون مشاهد لبرنامجه التلفزيوني «نادي الـ ٧٠٠» The 700 Club، أنه يرى وجوب «التخلّص» من الرئيس الفنزويلي:

لقد دمّر (شافيز) الاقتصاد الفنزويلي، وسيحوّل ذلك إلى منصة انطلاق للتغلغل الشيوعي وللتطرف الإسلامي، على كافة أنحاء القارة. كما تعرفون، فأنا لست على دراية بمسألة عقيدة الاغتيال هذه، لكنه، إذا كان يظن أننا نحاول اغتياله، فأعتقد أنه علينا حقيقة أن نمضي قدماً ونقوم بذلك. هذا أرخص بكثير من الشروع في حرب. . . وأنا لا أعتقد أن أي عملية شحن للنفط ستتوقف. هذا الرجل خطر هائل، وهذه هي دائرة نفوذنا. . .

إنه، من دون أي تردد، عدو خطير لجنوبنا، ويسيطر على بئر هائلة من النفط، وهو ما يمكنه أن يؤذينا في شكل كبير جداً. لدينا القدرة على التخلص منه، وأعتقد ان الوقت قد حان لنا لنمارس هذه القدرة. نحن لا نحتاج إلى حرب جديدة كلفتها ٢٠٠ مليار دولار للتخلص، كما تعلمون، من ديكتاتور ذي سطوة. إنه لأسهل بكثير جعل بعض العملاء السريين يقومون بهذا العمل، ومن ثم الانتهاء منه. . .

أصدرت وزارة الخارجية الأميركية اعتراضاً لطيفا شكلياً، على ذلك، قائلة إن هذه ليست سياسة الولايات المتحدة. وإذا كان الأقل حنكة في مكتب أميركا اللاتينية في «فوغي بوتوم» أو «لانغلي»، يفترضون أن التهديدات الإرهابية ستُخضع الزعيم

الفنزويلي فإنهم يرتكبون خطأ. وجاء ردّ شافيز بعد ذلك ببضعة أسابيع في نيويورك، حيث خرج عن المألوف ليندد في خطاب تميّز بالحدة في قمة الأمم المتحدة، بالروابط بين الولايات المتحدة والأمم المتحدة. وقارن مراسل «واشنطن بوست» ظهوره بالإدانة النارية التي وجهها فيدل كاسترو في ١٩٦٠ للامبريالية الأميركية، وكتب:

ولّد شافيز أشد اندفاعة تصفيق لزعيم عالمي في القمة، بهجماته الجامحة على ما وصفه بسياسة القوة العسكرية والرأسمالية الأميركية. بل إنه قدّم اقتراحاً بنقل الأمم المتحدة إلى القدس، أو أي مدينة في العالم النامي...

وعنّف شافيز، في خطابه يوم الخميس، إدارة بوش لفشلها في حماية سكان نيو أورلينز الفقراء الذين احتبسهم الفيضان الذي أعقب الإعصار كاترينا. واتهم الولايات المتحدة أيضاً بالحض على الإرهاب الدولي لفشلها في توقيف المبشّر التلفزيوني بات روبرتسون لحضه الولايات المتحدة على أن تفكّر في اغتيال شافيز. وقال شافيز إن المكان الوحيد الذي يمكن شخصاً أن يطالب فيه باغتيال رئيس دولة أخرى هو الولايات المتحدة [وإسرائيل]، وهو ما حدث أخيراً مع بات روبرتسون، وهو صديق مقرّب جداً من البيت الأبيض. فقد طلب علناً اغتيالي، وهو لا يزال يسير حراً في الشوارع.

واستاء شافيز جداً، وقد جاوز الدقائق الخمس المخصصة للمتحدثين، عندما مرر له مسؤول في الأمم المتحدة ملاحظة يطلب منه فيها الاختصار. والتفت صوب رئيس الجمعية العمومية، السويدي يان

إلياسون، وقال: أعتقد أن رئيس الولايات المتحدة تحدّث هنا أمس لمدة عشرين دقيقة. وأنا سأطلب سماحك بأن تتركني أنهي تصريحي.

وقال خبراء الأمم المتحدة والسفراء الأجانب، إنه أمكن شافيز، مثله مثل كاسترو، أن يستغل خزاناً من النقمة على القوة الأميركية في الهيئة العالمية. واضح أن الناس مسرورون بما قاله، لكن ليس في استطاعتهم التعبير عن أنفسهم بمثل الصراحة التي يعبر بها هو، كما قال أحد السفراء العرب الذي تحدث مشترطاً عدم الكشف عن هويته، لأنه لم يشأ الإساءة إلى الولايات المتحدة...

وكان التصفيق لشافيز، بحسب نانسي سودربرغ، الدبلوماسية الأميركية الكبيرة السابقة في الأمم المتحدة، بمثابة اعتراف بعامل التسلية المحض لخطابه غير الدبلوماسي. فهذه الخطابات تصبح كثيرة الإضجار...»[1]

ولم تكتف الحكومة الفنزويلية بالكلمات وحدها، بل عرضت نفطاً رخيصاً على المواطنين الأميركيين بعد كارثة نيو أورلينز. قدمت حسماً بقيمة ٤٠٪ على ٤٩ مليون غالون من وقود التدفئة للأناس الفقراء في ماساتشوستس، وماين، ورود آيلند، وبنسلفانيا، ونيويورك، وديلاوير. وقدمت الشيء نفسه إلى

(١) Colum Lynch, 'Chafez Stirs Things Up at the U.N'., *Washington Post*, 17 September, 2005, page A14.
يمكن القراء أن يحكموا بأنفسهم إذا كان التصفيق جاء بسبب عامل التسلية المحض، أو المقاربة السياسية، أو بسبب الاثنتين معاً. النص الكامل موجود في الملحق «ج».

فيرمونت وكونيتيكت.[١] وأهمية هذا العرض، هو أنه يكشف عن إدراك حاد لضرورة الاحتكام المباشر إلى المواطنين الأميركيين. وهذا واحد من الفروقات الكبيرة بين الاستراتيجية السياسية للحركات الجديدة في أميركا اللاتينية، والحركات الإسلامية في أمكنة أخرى.

شكل الاشمئزاز العام من عنف النظام القديم، وعدم كفايته، وفساده، القاعدةَ لانتصار شافيز الأولى. وكان برنامج الحكومة البوليفارية الإصلاحي، هو ما يفسّر انتصاراته الانتخابية المتلاحقة. كما أن رفض شافيز السير في لعبة الأوليغارشية، هو السبب في حقد المعارضة وزبانيتها في الإعلام. بدأ الانتقال إلى نوع مختلف من الدولة، لكن مستقبله وقف على قدرته على تحويل مستويات معيشة الفقراء، والشروع في عملية إعادة التوزيع الاقتصادي على مستوى الاقتصاد.

لا جدال في أن البوليفاريين قلبوا سياسات البلاد التقليدية رأساً على عقب. وكذلك، فإن لفقدان الأوليغارشية سلطتها

(١) كما علّق ميديا بنجامين من «غلوبال إكستشانج» على التدخل الأميركي في فنزويلا US Intervention in Venezuela, 3 June 2006, www.politicalaffairs.net:
كم هو مستغرب أن عضو الكونغرس الجمهوري عن تكساس جو بارتون قد شرع في تحقيق حول هذا العرض الإنساني، بدلاً من التحقيق في شركات النفط الأميركية المتعددة الجنسيات التي أعلنت عن ١٠٠ مليار دولار من الأرباح المشتركة في العام الماضي بسبب أسعار المحروقات التي ارتفعت ارتفاعاً جنونياً.

السياسية، مغزاه بما أنها استُخدمت بوقاحة لتسويق الزبائنية من النوع الأكثر فظاظة. وبرغم ذلك، فإن الأسس الاقتصادية للنخبة التقليدية لم تُمَسّ. وفي إمكانها النهوض مجدداً، لكن، لحسن حظ هوغو شافيز ومؤيديه، فإن الآلهة لم تنعم على المعارضة بالكثير من الذكاء، إذ يبدو أن سنيّ الحكم الطويلة، قد أثرت في خلاياهم الدماغية. وستكون الأعوام العشرة المقبلة حاسمة. فإذا نجح شافيز في تحويل فنزويلا، وفي خلق الأسس لبديل بوليفاري إقليمي، فسيكون المستقبل عاصفاً، وقد يصبح كابوساً لأولئك الذين حلموا بجنّة ليبرالية جديدة بلا منازع. ولتحقيق ذلك، يجب إعادة بناء المؤسسات الديموقراطية والجمهورية، *وتقويتها وتطويرها كبديل حقيقي للديموقراطية الليبرالية الجديدة*، بينما هناك في الوقت نفسه، حاجة إلى إنشاء بُنىً على مستوى القارة تكون بديلاً من شبكات السوق الشمالية العالمية، ومواجهة الفساد في شكل دائم. وفي الماضي البعيد، وفرت البورجوازية الوطنية للقارة (كم يبدو ذلك مستغرباً اليوم) قاعدة لتحدّي السيطرة الامبريالية، لكن بفضل إلغاء التصنيع في البرازيل والمكسيك والأرجنتين وتشيلي، فإن النخبة الجديدة مرؤوسة اختيارياً. وتحتاج الحركات الاجتماعية السفلى، التي تتحدى النظام الجديد، إلى أدوات سياسية. وقد تم إيجادها في فنزويلا وبوليفيا. أما في البرازيل والمكسيك، فلا يزال البحث جارياً.

الفصل الرابع

بوليفيا من جديد

وُلدتُ في ليلة شقاء
وكان مهدي المطر والريح.
لم يشفق أحد على ويلي
ملعون مولدي
وملعون العالم
وملعون أنا.

نواح بلدي

هناك في كل جمهورية، نوعان من الوضعيّات: وضعية عامة الناس؛ ووضعية الطبقة العليا... وكل تشريع مؤات للحرية يُحدثه الاصطدام بينهما.

نيكولو ماكيافيللي

بالدخان والنار، الكثيرون من الناس المكممين والصامتين
في شارع ما، عند زاوية ما،
في المدينة العالية المستوى، يتمعّنون في المستقبل بحثاً عن الماضي...

خيمي ساينز، «المدينة» (Jaime Saenz, The City, 1970)

الذكرى التي أحفظها عن لاباز، ذكرى مدينة سوداوية. كنتُ هناك في النصف الأول من ١٩٦٧.[١] كان المطار كناية عن حظيرة خشبية صغيرة. وتوجب عليّ الانتظار طويلاً قبل أن أتمكن من الدخول. فقد أصبح جواز السفر الباكستاني (الذي كنت أحمله عندها) مثاراً للفضول والريبة. لم يكن الأمر أنهم اعتقدوا أنه جواز مزوَّر، بل الواقع ببساطة هو أنه ما من أحد في شرطة الهجرة قد سمع بباكستان. فهل هي حقاً موجودة؟ أكدتُ لهم أنها موجودة بالفعل، وعرضت أن أشير إلى مكانها على خارطة العالم. لم يتم العثور على أي خارطة. وأُجري بعضُ الاتصالات الهاتفية للتحقق من روايتي، إلا أن التأشيرة البوليفية المختومة بوضوح على جوازي، هي التي أقنعتهم في نهاية الأمر بأنني لست من الفضاء الخارجي. كنت أول باكستاني يزور بوليفيا، إلا أنني سرعان ما أدركت من النظرات الموجهة إليّ، أنني لم أكن، بالنسبة إلى الكثيرين من ذوي الأصل الأوروبي، سوى مجرّد هندي آخر. لم يزعجني ذلك البتة. وقلّما علموا أنني هندي أحمر.

(١) الرواية المفصلة لرحلتي البوليفارية موجودة في: *Streetfighting Years: An Autobiography of the Sixties*, London and New York, 2004.
كنت من ضمن مجموعة ضمّت بيري أندرسون وروبن بلاكبورن: أوفدنا برتراند راسل لحضور محاكمة الكاتب الفرنسي رجيس دوبري في كاميري. كان تشي لا يزال حيّاً، لكن المسلحين كانوا مطوَّقين، ويتم قطع طرق الهروب، بالرغم من أننا فضّلنا عدم أخذ هذه التقارير على محمل الجد في ذلك الوقت. لم يكن اختيار البلاد على هذا القدر من الخطأ، بل ثبت أن التوقيت وأسلوب الصراع كانا كارثيين. ولم يكن إلا بعد بضع سنوات، أن أصبح تشي، المعزول في آخر أشهره المأساوية، رمزاً للفلاحين البوليفيين.

ما راعني بعد يوم من التجوال عبر الشوارع، أن السكان الأصليين نادراً ما كانوا يبتسمون. فقبل شهر أو نحوه من قيامي بهذه الرحلة، أمضيت ستة أسابيع في فيتنام التي مزّقتها الحرب، حيث كنا نتعرض للقصف بانتظام. وشاهدت يومياً الموت والدمار، لكن عندما كانت القنابل تتوقف ليلاً، أو حينما كانت هناك هدنة يوم أو يومين، كان الفيتناميون يضربون النكات ويضحكون. كانوا، بالرغم من هول الحرب، يعرفون أن هذه بلادهم.

لم يكن الأمر على هذا المنوال في بوليفيا. فهنا، في لاباز، بدا أن شعب الآيمارا منشغل من الداخل والخارج. فهل استسلموا لقدرهم؟ هل هذه مشيئة الله؟ أذكر أنني أجريت مقابلات مع فلاحين ضربهم الفقر في القرى الجبلية في شمال باكستان في أواسط الستينيات، وكنت كلّما سألتهم «لماذا تقبلون بهذا؟»، كان الجواب دائماً هو في التطلّع صوب السماء، وهزّ الكتفين، والإشارة إلى إرادة الله. لكن هذه مدينة. والسكان الأصليون يعيشون فيها. كان التفاوت في مستويات المعيشة بينهم وبين الأقلية من السكان من ذوي الأصول الأوروبية، مروّعاً. لم يكن متاحاً لهم، ولا باستطاعتهم، أن يكونوا على المستوى نفسه من قدرية مجتمعات الفلاحين في جنوب آسيا؟

في إحدى الأمسيات، أخذنا بضعة من أصدقائنا اليساريين إلى لقاء اجتماعي للآيمارا في إحدى ضواحي لاباز. كانت هناك موسيقى وشرب ورقص. جرى تقديمنا على أننا أصدقاء من بعيد. شاهدت عيوناً تلمع وابتسامات خجولة، وتغلبت عليَّ فجأة رغبة شديدة لم أتمكن من مقاومتها في إطلاعهم على ما يجري في

فيتنام، وطريقة تنظيم المقاومة. كانت لغتي الإسبانية، ناهيك بالآيمارا، شبه معدومة. للمرة الأولى في حياتي، مثّلت كلامي بالحركات والإيماءات وببضع كلمات أمكنهم فهمها. جاء الردّ حاراً، وبلغت صيحات «نعم لفيتنام، لا لليانكي» Vietnam Si, Yanqui No، الشوارع في الخارج. وكانت الأخبار المنبئة بأن الشرطة على وشك مداهمة المكان، «رسالة» بأنه علينا المغادرة على عجل.

في ذلك الوقت، كان ٨٥ في المئة من الطرقات في بوليفيا غير معبّدة، ولم يكن هناك كهرباء، ولا مياه جارية في معظم القرى أو المساكن الفقيرة في المدن. ولم تتقلّص هذه الأرقام كثيراً مع بداية القرن الواحد والعشرين. ففي العام ٢٠٠٠، كان لا يزال ٧٠ في المئة من الطرقات وعرة، بينما لم تصل الكهرباء إلا إلى ٢٥ في المئة من المساكن.

ما هو هذا البلد الذي سمّي على اسم المحرّر؟ فمنذ اللحظة التي اتفق فيها بوليفار وسوكري على أن البيرو العليا ستصبح بوليفيا، بقيت السلطة السياسية والاقتصادية، في معظم تاريخ البلاد، في أيدي نخبة وراثية أوروبية الأصل، على تنوع مظاهرها، كانت تتدعم في شكل منتظم بمهاجرين أوروبيين.[1] تغيّر كل شيء، ولم يتغيّر هنا شيء. وعلى كل شيء أن يتغيّر،

(١) في لاباز في ١٩٦٧، كنت أسير مع الناشر الإيطالي ج. فلترينللي على الرصيف قبالة فندق سوكري، حين توقفنا لمشاهدة فرقة موسيقية عسكرية تسير عبر الشارع. وقد استرعى اللحن آذاننا معاً: كانوا يعزفون أغنية «هورست فيسل» Horst Wessel.

حيث إن ٥٥ في المئة من أصل السكان التسعة ملايين، هم من سكان البلاد الأصليين، وثلاثين في المئة هم من الخلاسيين (Mestizo) (مزيج من الأميركيين الهنود مع النسب الأبيض)، و١٥ في المئة فقط هم من أصل أوروبي؛ وهذا واقع كان يجب أن يستثير مزيداً من التفكير، أكثر مما فعل قبل الانتخابات الدراماتيكية لإيفو موراليس رئيساً في ٢٠٠٥. ويشكّل هذا حقبة جديدة في تاريخ بوليفيا المضطرب. فقبل ذلك لم يقترب حتى أي زعيم من السكان الأصليين من السلطة، فكيف بالحصول على الرئاسة.

يتنافى تاريخ البلاد الاجتماعي والأنثروبولوجي والسياسي مع الادعاءات بأن وضعها العام يشبه «المياه الراكدة». فالنقص في التنمية الاقتصادية، الذي أنتج هرماً قاعدته من الفلاحين الفقراء والعمال المبالَغ في استغلالهم، ورأسه نخبة صغيرة ثرية، قابضة على اقتصاد البلد، لم يكن على أي حال مَرَضاً خاصاً ببوليفيا. إلا أنه أنتج، في هذه الحال، الحركات العمالية الأكثر نضالية في أميركا اللاتينية، ومزيجاً قوياً من التيارات الراديكالية ـ الليبرالية ـ الاشتراكية ـ الشيوعية ـ التروتسكية ـ الوطنية، كان له أثره في تاريخ البلاد في معظم القرن الماضي. وسرّع هذا في العمليات التي أدّت إلى ثورة ١٩٥٢، وهي محاولة متصدّعة، لكن مهمّة، للتفلّت من الرأسمالية والامبريالية، توجتها الحملة البطولية، ذات القدر المأساوي، لتشي غيفارا في ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧. وتبدو ثورة ١٩٥٢ كأنها لا تستأهل الكثير من الانتباه

في التواريخ النموذجية لأميركا اللاتينية، أو للانتفاضات الثورية العالمية.[1] لكنها، كانت برغم ذلك، عملية ذات أهمية حيوية، طبعت المسار السياسي للبلاد ومؤسساتها في العقود التي تلت.

أضعفت حرب «شاكو» الكارثية مع باراغواي في ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥، النخبة البوليفية، وأسقطت سمعتها وهي التي تألف جوهرها من أصحاب الملايين الذين استثمروا ثرواتهم في القصدير، وسيطروا على حياة البلاد الاجتماعية والسياسية من دون أي تدخل مباشر في إدارة الدولة. وفي ١٩٣٦، حصل إضراب عام، مقرون باستياء ضباط الجيش الشبان، لإنتاج ما سمّي النظام العسكري الاشتراكي الذي أمم عمليات «ستاندارد أويل كومباني»، وسمح بنمو الاتحادات العمّالية، وأعلن إبطال الـ «بونغواخي» ponguaje، وهي الضريبة شبه الإقطاعية التي يدفعها الفلاحون الهنود. وفي ١٩٣٩، حاولت حكومة الجنرال الراديكالي جرمان بوش، السيطرة على شركات القصدير التي هيمنت على قطاع التصدير في الاقتصاد البوليفي. إلا أن بوش مات في ظروف غامضة قبل أن يتمكن من تطبيق هذه البرامج، وأقيم نظام أحد الجنرالات المحافظين. وفي كانون الأول/

---

(١) على سبيل المثال، يحتوي «تاريخ بنغوين لأميركا اللاتينية» *The Penguin History of Latin America* (1992) لإدوين وليامسون، على الكثير من الأمور المفيدة، لكن لم يخصص لبوليفيا حتى فصلاً مستقلاً في القسم المعنون «القرن العشرين»، بالرغم من واقع أن ما جرى في النصف الأول من القرن كان، في شكل من الأشكال، أكثر إثارة للتحدي من أحداث في أمكنة أخرى من القارة، مع الاستثناء الوحيد للثورة الكوبية في ١٩٥٩.

ديسمبر ١٩٤٢، أدى إضراب إلى قيام الجنود بإطلاق النار على عمال مناجم القصدير في كاتافي. وتسببوا بمجزرة لم تكن مختلفة عن الـ «كاراكازو» في ١٩٨٩، وغيرها من المذابح المشابهة التي ارتكبتها الدولة في أمكنة أخرى من القارة خلال القرن العشرين.

قادت الحركة الوطنية الثورية المشكّلة حديثاً، حملة احتجاج على هذه المجزرة، وثبّتت نفسها قوّة فاعلة في الحياة السياسية البوليفية. ومشاركة الحركة في حكومة الميجر غوالبيرتو فيّارويل، ما بين ١٩٤٣ و١٩٤٦، أتاحت لها تثبيت دعمها داخل الاتحادات العمالية، وبخاصة بين عمال مناجم القصدير.

بعد الإطاحة بفيّارويل في ١٩٤٦، تعرّضت الحركة للاضطهاد على أيدي الحكومات المتعاقبة حتى تاريخ نيسان/ أبريل ١٩٥٢، عندما أدت انتفاضة شعبية إلى إنشاء حكومة جديدة تسيطر عليها الحركة الوطنية الثورية. وفي حين كانت التغييرات السابقة في النظام، انعكاساً للصراعات داخل الجيش، فإن عمّال لاباز ومقاطعات المناجم، يدعمهم بعض فصائل الـ «كارابينيروس» ـ الشرطة العسكرية ـ قاموا في هذه المرة بمحاربة الجيش والانتصار عليه. عند هذا الحد، تعرضت الحركة الوطنية الثورية للضغوط من كل من التروتسكيين والشيوعيين الذين استقطبوا بعض أكثر العمّال تاريخاً نضالياً إلى صفوفهم. وأممت الحكومة الجديدة للحركة الوطنية الثورية، مناجم القصدير الرئيسية، وأقامت فيها شكلاً محدوداً من الإدارة الذاتية، بينما أُعطي الاتحاد العمالي البوليفي حقَّ تسمية أربع

حقائب وزارية. وقد كان لإلحاق العمال الهزيمة بالجيش دور كبير في إشعال ثورة قام بها فلاحون طردوا أو قتلوا بعض الملاكين الكبار. وشرّعت حكومة الحركة الوطنية الثورية مصادرة الفلاحين للأراضي في القانون الزراعي للعام ١٩٥٣. لكن، لم يتم إتباع تأميم المناجم، ولا الإصلاح الزراعي، بأي هجوم عام على العلاقات الاجتماعية للرأسماليين. وعندما اعترض التروتسكيون والشيوعيون على الطبيعة المحدودة للتأميم، توخّت الحركة الوطنية الثورية ضرب نفوذهم في الاتحاد العمالي البوليفي، وتم الإقرار بدور الجيش كضابط لسلطة ميليشيات عمّال المناجم. وعلى الصعيد الخارجي، صارت الحكومة تعتمد باضطراد على المساعدة الأميركية، وتتكل في الداخل أكثر فأكثر على اتحادات الفلاحين التي ترعاها الحكومة. إلا أن عمال المناجم استمروا في ممارسة السلطة المحلية في مناطقهم، وتوخّى زعيمهم، خوان ليشين، تنظيم يسار الحركة الوطنية الثورية.(١)

---

(١) يشكل كتاب جيمس دونكرلي «التمرد الذي يجري في العروق» James Dunkerley, *Rebellion in the Veins*, London and New York, 1984، إعادة تركيب لامعة لتاريخ بوليفيا في القرن العشرين. ويحتوي على أكثر الروايات تفصيلاً لثورة ١٩٥٢. وهناك إشارة في الهوامش إليّ، وهي في الغالب مغلوطة وليس لها أي معنى. وينتهي دونكرلي إلى التنبؤ بثورة بوليفية جديدة. وإذا أخذنا في الاعتبار التحول التاريخي في ١٩٩٠، لأمكن بسهولة الاستهزاء بمثل هذا التنبؤ. إلا أنه يمكن أن يكون لانتصار موراليس الديموقراطي وقع على البلاد شبيهٌ وقع في ١٩٥٢. ويمكن تحديثاً يقوم به جيمس (بدلاً من البروفسور) دونكرلي، أن يكون قيماً.

لم يكن اختيار تشي لبوليفيا كموقع محتمل للثورة في أواسط الستينيات، اختياراً غير رزين، كما قد يبدو للأجنحة الأكثر تعصّباً وراديكالية في اليسار الأميركي اللاتيني والعالمي، في ذلك الوقت. فالتقاليد الثورية والذاكرة التاريخية للبلاد كانت قوية، وكانت الظروف الموضوعية ـ جماعة الفلاحين المُعدَمين الذين يعانون الجور والظلم، والطبقة العاملة المسيّسة ـ مؤاتية للتمرد. وحتى عندما كانت فرقة تشي من المقاتلين المسلحين معزولة في نانكاهوازا، كانت معارك تدور بين الجنود وعمال المناجم. وهُزمت المجموعتان. وتمكن بضعة من محاربي العصابات من الفرار من مصيدة الكولونيل ريكوي تيران ومغادرة البلاد، لكن الجيش فشل في توطيد نجاحاته. والأهم من ذلك، أن إعدام تشي غيفارا بحضور عملاء من «السي. آي. أيه.»، مقروناً بأعمال وحشية أُنزلت بعمال المناجم، سرّعت في نشوب أزمة خطيرة داخل الحكومة والجيش، حيث استقال وزير الداخلية أرغويداس، وأرسل على عجل مذكرات تشي وغيرها من الوثائق إلى هافانا.[1]

(١) أصبح أنطونيو أرغويداس (١٩٢٩ ـ ٢٠٠٠) وزيراً لداخلية بوليفيا إبان الديكتاتورية العسكرية للجنرال رينيه برّيانتوس في الفترة ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٩. وقد جندته وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (الـ «سي. آي. أيه.») في ١٩٦٥، وعمل بإخلاص في الحملة لهزم فرقة حرب العصابات التابعة لتشي. وكان لأسر الزعيم الثوري وإعدامه في ١٩٦٧، وقع كبير على أرغويداس الذي ندم على دوره في القضية. من هنا قراره تهريب نسخ من مذكرات تشي غيفارا إلى كوبا. وكان نشرها في ما بعد (وحّدنا الجهود في بريطانيا مع مجلة «رامبارتس» *Ramparts* ـ حررت في ذلك الوقت بالتعاون مع ديفيد هوروفيتز ـ في الولايات المتحدة، =

انقسمت ماكينة الدولة البوليفية بين أولئك الذين أرادوا الردّ إيجاباً على الانتفاضات، وبين جناح متشدد فضّل خنق كل انشقاق، وإراقة الدم إذا لزم الأمر ذلك. كذلك، فإن الولايات المتحدة في ذلك الوقت، تأرجحت بين القمع والإصلاح في أميركا اللاتينية، الأمر الذي أثار حنق اللوبي الكوبي واليمين المتطرف. حبّذت الولايات المتحدة إصلاحات قد تساعد على صدّ الثورة وعزل مناصريها. وأوفدت واشنطن فريقاً خاصاً، برئاسة نلسون روكفللر، لدراسة الظروف السائدة في أميركا اللاتينية. وقدّمت بعثة روكفللر تقريرها إلى وزارة الخارجية الأميركية في ١٩٦٩. وعبّرت عن خيبتها من الأوليغارشيات التقليدية التي أثارت امتيازاتها وأخطاؤها الثورات. من هنا، إصرار الوثيقة على أنه لا يمكن وقف الثورات إلا من خلال إصلاحات جدية تتضمن تعديل الشروط التقليدية للتجارة والاعتماد:

مثلما تعتمد الجمهوريات الأميركية الأخرى على الولايات المتحدة في

= وخصصنا عدداً خاصاً من «ذي بلاك دوارف» *The Black Dwarf* لنشر المذكرات بالإنكليزية للمرة الأولى، ما أثار الغضب الكبير لتوم ماشلر الذي دفع مبلغاً كبيراً لمصلحة جوناثان كيب، وندد بنا بوصفنا قراصنة، وقراصنة كنّا...)، قد فضّل مطاردة القوات الخاصة البوليفية من دون هوادة لزعيم حرب العصابات. وكانت بمثابة إحراج كبير لبرّيانتوس. ونشد أرغويداس المنفى في تشيلي أولاً، وبالتالي في كوبا حيث أمضى معظم السبعينيات. وبعودته إلى بوليفيا، تورط في سياسات هامشية راديكالية، ومات، استناداً إلى بعض التقارير، عندما انفجرت قنبلة كان ينقلها.

حاجاتها إلى البضائع الإنتاجية، هكذا تعتمد الولايات المتحدة عليها من أجل سوق كبيرة لمنتجاتها المصنّعة. وكما أن هذه البلدان ترى في الولايات المتحدة سوقاً لمواردها الأولية من خلال بيع ما يمكنها لشراء البضائع الإنتاجية لإنماء اقتصاداتها، فإن الولايات المتحدة ترى في هذه الموارد الأولية ضرورة لصناعاتها التي تعتمد عليها لتوظيف العدد الكبير من مواطنيها.

لكن اقتصادات الاعتماد المتبادل هذه، آخذة في التغيّر، ويجب أن تتغيّر. وعلى تدفّق متنام في الاتجاهين لتجارة المواد الصناعية، أن يحل محل التبادل الحالي للسلع المصنعة مقابل المواد الأولية.[1]

وعلى غرار معارضيها، بالغت بعثة روكفللر أحياناً في تقدير أبعاد الاضطرابات الاجتماعية، وافترضت، ببساطة بالغة، أن وضعاً سابقاً للثورة موجود في كل مكان. إلا أن الجميع اتفقوا على أن الثورة الكوبية فتحت فصلاً جديداً في تاريخ القارة. وكان واضحاً أنه يجب أخذ الوضع على محمل الجد من خلال أفكار بعثة روكفللر الرصينة التالية، وبعضها لا يزال ملائماً اليوم، لكنه بمثابة «لعنة إلهية» لمناصري «إجماع واشنطن»:

أ ـ أدت ديناميكيات التصنيع والتحديث إلى توسيع النسيج الاجتماعي والبنيات السياسية. ويسيطر على الوضع عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي، كما تنامت الضغوط لمصلحة فرض موقف راديكالي من

(١) Quality of Life in the Americas, Text of the Rockefeller Mission Report, The Department of State Bulletin, 8 December 1969, Washington D.C.

الحلول المقترحة للمشاكل، وازدياد في الاتجاه صوب الاستقلال الوطني في ما يتعلق بالولايات المتحدة؛

ب ـ إن خميرة الإنكاريّة والفوضى تنتشر عبر هذا النصف من الكرة الأرضية؛

ج ـ لم يقم معظم الجمهوريات الأميركية بتعبئة الموارد الضرورية لتصنيع واسع لاقتصادها. وهي تحتاج بنسب متفاوتة إلى: تعليم أكثر وأفضل؛ ونظام أكثر فاعلية في تحويل المدخرات الوطنية إلى استثمارات رئيسية؛ وقوانين تحمي مصالح الشعب، وتشجع في الوقت نفسه المسعى الحرّ وتوسيع خدمات الحكومة (مثل تدخل الدولة ـ بدائل النقل لمساندة النمو الصناعي؛

د ـ إن الحيرة التي تواجه الحكومات، هي التالية: أنها تعرف أن تعاون الولايات المتحدة ومشاركتها قد يساهمان كثيراً... لكن شعورها بالشرعية السياسية قد يتوقف كثيراً على درجة الاستقلال التي يمكنها الحفاظ عليها في ما يتعلق بالولايات المتحدة؛

هـ ـ إن الجيش والكنيسة الكاثوليكية هما أيضاً من بين القوى التي تتحرك اليوم من أجل التغيير في الجمهوريات الأميركية الأخرى، بالرغم من أنه لم يُقَرّ بذلك بعدُ في شكل كبير. وهذا دور جديد بالنسبة إليهما؛

و ـ إن الجيش، في الكثير من بلدان أميركا الوسطى والجنوبية، هو التجمع السياسي الأهم في المجتمع. فالجيش رمز القوة والسلطة والسيادة، كما أنه منبع الفخر الوطني. وهو يُعتبر تقليدياً الحَكَم النهائي في ما هو جيّد للأمة؛

ز ـ باختصار، ثمة نوع جديد من العسكر يأخذ في الظهور، وهو

غالباً ما يصبح الورقة الرئيسية للتغيير الاجتماعي البناء في الجمهوريات الأميركية. والعسكر الجديد، الذي يحرّكه نفاد صبره المتزايد حيال الفساد وعدم الكفاية وركود النظام السياسي، على استعداد لملاءمة تقاليده السلطوية مع أهداف التقدم الاقتصادي والاجتماعي.[1]

لم تحظ مقررات التقرير بالشعبية داخل قطاعات الاستخبارات والجيش في الحكومة الأميركية، لكن مجرّد أن التقرير قد نُشر، يشير إلى انقسام كبير في صفوف النخبة. لقد تم تفضيل الإصلاح العسكري على الثورة. وكاد وقع ذلك في بوليفيا يكون فورياً. ففي نيسان/أبريل ١٩٦٩، كان الزعيم البوليفي العسكري رنيه برّيانتوس قد مات في شكل غير متوقع في حادث تحطم طائرة. وقرر خَلَفه، الجنرال ألفريدو أوفاندو، تغيير المسار، بحسب ما اقترحته بعثة روكفللر.

في ١٩٧٠، بدأ النظام في ظل الجنرال أوفاندو في التدرّج في اتجاه قومية عسكرية على الطراز البيروفي. وفي الوقت نفسه، انطلق زعماء اتحادات الطلبة في حملة حرب عصابات قصيرة الأمد في تيوبونتي، في مثال إضافي على التأثير الذي أحدثه تشي غيفارا. وساهمت جماعات تيوبونتي لحرب العصابات، بالرغم من عدم إحرازها نجاحاً يُذكر، في المزيد من تفاقم أزمة النظام العسكري، وأدت إلى محاولات انقلاب متتالية قامت بها فصائل مختلفة من الجيش. وفي تشرين الأول/أكتوبر من السنة

(١) Quality of Life in the Americas, op cit., pp. 502-5.

نفسها (١٩٧٠)، أطاح الجنرال المحافظ روجيليو ميراندا الموالي للولايات المتحدة بأوفاندو، وأصر على أنه يتحدث باسم القوات المسلحة كلها. وهو بيان تم رفضه في شكل مثير عندما دعا الجنرال خوان خوسي توريس إلى مقاومة الطغمة العسكرية الحاكمة، وهزم الجناح اليميني في الجيش بمساعدة من الاتحادات العمالية.[١]

إبان هذه الأحداث، قام الكوماندو السياسي Commando Politico، الذي ضم خوان ليشين، واتحاد نقابات العمال، وتركيبة من الأحزاب اليسارية بمساعدة توريس، بهزيمة مناوئيه من خلال تعبئة العمال والطلاب المسلحين. وطالب الكوماندو السياسي بنصف المقاعد في الحكومة. لكن توريس، بالرغم من أنه بدا مستعداً للموافقة، لم يتمكن من إقناع الجيش بالقبول بذلك. ثم إن الكوماندو السياسي، أقنع توريس بالموافقة على عقد اجتماع لجمعية شعبية مصممة خصيصاً لتمثيل العمال والفلاحين. التأمت الجمعية للمرة الأولى في حزيران/يونيو ١٩٧١، واستلمت القصر التشريعي في لاباز. في غضون ذلك، سيطر اتحاد الفلاحين ومجموعات مختلفة من اليسار على عدد من محطات الإذاعة والصحف، بحيث حازت كل الأحداث

(١) لقراءة ثاقبة لهذه الأحداث، انظر: 'Bolivia: Military Nationalism and the Popular Assembly', by Rene Zavaleta, *New Left Review* 73, May-June 1972. وزافاليتا، الذي كان وزيراً للحركة الوطنية الثورية بعد ثورة ١٩٥٢، أصبح بالتالي واحداً من طليعة المحللين السياسيين في البلاد.

المتعلقة بالجمعية الشعبية، دعايةً كبيرة. كان ذلك بمثابة تطوّر مثير، أكثر تذكيراً بجمعية فرانكفورت في ١٨٤٨ منه بالمجلس السوفياتي في ١٩٠٥، وهو التشبيه الذي اختارته المجموعات اليسارية التي سيطرت على النقاشات.

كانت تركيبة المجلس التي تم التوافق عليها، هي ١٣٢ مندوباً عمالياً، (٦٠ في المئة من المجموع)، ٥٣ مندوباً من مجموعات الأعمال غير العمالية، ٢٣ مندوباً من اتحاد الفلاحين، و١١ مندوباً من الأحزاب اليسارية الأكثر نفوذاً في الكوماندو السياسي، وفي المفاوضات مع تورّيس، إلا أنه لم يمكن طرح الخصومات داخل اليسار جانباً، وحُرم بعض المنظمات اليسارية من التمثيل لأسباب فئوية محض.

لم تدم اجتماعات الدورة الأولى سوى عشرة أيام، إلا أن الجمعية، قبل ارفضاضها، أجرت ترتيبات لدورة ثانية يكون فيها تمثيل أكبر للفلاحين. وأنشئ، خلال هذه الفترة، عدد دائم من اللجان، وأُجريت ترتيبات لإقامة جمعيات شعبية محلّية في محافظات بوليفيا التسع. وبدأت هذه المحافظات بالعمل بشدّة، وبمنازعة قادة الجيش المحليين على السلطة في عدد من المناطق. وكان على الدورة الثانية للجمعية، أن تلتئم في أيلول/ سبتمبر ١٩٧١. لكن، قبل ذلك بكثير، ظهرت دلائل واضحة على أن الجناح اليميني في الجيش يحضّر لانقلاب. وتمكن من الحصول على مساعدة برازيلية كبيرة.

بعد أشهر من الإشاعات عن انقلاب، ودعوات من تورّيس

واليسار إلى اليقظة، تحرك اليمين في شكل حاسم في أواسط آب/أغسطس ١٩٧١. وربما كان أحد العوامل التي دفعت قادته إلى التحرك، هو الحاجة إلى سحق النظام قبل عودة الجمعية الشعبية إلى الانعقاد في الأسبوع الأول من أيلول/سبتمبر، كما كان مقرراً. وفي ١٦ آب/أغسطس، دعت الكتائب الاشتراكية البوليفية اليمينية المتشددة، إلى انتفاضة شعبية ضد الخطر الشيوعي. وفي اليوم التالي، أعلنت القوات المسلحة، التي كانت في حالة استنفار منذ بداية الشهر، أنها أمسكت بمجموعة متآمرين، على وشك القيام بانقلاب، في لقاء سرّي. وفي ١٩ و٢٠ آب/أغسطس، اندلع تمرّد كامل في سانتا كروز: عبأت الكتائب الاشتراكية البوليفية والحركة الوطنية الثورية، متظاهرين للمطالبة بإطلاق اليمينيين الذين سجنتهم الحكومة. وأظهر الجنود هناك معارضتهم المعلنة للنظام في لاباز. ودعا اليمينيون في سانتا كروز إلى انتفاضة عامة، وأعلنوا الكولونيل هوغو بانزر سواريز رئيساً. وانتفضت مجموعات عسكرية يمينية أخرى في أورورو، وهي مركز تنجيم، وفي كوتشابامبا. وفي لاباز، وجه توريس نداءً إلى القوات المسلحة، وإلى جماهير الشعب للدفاع عن الثورة. وأعطي السلاحُ لعمال مناجم من سيغلو فيينتي وكاتافي، وتم تشكيلهم ضمن مجموعات في ميليشيات شعبية أقيمت على عجل.

انتقل القتال في اليوم التالي إلى العاصمة التي أصبحت مسرح الصراع. احتلت وحدات من الميليشيات المؤلفة من عمال المناجم والطلاب، نقاطاً استراتيجية في المدينة، وطوّقت

وحدات من لواء كولورادو الموالي لتورّيس، مقر الجيش في ميرافلورس في وسط المدينة. ودارت أعنف المعارك على حرف جبل لاكايكوتا المشرف على حي ميرافلورس. وبالرغم من أن الميليشيا الشعبية احتلت الحرف قرابة نهاية النهار، فإن اليمين شن هجوماً مضاداً بعد الغسق: أُرسلت سيارات مصفحة تابعة لفرقة تاراباكا إلى حي ميرافلورس من مواقعها في التلال خارج لاباز، بينما تحركت إليه أيضاً وحدات من فرقة لانزاس المتمركزة في حي غواتشي خارج لاباز في تحرك يشبه الكماشة، كان الهدف منه إرجاع الكولورادوس إلى ثكناتهم وتخفيف الضغط على ميرافلورس. وهذا ما حصل. ومع وقوع بقية البلاد، إما في يد بانزر، وإما على الحياد، كان اليسار وتورّيس في موقع الدفاع. وأُجبر الكولورادوس المطوقون على الاستسلام. واحتلت العربات المصفحة والمشاة حصن الطلاب المؤلف من ١٤ طبقة في برج جامعة سان أندريس بعدما أمطرت الطائرات مواقع الطلاب هناك بوابل نيرانها. هرب تورّيس إلى السفارة البيروفية طالباً اللجوء، وأُعلن بانزر رئيساً. وجاءت المقاومة المستمرة الوحيدة من جزء من الحرم الجامعي، حيث قاوم ٣٠٠ طالب طوال أربع وعشرين ساعة أخرى إلى أن أجبرهم القصف المتواصل على الاستسلام.

أبرزت هزيمة مجموعات حرب العصابات في بوليفيا، مخاطر قوة مسلحة غير راسخة كفاية في الجماهير. فتجربة الجمعية الشعبية أوضحت المشكلة الظاهرة. تقلّدت الجمعية

طابعاً جماهيرياً صحيحاً، وأعلنت أن الثورة الاشتراكية هي أمر اليوم، وعرفت أنه على الجماهير أن تقوم بهذه الثورة بنفسها بدلاً من أن تنقاد إلى أي طغمة عسكرية. لكن، تبين أن الانتقال من هذا المفهوم إلى التنظيم المجدي للانتفاضة الشعبية، هو أبعد من متناول الجمعية. بل إن التورّط الأميركي والبرازيلي لعب دوراً مهمّاً، حيث إن البرازيليين ساعدوا المتمردين في سانتا كروز دي لا سييرا لفترة شهر تقريباً. وجرى حديث، في مرحلة ما، عن أن تصبح بوليفيا ـ أو قطعة منها ـ محمية برازيلية.

أمسك الجنرال بانزر ببوليفيا بقبضة من حديد، إلا أن الضغوط أخذت في التصاعد بعد بضع سنوات، وأُجبر على التسليم بإجراء انتخابات في ١٩٧٨. وبرغم ذلك، استمر عدم الاستقرار. وأوجز جيمس دانكرلي بفاعلية الموقف الموحش:

> غرقت بوليفيا، بعد الإطاحة ببانزر، في الفوضى السياسية. فبين تموز/ يوليو ١٩٧٨ وتموز/يوليو ١٩٨٠، أُجري انتخابان عامان آخران، وتولى السلطة خمسة رؤساء (ولم يتولها أي منهم نتيجة الانتصار في التصويت). ومن بين لفيف المجموعات التي كانت تقريباً قيد التحضير الدائم، جرّبت أربع في الممارسة، فشلت فيها واحدة ونجحت الثلاث الأخرى.[١]

وحصلت، في ١٩٨٢، إعادة وجيزة لليسار القديم والاتحادات العمالية، لكنها لم تؤد إلى شيء. وفي ١٩٨٤،

---

(١) *Rebellion in the Veins*, op. cit., chapter 7, pp. 249-344.

وصل المعالج الأميركي بالصدمات، جيفري ساخس، إلى بوليفيا، وساعد على تدشين التجربة الليبرالية الجديدة العظمى، واغتصب رأسُ المال البلادَ:

بعد سبعة عشر عاماً من الأرثوذكسية المالية، بدأ يُنظر باطراد إلى البرنامج الليبرالي الجديد على أنه مجرّد عملية سلب. لم يرتفع الدخل الفردي منذ ١٩٨٦، وأصبحت بوليفيا ثاني دولة في القارة تتمتع بأكبر قدر من عدم المساواة في توزيع المدخول. وحدها البرازيل كانت أكثر سوءاً. وامتلك أعلى ٢٠ في المئة من الشعب، أكثر بثلاثين ضعفاً مما امتلكه أدنى ٢٠ في المئة، وعاش ٦٠ في المئة في الفقر؛ وبلغت الأرقام التسعين في المئة في المناطق الريفية. وزاد معدل البطالة الرسمي ثلاثة أضعاف، بينما ارتفعت نسبة الأناس العاملين في قطاعات غير رسمية، من ٥٨ إلى ٦٨ في المئة، في ١٥ عاماً. وبلغت وفيات الأطفال ٦٠ من ألف ولادة، وكان معدل الحياة المتوقعة ٦٣ سنة، بالمقارنة مع معدلات مجمل القارة، التي هي ٢٨ بالألف و٧٠ سنة على التوالي. وبقيت البنى التحتية بدائية في معظم الأرياف: كان أكثر من ٧٠ في المئة من الطرق غير معبّدة، وربع المنازل فقط في المناطق الريفية يتمتع بالكهرباء.[(١)]

سرعان ما انقلب العالم رأساً على عقب. ربحت الولايات المتحدة الحرب الباردة. وسقط الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية. فاز سالكو طريق الرأسمالية في الصين ومضوا،

(١) Forrest Hylton and Sinclair Thomson, 'The Chequered Rainbow', *New Left Review* 35, September-October 2005.

مستخدمين بُنى الدولة التي أنشأتها الثورة، في برنامج تحديث رأسمالي هزّ الاقتصاد العالمي. وأصبحت الليبرالية الجديدة ـ المحافظة الجديدة التي تدعمها القوة العسكرية الأميركية، بمثابة الأرثوذكسية الجديدة، وأمكن مناصري جمعية جبل بيلوران Mont Pelerin Society الهايكيانيين، أن يحتفلوا عن حق بانتصار أفكار فصّلوها للمرة الأولى في ١٩٤٧، والتي هزئ بها (لكن ليس إلى حد الموت على ما اتضح) الكينزيون، وتجاهلها الاشتراكيون من جميع الاتجاهات.(١)

بدا أن كل شيء قد ضاع. فقد كانت غالبية البوليفيين عالقة تحت ركام النظام الجديد. فلطالما كانوا فقراء. لكن، كان لا يزال يمكنهم في الماضي أن يأملوا. ويبدو الآن أن ذلك قد فُقد. فقد تم دفع عملية وقف التصنيع والخصخصة في القارة ـ البرازيل والأرجنتين تعرضتا لأفدح العواقب ـ بسرعة ثورية عبر التسعينيات. وأخذت أحزاب الطبقة العاملة القديمة والاتحادات العمالية المرتبطة بها، في التساقط. وهي إما اندفعت في برامج ليبرالية جديدة وسرّعت في هبوطها، وإما استسلمت

(١) أُنشئت جمعية جبل بيلوران في نيسان/أبريل ١٩٤٧ لأن القيم الأساسية للحضارة في خطر، وذلك بحسب بيانها التأسيسي. وتضمنت أهدافها: إعادة تحديد وظائف الدولة بحيث يتم التفريق بوضوح أكبر بين النظام التوتاليتاري والنظام الليبرالي؛ وإمكانية إقامة الحد الأدنى من المقاييس بوسائل ليست مناوئة للمبادرة ولوظيفة السوق؛ ووسائل لمحاربة إساءة استخدام التاريخ لإنجاح العقائد المعادية للحرّية؛ ومشكلة إنشاء نظام عالمي يؤدي إلى حماية السلام والحرية ويسمح بإقامة علاقات اقتصادية دولية متناغمة.

ببساطة مع الكثيرين من المفكرين اليساريين، والسياسيين، والمؤيدين للطريق المسلح، المصابين بندوب كبيرة جداً، والذين تصالحوا مع النظام الجديد، والذين يظهرون، في حالات كثيرة، حماسة المترددين الشديدة في الدفاع عن «إجماع واشنطن» والعولمة بوصفهما الطريق الوحيد للتقدم.

حتى قبل أن ينضم خورخي كاتسانييدا إلى حكومة فوكس المؤيدة كلياً لـ «إجماع واشنطن» في المكسيك كوزير للخارجية، أعلن بصراحة متناهية أن الشيء الوحيد الباقي للقتال من أجله، مستقبلٌ هو كناية عن الحاضر، يضاف إليه المزيد من الشيء نفسه...[1] واتضح، بعد عقد من الزمن، أن غالبية المواطنين الأميركيين اللاتينيين يخالفونه الرأي.

بالكاد كان مفاجئاً انهيار اليسار التقليدي والتيارات الوطنية في بوليفيا، الذي أعقب سقوط الشيوعية. فالحركة الوطنية الثورية كانت، منذ وقت طويل، قد غيّرت جلدها، واعتنقت أفكار الأوليغارشية. وكان أقصى اليسار متصدّعاً تنظيمياً، وغير فعال أيديولوجياً. وتحولت السياسات الوطنية إلى تحديد أي من الأحزاب السياسية أو الفصائل الأوليغارشية، يمكنه أن يقوم بأفضل تطبيق لسياسات المصرف المركزي، وهو الآلية التي من

(١) Jorge Castaneda *Beyond Utopia: The State of the Left in Latin America*, 1994.
وهو قد بدأ، بالاشتراك مع روبرتو أنغر وغيره، لكن قبل وقت طويل من أنتوني (أصبح الآن لورداً) جيدنس، في البحث عن طريق ثالث.

خلالها يسيطر «إجماع واشنطن» على الاقتصادات الوطنية. وأمكن مشاهدة العملية نفسها في معظم أنحاء العالم، وقد امتدت إلى كل قارة من القارات. فما الذي يمكنه تعبئة الفراغ؟ من سينبري للشركات العالمية؟ ومن الذي سيتكلم ضدها؟

وكان الشاعر والروائي البوليفي خيمي ساينز (١٩٢١ ـ ١٩٨٦)، الذي أمضى حياته كلها في لاباز، قد كتب في ١٩٧٣ عن العجز الضارب بالمدينة، وبالبلاد امتداداً:

> إذا لم يكن لديك ما تأكله سوى النفايات، فلا تتفوه بكلمة.
>
> وإذا أصابتك النفايات بالمرض، فلا تتفوه بكلمة.
>
> إذا بتروا رجليك، وأحرقوا يديك، وإذا تعفّن لسانك، وانشطر عمودك الفقري نصفين، وإذا انتهت روحك إلى لاشيء، فلا تتفوه بكلمة.
>
> إذا سمموا لك، فلا تتفوه بكلمة. حتى ولو انزلقت أمعاؤك من فمك، ووقف شعر رأسك؛ وحتى لو طفرت عيناك دماً، لا تتفوه بكلمة.
>
> وإذا شعرت بأنك بخير، فلا تشعر بأنك بخير. وإذا تخلّفت، فلا تتخلّف. وإذا متّ، فلا تمت. وإذا كنت حزيناً، فلا تتفوه بكلمة...[1]

ما من قوة كانت حاضرة وحدها، إلا أن مصالح المحرومين أخذت في الاندماج تدريجاً. سيأخذون في التحدث بكلمات

(١) Jaime Saenz, *Immanent Visitor: Selected Poems*, tr. Kent Johnson and Forrest Gander, Berkeley and Los Angeles, 2002.

كثيرة. وإذا لم يستمع إليهم أحد فسيفعلون المزيد. مع مقلب الألفية، كانت الصراعات الأنديزية ضد الخصخصة (المياه في كوتشابامبا، والكهرباء في كوزكو) أكثر تقدماً بكثير من أي مكان آخر في العالم. نشبت حرب المياه La Guerra del Agua غداة مقتل فيكتور هوغو داز، ابن الأعوام السبعة عشر الذي أطلق عليه الجيش النار وأصاب منه مقتلاً في نيسان/أبريل ٢٠٠٠، لاشتراكه في مظاهرة في كوتشابامبا احتجاجاً على زيادة تعرفات المياه. وبينما كانت جثته ممددة في الساحة الرئيسية للمدينة، انتحب الكثيرون لرؤيتهم ثقوب الرصاصات التي شوهت وجهه، لكنها لم تتمكن من إخفاء النبل والبراءة اللذين ينضح بهما تحول الكرب إلى غضب. سبق للحكومة وأعلنت الأحكام العرفية، لكن لن يتم إسكات كوتشابامبا التي انتفضت لأنها تشعر بالظلم بسبب عدم الاكتراث من قبل السلطات لمعاناتها، وتركها من دون حل مشكلتها في نقص المياه. فمليون شخص يسكنون هذه المدينة الأنديزية القديمة، بدا أن معظمهم نزلوا إلى الشارع. وها أن المتظاهرين يحتلون الساحة التي تتمدد فيها جثة الشاب المذبوح. أُوقف زعماؤهم واقتيدوا إلى سجون بعيدة في الأمازون، لكن الحركة استمرت. وصاحت امرأة: «نحن الأمازون. لا يمكنهم وقف تدفقنا». وكانت على حق. فقد طالب محاربو المياه بوقف الخصخصة. وكان ائتلاف الشركات الذي يسيطر على مياه بوليفيا تهيمن عليه شركتان أميركيتان معروفتان جيداً، هما بكتل وإنرون (قبل نهايتها). وعملت هاتان الشركتان على اعتبار قيام الفقراء بتجميع مياه المطر عملاً غير مشروع، معطيتين الحق الحصري

للقيام بذلك لوكيل محلّي لبكتل، يدعى أغوا دل توناري Agua del Tunari. وها أن الجميع ـ سكان المدن والمزارعين ـ أصبح متورطاً في هذا الصراع. وكان أوسكار أوليفيرا، أحد أكثر الزعماء الذين يحظون بالاحترام، إسكافياً. هذه هي الديموقراطية من أسفل التي تخشاها نخبة الليبرالية الجديدة في كل مكان. وشكل تمرّد كوتشابامبا، على غرار «الكاراكازو» في فنزويلا، بداية نهاية النخبة السياسية. وعلى عكس «الكاراكازو»، حقق شعب كوتشابامبا نصراً ذا شأن. أُخرجت شركة بكتل من المدينة، وتولّى المجلس البلدي مرة أخرى عملية الإمداد بالمياه، وأجيز قانون جديد للمياه يقضي بإعطاء الأولوية لحاجات الشعب ضد حقوق اتحاد الشركات. وحددت جيوش الشعب حقها في المياه بوصفها حقاً إنسانياً، وتخلت عن خوفها من السلطة، وانتصرت في صراعها ضد الخصخصة. ولم يكن لموراليس أن يربح من دون دعم حركات اجتماعية من هذا النوع.

سبقت الغرائز السياسية وتحركات الجماهير البوليفية والبيروفية، بعقود من الزمن، حركات الاتحادات العمالية الأوروبية أو اليابانية التي استسلمت بعد تعرضها للهزائم، أو في الغالب من دون الخوض في صراع مضطرد. وبات المزاج السياسي في بوليفيا على وشك التغيّر. فتأثير الكوتشابامبا والتهديدات بمزيد من التمرد، أحبطت عمليات تخصيص المياه والغاز منذ هزيمة بكتل. وها أنهم سيخطون الآن خطوة إضافية، ويهدفون إلى الولوج إلى السلطة. وعندما التقيت، لفترة وجيزة،

إيفو موراليس في كاراكاس في نيسان/أبريل ٢٠٠٣، كان يتقد ثقة بالنفس. وشرح بهدوء، كيف أن الأوضاع في بوليفيا غير مقبولة من قبل غالبية المواطنين، وتنبأ بأن شيئاً ما قد تغيّر، وعلى وشك التغير. وبما أن الشعب يعرف ماذا يريد، فالنخبة هي التي ستضطر إلى تقديم تنازلات كبيرة، أو تطيح بها ثورة شعبية. وهي لن تقوم بالأمر الأول، لأن السفارة الأميركية في لاباز، التي كانت تدير العملية كلها تقريباً، منعت بصريح العبارة أي تنازلات. وتضاحك موراليس عند هذا الحد. وكان تفاؤله معدياً.

في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، أطلقت مجموعات الآيمارا من السكان الأصليين، حركة جماهيرية، ما لبثت أن عمت البلاد بأسرها. سبب غضبهم كان قراراً من محظي «إجماع واشنطن»، الرئيس غونزالو سانشيز دي لوزادا، تخصيصَ مصادر الطاقة في البلاد. ورد سانشيز دو لوزادا على الاحتجاجات الجماهيرية بأسلوب تم الثناء عليه من «إجماع واشنطن»، بشن حرب ضد شعبه، تماماً كما فعل كارلوس أندريس بيريز في كاراكاس في ١٩٨٩. نُشرت القوات والدبابات للدفاع عن «قيم» جبل بيلوران، ولسحق الاحتجاجات. وقُتل العشرات من المتظاهرين وجرح المئات.[١] كانت لحظة حرجة للطرفين. أراد الفقراء في الشارع عرضاً للقوة. ومضى سانشير دو لوزادا (مدعوماً من السفارة

---

(١) بحسب أمنستي بلغ عدد القتلى ٥٩. راجع: (http://web.amnesty.org/report2004/bol-summary-eng).

الأميركية) في اختبار للقوة. فاز في المناوشات، لكنه خسر الحرب. زاد حجم المعارضة ثلاثة أضعاف، ونزلت إلى الشوارع. مرة أخرى، تلاشى الخوف. وسقط سانشيز دو لوزادا. ومضى الضجيج إلى أن بلغ مسامع واشنطن:

في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر، شقت الجماهير الكثيفة طريقها عبر الطرقات المؤدية إلى وسط العاصمة لاحتلال ساحة سان فرانسيسكو في قلب لاباز، العاصمة السياسية للجمهورية البوليفية. كان المتظاهرون أعضاء في الاتحادات الشعبية للأحياء من إل ألتو، وهي مدينة يقطنها أكثر من ٨٠٠ ألف وتقع على الحرف الأعلى للاباز، و٧٤ في المئة من سكانها يطالبون بهوية السكان الأصليين الآيمارا؛ وأعضاء في اتحادات الأحياء ذات الكثافة الآيمارية في تلال مونايباتا، وفيللا فيكتوريا، وفيللا فاتيما؛ ونساء الأسواق التابعات لاتحادات نقابات المدن؛ وطلاباً وشباناً عاطلين عن العمل؛ وعمال مناجم من هوانوني، وتقع جنوب مدينة أورورو؛ وزارعي الكوكا ومستوطنين فلاحين من وديان يونغاس شبه الاستوائية شمال شرق لاباز؛ وأعضاء من مجموعات فلاحي الآيمارا من الهضبة العليا، بقيادة مقاطعة أتشاكاتشي المتمردة. وتراوحت أعدادهم بين ٢٥٠ ألفاً و٥٠٠ ألف، ما يجعل ذلك أكبر مظاهرة تشهدها بوليفيا منذ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٢ عندما أنهت قوات المعارضة حقبة طويلة من الديكتاتورية العسكرية (١٩٦٤ ـ ١٩٨٢)، ودشنت حقبة الديموقراطية التمثيلية، وجاءت بالاتحاد الديموقراطي الشعبي، ضمن حكومة ائتلاف يسار الوسط، إلى السلطة.

لكن ذلك كان مغايراً لحشود سابقة. ففي ١٩٨٢، نظمّت الأحزاب السياسية اليسارية والاتحاد العمالي البوليفي الذي كان لا يزال قوياً، المظاهرات المعبّرة عن القوى التقدمية الوطنية ـ الشعبية التي جمعت منشقّي الطبقة المتوسطة، بمن فيهم الطلاب والمثقفون وأصحاب المهن، بالإضافة إلى عمال المناجم والقطاعات المدنية والفلاحين. وفي ٢٠٠٣، لم تقم أحزاب المعارضة، ولا الاتحادات العمالية، بترؤس التجمع الغفير، أو بتوفير تمثيل سياسي مماثل إبان الانتفاضة التي أدت إليه. كان حضور الطلاب والمفكرين وأصحاب المهن التقدميين من الخلاسيين (Mestizo) ومن ذوي الأصل الأوروبي في الطبقة المتوسطة قليلاً، بينما زخرت الشوارع بصفوف الفلاحين الريفيين والمدنيين المتحدرين من الآيمارا.

عكست الملامح المميزة للاحتجاج المدني الضخم في ١٧ تشرين الأول/اكتوبر ـ التنظيم الذاتي لأولئك الذين احتلوا المدينة ومظهرهم المحلي الكبير ـ الدينامية التمرّدية الشاملة التي أدت إلى سقوط الرئيس سانشيز دو لوزادا في ذلك اليوم بالذات. ومن أوجه مهمة، كان هذا تمرداً للآيمارا لا قائد له متجذراً في تاريخ من النضال الهندي الجماعي يعود إلى أكثر من قرنين، إلى زمن الثورة الأنديزية في ١٧٨٠ ـ ١٧٨١. وبرغم ذلك، وبالرغم من الفوارق بين ١٩٨٢ و٢٠٠٣، وجدت أيضاً تشابها مهماً بين أيام تشرين الأول/أكتوبر والانتفاضات الشعبية السابقة والعمليات الثورية في تاريخ بوليفيا الحديث... فهي تتشارك في أجندة مركزية تقضي بإزالة سريعة لنظام سياسي غير تمثيلي وقمعي، وإقامة سيطرة سيادية على الموارد

الطبيعية، وعقد جمعية دستورية لإعادة هيكلة الحياة السياسية والاقتصادية الوطنية.(١)

بعد ذلك بأسبوع، في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر، طار إيفو موراليس إلى مدينة مكسيكو لحضور مؤتمر لمفكرين يساريين وناشطين، ولشرح ما جرى. وتحدث عن فشل الرأسمالية في توفير حاجات الفقراء، وعن الوحشية الامبريالية التي شجعت مرزبانتها على استخدام القوة لسحق الذين يعارضون سياساتها، وطالب بمؤسسات جديدة يمكنها أن تمثّل حاجات الأغلبية وتعكسها.(٢)

في غضون سنتين، وتحديداً في الانتخابات البوليفية العامة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥، انتُخب إيفو موراليس ورفيقه ألفارو غارسيا لينيرا، وهو مفكر ماركسي طليعي، رئيساً ونائباً لرئيس بوليفيا على التوالي؛ وفاز حزبهما، الحركة نحو الاشتراكية، بغالبية كبيرة من المقاعد في مجلس النواب. وفي أول تحرك علني له بعد انتصاره، سافر موراليس إلى هافانا حيث استُقبل استقبال الأبطال، وأعقبت ذلك حصة دراسية طويلة مع فيدل كاسترو حول السلطة. وفي طريق عودته توقف أيضاً في

(١) Forrest Hylton and Sinclair Thomson, *Revolutionary Horizons: Indigenous and National-Popular Politics in Bolivia*, (forthcoming), London and New York, 2007. See also: Forrest Hylton, 'Evocative account on the Morales triumph in The Landslide in Bolivia', *New Left Review* 37, January-February 2006, pp. 69-72.

(٢) للنص الكامل للخطاب، انظر: الملحق «هـ».

محطة أخرى: كاراكاس. وهنا أيضاً استقبله هوغو شافيز بحرارة، وقد سُرّ سروراً عظيماً. وها أنه توجد الآن ثلاث حكومات في القارة ملتزمة فكرة الاتحاد البوليفاري.

وتعهد موراليس، في أيامه المئة الأولى في السلطة، أن الحكومة الجديدة لن تخون مؤيديها، وستتولى السيطرة على موارد البلاد من الطاقة للمساعدة على تمويل نموها الاجتماعي. وسُمع هدير فورة الغضب في واشنطن، وفي عدد من عواصم الاتحاد الأوروبي. فـ «إجماع واشنطن» لا ينظر بعطف إلى مثل هذه الراديكالية، ويعامل كدول منبوذة الحركاتِ التي تبلغ حداً من «الجنون»، بحيث تعد بإصلاحات اجتماعية جدية لمساعدة الفقراء، ومن ثم تحاول أن تطبق برنامجها عندما يتم انتخابها. وهو ما لا يُفترض بالديموقراطية أن تكون عليه هذه الأيام. لماذا لا يمكن موراليس أن يكون مثل لولا؟ أصبح ذلك لازمة شعبية لدى وسائل الإعلام الأطلسية. في الأعوام الأولى من القرن الماضي، أصبحت الاتحادات العمالية التي يُنشئها أرباب العمل تُعرف باتحادات الشركة. وفي القرن الواحد والعشرين، أصبحت أحزاب الاتجاه السائد متحدة باطراد في كيان واحد، وأصبحت صحافة الشركة هي المقياس. إيفو موراليس يميل صوب «شافيزمو» [اختصار شافيز وموراليس ـ المترجم]، كان العنوان القلِق لـ «فاينشال تايمز»، إذ اتضح ان موراليس مصمم على تطبيق برنامجه.

أصبح الفلاحون البوليفيون وسكان المدن شبه الموظفين، ليس للمرة الأولى، لاعبين أساسيين في تاريخ بلادهم وطبقتهم.

فدعوة مجلس تشريعي منتخب إلى إقرار دستور جديد، تعطيهم إمكانية الاحتفاظ بالسيطرة على مستقبلهم ومستقبل أولادهم. ويعرف زعماؤهم تمام المعرفة، أن الرهانات كبيرة، وأن القوة الغاشمة قد تُستخدم ضدهم؛ والأهم من ذلك، فهم يدركون أنهم مرتبطون موضوعياً ببقية القارة، وسياسياً بالبوليفاريين والكوبيين. ولا يمكن هذا إلا أن يقوي فقط المشروع ككل.

وكما في حالة فنزويلا، ما يتم اقتراحه في بوليفيا ليس ثورة على الطريقة الكوبية، بل نوع من الديموقراطية الاجتماعية الراديكالية، مرفوضة اليوم من «إجماع واشنطن» ومؤسساته. لكن على الإصلاحات، لتنجح، أن تكون بنيوية ومندمجة بالنظام الجديد. وما أدركه كاسترو، وشافيز، وموراليس، هو أن القوة تنبع من الوحدة. ولهذا السبب، فإن الكلام على اتحاد بوليفاري، يمكنه الدفاع عن المصالح المشتركة لأميركا اللاتينية، ليس خطابة أو عربدات. إنه محاولة لتحقيق حلم بوليفار بأميركا جنوبية موحدة بشروط اليوم. وما يثير الاهتمام هو أن انتهاء الحرب الباردة وإقامة «إجماع واشنطن» جامد وأصولي، هما اللذان خلقا الظروف الموضوعية لقيام اتحاد إقليمي للدفاع عن مصالح أميركا الجنوبية ضد الشمال. والانتصار في بوليفيا قوّى الكتلة المعادية للامبريالية. وفاز «إجماع واشنطن» في البيرو المجاورة، لكن حتى هنا، لم تنته القصة بعدُ. فسوف يكون للتغييرات البنيوية في بوليفيا وقعها على الصحوة العامة في الجانب الآخر من بحيرة تيتيكاكا. ومن المفيد استكشاف كل الطرق الأنديزية التي تتحول في عكس اتجاه الطريق الليبرالي

الجديد العام، وضده. وهناك طريق طويل يجب سلوكه في بوليفيا نفسها. فقد فاز إيفو موراليس ورفاقه بالدعوى وبالرئاسة، لكن النخبة، على عكس أنسبائها الفنزويليين، لا تشعر بعدُ بأنها فقدت معنوياتها وسُحقت. ويحلم ذوو الأصل الأوروبي في سانتا كروز باندفاعة معاكسة تدعمها الولايات المتحدة، وباستقلال ممكن. وسانتا كروز هي الدائرة الوحيدة التي لم تفز فيها الحركة نحو الاشتراكية، برغم أنها حتى هنا حصلت على ٣٣ في المئة من الأصوات مقابل ٤٢ في المئة فاز بها اليمين. ومن الحيوي أن يتم فصل النخبة عن قاعدتها من خلال مجموعة من الإجراءات الشاملة التي تفيد معظم السكان. وهناك معارك سياسية مهمة في الانتظار.

الفصل الخامس

الختيار والثورة
ملاحظات من مفكّرة هافانا

عندما أشاهد نفسي وألمسها
أنا، خوان الذي لم يكن يملك شيئاً بالأمس،
وخوان الذي يملك كل شيء اليوم،
واليوم معي كل شيء،
أدير عينيّ وأنظر،
أرى نفسي وألمسها،
وأسأل نفسي، كيف أمكن هذا أن يحصل.

لدي، لنرَ.
لدي اللذة في الانصراف إلى بلدي،
مالكاً كلَّ ما فيها،
ناظراً عن كثب إلى ما لم أكن،
أو لم يكن في وسعي أن أملكه من قبل.
يمكنني أن أقول قصبة،

يمكنني أن أقول جبلاً،
يمكنني أن أقول مدينة،
أقول جيشاً،
ها هي كلها للأبد لي، ولكم... لنا،
وبهاء شعاع الشمس، والنجمة، والزهرة.

لدي، لنرَ.
لدي اللذة في المضيّ،
أنا، المزارع، العامل، الرجل البسيط،
لدي اللذة في المضي (مجرّد مثال)
إلى مصرف والتحدث إلى المدير،
ليس بالإنكليزية،
ليس بكلمة «سير» (سيّد بالإنكليزية)
بل بكلمة «كومبانييرو»، كما نقول بالإسبانية.

لدي، لنرَ.
إن كوني أسودَ
لا يمكن أحداً أن يوقفني عند باب قاعة مرقص أو بار.
أو حتى في فندق ما،
يصرخ بوجهي أن ليس من غرف شاغرة،
غرفة صغيرة، وليس واحدة فارهة الأثاث،
غرفة صغيرة جداً حيث يمكنني الراحة.

لدي، لنرَ.
أن ليس هناك شرطة شوارع
لاعتقالي وحبسي في زنزانة سجن،
او انتزاعي من أرضي وطرحي وسط الطريق الرئيسي.

لدي أن امتلاك الأرض يعني امتلاكي البحرَ،
لا نوادي ريفية،
لا حياة وثيرة،
لا كرة مضرب ولا يخوت،
بل أهرول من شاطئ إلى شاطئ، ومن موجة فوق موجة،
الأزرق الديموقراطي المفتوح الجبار:
إنه البحر، باختصار.

لدي، لنرَ.
أنني تعلمت أن أقرأ،
أن أحصي،
لديّ أنني تعلّمت أن أكتب،
وأن أفكّر،
وأن أضحك.
لدي... أنه لدي الآن
مكان أعمل فيه
وأكسب ما عليّ ان أقتات به.

لدي، لنرَ،

لدي ما يجب أن يكون لديّ.

نيكولاس غويّين (١٩٠٢ ـ ١٩٨٩)، «لديّ» (١٩٦٤)

Nicholas Guillen (1989-1902), I Have

٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الشيء الأول الذي يلفت نظر الواصل إلى هافانا، من أي مكان في العالم تقريباً، هو غياب ناطحات السحاب البشعة ولوحات الإعلانات العملاقة المسوِّقة للمنتجات العالمية. هذا أمر ممتع. وآمل أن «ماليكون»، مهما يحصل في المستقبل، لن تدمّرها الهندسة الساحلية العالمية التي تتنكّر بثوب الحداثة في أماكن كثيرة من العالم، وليس أقلها في أميركا الجنوبية. كنتُ انتهيت، على متن الرحلة الطويلة من لندن، من قراءة تاريخ كوبا الجديد المحرّك والمثقّف لريتشارد غوت. أحيا الكتاب فيَّ الكثيرَ من الذكريات، لكنه أثار أيضاً بعض الأسئلة المزعجة.[١] هذه رحلتي الأولى إلى الجزيرة، وهو واقع أثار دهشة الكثيرين، بمن فيهم أنا نفسي.

لا تزال كوبا هنا بالرغم من محاولات الامبراطورية الأميركية وحلفائها الجدد في أوروبا الشرقية، خنقها. وهذا أمر طيّب. ليس لأنها دولة مثالية، أو جنّة، أو أي شيء يشبه ذلك من بعيد، بل لأنها، بالرغم من كل شيء، أفضل مما قد يتم

(١) Richard Gott, *Cuba: A New History*, New Haven and London, 2004.

استبدالها به، لو أن ميامي تحركت عائدة إلى سلطة كوبا. نعرف، لأننا كنا هنا من قبلُ، وقد أصدرت هوليوود تحذيراً صحيّاً: لقد زوّدنا فرانسيس فورد كوبولا ببعض الذكريات في «العرّاب ـ ٢»: صور عن هافانا ١٩٥٩ بوصفها ماخوراً تعيث فيه المافيا، وزعماء المافيا يهربون من البلاد مع فولجنسيو باتيستا، بينما الثورة تقترب أكثر وأكثر من العاصمة. وسيعود وارثوهم في حال سقوط كوبا، وستكون تلك مأساة لمعظم الكوبيين.

لا تزال شرعية النظام تنبثق من تلك الثورة، من بين واحد من أهم أحداث القرن العشرين بالنسبة إلى الأميركيين اللاتينيين، من كل الألوان والأطياف. فقد أثّرت هذه الثورة في سياسات كل من اليمين واليسار في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية. ولا تزال الأسئلة تُطرح عما إذا كان منفيون كوبيون مستاؤون، قد تورطوا في اغتيال (الرئيس الأميركي الأسبق) جون كنيدي. فقد رفض، بعد كارثة خليج الخنازير، السماح بهجوم واسع النطاق. ومن يومها، حرص كل رئيس أميركي على مواصلة حصار الجزيرة. ومكثت تواريخ العلاقات بين العملاق الأميركي الشمالي ومناوئه الكوبي الصغير، كلَّ عام في تسجيل كيف أن العلاقات الأميركية ـ الكوبية استمرت في التدهور خلال (. . .). ويمكن المرء هنا أن يملأ الفراغ بجملة: طوال أعوام ما بعد ١٩٥٩.

أحدثت الثورة الكوبية أثراً كبيراً في كل تيار يساري في القارة. وفي استرجاع للأحداث يستذكر المرء فيه وقعها على

اشتراكية سلفادور آلاندي، والصراحة التي تكلّم بها عليها مع أحد محاوريه: فلقاؤه مع غيفارا كان محرّكاً للنفس. كيف كان لهما أن يعرفا أن كلاً منهما، في غضون سنيّ افتراقهما عن بعضهما البعض، سيُعدم على أيدي ضباط يعملون بتوجيهات امبريالية، وسيتم التفجّع عليهما في أكثر من قارة:

دوبريه: الرفيق الرئيس، كنت واحداً من أوائل السياسيين في الوصول إلى كوبا بعد الانتصار؟

آلاندي: نعم... وصلت وكان تشي هناك... كان مستلقياً على المضجعة المعلّقة عارياً حتى الوسط، وعندما وصلت كان يعاني بسبب نوبة ربو عنيفة. كان يستخدم جهاز استنشاق. جلست على السرير، وقلت له وأنا أنتظر أن يتعافى: كوماندانتي (أيها القائد)... لكنه قاطعني قائلاً: انظر، أياندي، أعلم جيداً من أنت. استمعت إلى خطبتين من خطاباتك إبان الحملة الرئاسية في ١٩٥٢؛ إحداهما كانت عظيمة، والأخرى سيئة إلى حد كبير. يمكننا أن نتحدث بثقة تامة لأن لدي رأياً واضحاً في من تكون... تناولنا العشاء، ثم مضينا إلى غرفة مع فيدل للتحدث. كان هناك فلاحون يلعبون الشطرنج والورق، مستلقين على الأرض، بأسلحتهم الرشاشة وغيرها...

دوبريه: كنت تتحدث عن فيدل. كيف أصبحتما صديقين؟

آلاندي: من اللحظة الأولى في الواقع. لقد أُعجبت كثيراً بذكائه وحكمته وبصراحته: ظاهرة تفوق العقل، تأخذ كل شيء في طريقها، أشبه بشلال إنساني.

دوبريه: ألا توجد بينكما خلافات في الرأي؟

آلاندي: نعم، أساسية وعنيفة.

دوبريه: لكن، صريحة دائماً.

آلاندي: دائماً.

دوبريه: كيف كانت ردة فعل فيدل عندما سمع بانتصار الاتحاد الشعبي في تشيلي؟

آلاندي: أرسل إلي نسخة عن «غرانما»، الصحيفة الرسمية للثورة الكوبية، كانت تحتوي على أخبار فوزنا الانتخابي تتصدر صفحتها الأولى. قبع في مكاتب الصحيفة ينتظر الأخبار من تشيلي، وأرسل بتهانيه على الصفحة الأولى، معلناً أن انتصارنا كان انتصاراً على الامبريالية. وقد وقّعها، وجعل الذين حوله يوقعونها أيضاً. وأنا أحتفظ بها تذكاراً.(١)

تسلّق كاسترو وغيفارا العمل السياسي، بعد زاباتا، وتطوّعا لمواجهة المشروع الأميركي وإعطاء أميركا اللاتينية استقلالها، كان زاباتا سبقهما بفترة إلى هذا العمل. ولهذا السبب كان وقعهما كبيراً على القارة ككل. لكنهما، وليس هذا خطأهما، لم يبلغا قط العظمة الملحمية لبوليفار وسان مارتين. أراد فيدل وتشي اعتلاء مثل هذه الإنجازات الشامخة، وكان حلم الرجلين بحجم القارات (لا يزال كاسترو يحلم بذلك)، لكن الامبراطورية التي حارباها في القرن الماضي كانت في ارتقاء، على عكس

(١) Regis Debray, 'Conversation with Allende', *New Left Books*, 1971.

إسبانيا القديمة الهرمة.[1] إلا أن القرن الحادي والعشرين قد يكون مختلفاً. فقد كان مطلعه لصالح طموحات شعوب أميركا الجنوبية. جلب التغيير في كاراكاس، مساعدةً كانت الحاجة إليها كبيرة وملحة. ومعروف عن الختيار أنه يصبح ضيّق الصدر كلما زاره صحافي أجنبي رافعاً العبارة المبتذلة: مَن بعد فيدل؟ وهو يردّ الآن: بعد فيدل، شافيز. وبعد شافيز، موراليس. وبعد موراليس، ستُخرج قارتنا قادة آخرين يتولون عصا السلطة.

فزعماء الثورة، منذ بدايتها، يشددون على الطابع القاري للصراع. عندما قرأ أحدهم إعلان هافانا الثاني (١٩٦٢)، كانت هناك حملة حقيقية، ودعوة غاضبة إلى حمل السلاح لا تزال تدوي:

> أوَليس تاريخ كوبا إلا تاريخ أميركا اللاتينية نفسها؟ أوليس تاريخ أميركا اللاتينية إلا صورة مجسدة لتاريخ آسيا، وأفريقيا، وأوقيانيا؟ أوَليس تاريخ كل هذه الشعوب إلا تاريخ الاستغلال الامبريالي الأكثر بطشاً للعالم؟

مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحادي والعشرين، قسّمت حفنة من البلدان المتطورة اقتصادياً وعسكرياً العالم في ما بينها، مخضعة ثلثي شعوب العالم لسيطرتها الاقتصادية

(١) كتب بوليفار في رسالة إلى الحاكم الإسباني رافضاً فيها المزيد من المفاوضات: إنها قمة السخف والإيحاء بأنه على كولومبيا الخضوع لإسبانيا، وهي أسوأ البلدان حكماً، وهي الآن الأضحوكة المبتذلة لأوروبا، والفظاعة لاميركا...

والسياسية. أُجبرت الدول والشعوب على العمل للفئات المهيمِنة في مجموعة الأمم التي امتلكت اقتصاداً رأسمالياً متطوراً.

الظروف التاريخية التي سمحت لبعض بلدان أوروبا وللولايات المتحدة في أميركا الشمالية، بالوصول إلى تطوّر صناعي عال، وضعتها في مركز مكّنها من إخضاع بقية العالم واستغلاله.

لكن، ما هي الدوافع التي تقف وراء توسع القوى الصناعية هذا؟ هل هي أخلاقية، وأسباب تحضّرية، كما تزعم؟ كلا، بل كانت دوافعها اقتصادية.

بعث اكتشاف أميركا، بالفاتحين الأوروبيين عبر البحار، إلى احتلال أراضي القارات الأخرى واستغلالها وإخضاع شعوبها. فقد تم اكتشاف أميركا إبان البحث عن طرق أقصر إلى الشرق الذي كانت أوروبا تثمّن كثيراً منتجاته. ونشأت طبقة اجتماعية جديدة ـ التجار ومنتجو السلع المصنعة للتجارة ـ من المجتمع الإقطاعي للأسياد والعبيد في الجزء الثاني من القرون الوسطى.

عملت شهوة الذهب على إنجاح جهود الطبقة الجديدة. وكانت شهوة الربح هي الدافع وراء سلوكها في خلال تاريخها. وبتطور الصناعة والتجارة، تنامى نفوذ الطبقة الجديدة. واشتبكت باضطراد القوى المنتجة الناضجة في وسط مجتمع إقطاعي مع الإقطاعية وعبوديتها، وقوانينها، ومؤسساتها، وفلسفتها، وأخلاقياتها، وفنها، وأيديولوجيتها السياسية.

وها أن الدول الأميركية اللاتينية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تصبح مفقَرة باطراد. وسقطت قيمة مدخول الفرد فيها. ولم تتناقص النِّسَب المريعة لوفيات الأطفال، وارتفعت كثيراً أعداد الأميين، وافتقر الناس إلى الوظائف، والأرض، والسكن الملائم، والمدارس، والمستشفيات، ونظم الاتصال، ووسائل المعيشة. وفي الجانب الآخر، فاقت الاستثمارات الأميركية الشمالية العشرة مليارات دولار. وفضلاً عن ذلك، فإن أميركا اللاتينية تورّد المواد الأولية الرخيصة، وتدفع أثماناً عالية للسلع المصنّعة. وكما أن الفاتحين الإسبان الأوائل تبادلوا مع الهنود المرايا والزينة الرخيصة في مقابل الفضة والذهب، هكذا تتاجر الولايات المتحدة وتتعامل مع أميركا اللاتينية اليوم. ولذا، فإن الإمساك بهذا الفيض من الثروة، والاحتفاظ الأكبر بموارد أميركا، واستغلال شعوبها التي طالت معاناتها، هي الأهداف المضمرة الحقيقية التي تُخفيها الأحلاف والبعثات العسكرية، وأعمال اللوبي الدبلوماسي الأميركية.

وحيثما أُقفلت السبل أمام الناس، ومتى استشرس قمع العمال والفلاحين، وحيثما تكن سيطرة احتكارات اليانكي هي الأقوى، فإن الدرس الأول والأهم، هو إدراك أنه ليس عادلاً ولا صحيحاً إلهاء الناس بالوهم الباطل والخيالي بأنه يمكن اقتلاع الطبقات المهيمِنة بالوسائل الشرعية، التي ليست، ولن تكون موجودة. فالطبقات الحاكمة متحصّنة في كل مواقع السلطة في الدولة. فهي تحتكر قطاع التعليم، وتسيطر على جميع وسائل الاتصال الجماهيري. وهي تملك موارد مالية لا تحصى.

وسلطتها واسعة الصلاحيات، وسوف تدافع عنها الاحتكارات والقلة من الحاكمين بالدم والنار بقوة شرطتهم وجيوشهم.[١]

وهذا يختلف قليلاً عن الكلام السائغ بأنه من الممكن وجود عالم آخر، وهو شعار أصبح عبارة مبتذلة، ويثير الكثير من الحنق عندما يتفوه به بيروقراطيو المنظمات غير الحكومية الذين لا يرغبون كثيراً في تغيير أي شيء، ما عدا شققهم السكنية.

والسؤال الحقيقي هو «ماذا بعد فيدل؟»، أو لوضعه بصيغة أخرى: هل للانتصار البوليفاري في فنزويلا مفعول الفياغرا وحسب على ثورة كوبية متقادمة في العمر، أم أنه سيساعد على الإصلاح والبناء على الأساسات الموجودة، بحيث يمكن تجاوز النداءات الاختيارية وتطوير مؤسسات جديدة للمضي بالعملية قُدُماً؟ وكلما سافرتُ، وكلما التقيت المزيد من الناس، أشعر بأنه لا يجب ترك كوبا تحت الرحمة الموجعة لفرق التدمير المنتظِرة بصبر في ميامي. سيكون ذلك بمثابة هزيمة للقارة كلها. قد لا تكون ميامي على ما كانت عليه منذ بضعة عقود، محتوية، كما هي الآن، على الكثيرين من المهاجرين الاقتصاديين من كوبا. لكن أوكار الفاشيين الكوبيين لا تزال نشطة. والحقد ليس كلمة تم استخدامها من دون إحكام. لكن، كيف يمكن بغير ذلك تصنيف مضيفي برامج الإذاعة الذين ينشرون الحقد؟ في

(١) Fidel Castro, *The Second Declaration of Havana*, London and New York, 1994.

١٩٩٤، استدرّ نقاش في أحد هذه البرامج، بعض التعليقات حول موضوع: ما العمل مع بقايا الشيوعيين بعد انتصار السوق. وتضمنت ردود المتصلين ملاحظات مثل: أَحرقوهم أحياءً، وافتحوا الأفران، وأَلقوا بهم جميعاً فيها، رجالاً، ونساءً، وأطفالاً. وشكرهم منظم حفلة الترفيه بتهذيب على مساهماتهم.[1]

٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

تمت استضافتي في مؤسسة الكتاب الكوبية، ودُعيت، إلى جانب محاضرة في القاعة الكبرى لجامعة هافانا، إلى المشاركة في حفل تكريم شعبي لجان بول سارتر الذي زار هافانا منذ ٤٥ عاماً. وإحياءً للمناسبة، أعادت المؤسسة للتو طبع «الغثيان»، وهناك معرض مؤثر لصور فوتوغرافية التقطت في ١٩٦٠ لسارتر وسيمون دو بوفوار إبان زيارتهما كوبا. بَدَوَا مرتاحين، وكان وجهاهما ينبضان بالحياة. وبدا أن بعضاً من كؤوس كوكتيل الموخيتوس (Mojitos) مع فيدل كاسترو وتشي غيفارا (الذي بدا أيضاً مبتهجاً)، كان له فعل السحر. لكن وجه سارتر كان مفعماً بالإثارة الثورية المشرقة من الصور. وبعودته إلى باريس، كتب:

---

(١) Ann Louise Bardach, *Cuba Confidential*, New York, 2002.
وبرداخ هي من منتقدي فيدل كاسترو، وهو ما يعطي روايتها عن العصابات القديمة في ميامي بعض الموضوعية.

ما يُفاجئني هنا، أن الاضطرابات بدأت في شكل مفاجئ وغير متوقع. لم ينبئ بها شيء، ولا حتى أقل كارثة منظورة. قبل أربعة أعوام جاء انقلابٌ بباتيستا إلى السلطة. احتج بضعة أناس كانوا استسلموا للديكتاتورية من جراء اشمئزازهم من جمعياتهم الهافتة والفاسدة.

وصدف في ٢٦ تموز/يوليو ١٩٥٣، أن هاجم محام شاب، هو فيدل كاسترو، ثكنة مونكادا مع حفنة من الرفاق. لكنه اعتُقل، وسُجن، وحُوكم. لم يقدم إليه الرأي العام الكثير من الدعم. وسرت تساؤلات حول هوية هذا الثوري، ومن هو هذا المتبجّح؟ هذا طيش من قبلك! وهو لا يُفضي إلى شيء. ولو أن باتيستا غضب فسيرتد ذلك علينا!

وسارعت أحزاب المعارضة إلى لوم هذا الرجل المتهوّر الذي فشل. وتحدث الحزب الشيوعي الكوبي عن ركوب الأخطار. فالحزب الأصيل نفض يديه؛ والحزب الصحيح المعتقد كان أكثر قساوة. فكاسترو كان عضواً فيه عندما قام بمحاولته الانقلابية.

نريد جناحاً يسارياً، قال جميع هؤلاء الرجال الناضجون والمفكرون. إنه يحمل آمال البلاد. والرئيس، من جهته، ومن باب الديماغوجية، يسكت عن ذلك، بهدف إقناع أميركا بوجود حرية تعبير في كوبا، بشرط ألا يحرّك ولا حتى خنصراً واحداً. حسناً! دعونا لا نفعلْ شيئاً عدا وجودنا هنا. الوقت يعمل لصالحنا! لكننا لا نريد فتى مستخفّاً بالعواقب، يغامر بكسر هذا التوازن من خلال عمل متهوّر...

كان أسياد الجزيرة الكوبيون، طغاة يسيئون الظن بالمعرفة لأنها تؤدي إلى الفتنة. كانت حالة التعليم العالي رثّة عن سابق تصوّر وتصميم.

وحاولوا، من أجل حماية تخلّف الاقتصاد الكوبي، أن يُنتجوا في كوبا رجالاً متخلفين وحسب...»[1]

وعلى غرار غارسيا ماركيز وغيره، سيثور غضبه، لاحقاً في ١٩٧١، حول المعاملة التي تلقاها الشاعر المثلي الجنس، إربرتو باديّا، ووقع رسالة مفتوحة. إلا أن الموقعين انقسموا أكثر لاحقاً بين أولئك الذي بقوا داعمين، ومنتقدين في الوقت نفسه، وأولئك الذين كانوا يتجهون بالفعل إلى مراع أكثر عفونة، واستخدموا باديّا بوصفه القشة التي قصمت ظهر البعير.[2]

---

(١) *Sartre on Cuba*, London, 1961.

(٢) في رسالة مفتوحة إلى فيدل كاسترو، من آلان جوفروا، ألبرتو مورافيا، أندري بيان دو مانديارغ، كارلوس فرانكي، كارلوس فوينتس، كلود روي، ديونيس ماسكولو، فرانشيسكو روسي، غابريال غارسيا ماركيز، هانز ماغنوس إنزنسبرغر، إيتالو كالفينو، جان دانيال، جان بول سارتر، خورخي سيمرون، خوسي ماريا كاستيّيت، خوان غويتيسولو، خوليو كورتازار، لويس غويتيسولو، مارغريت دورا، ماريو فارغاس يوسا، موريس نادو، أوكتافيو باز، روسانا روساندا، سيمون دو بوفوار: أُوقف إربرتو باديّا، وهو أحد طلائع شعراء كوبا، وسُجن في هافانا في ٢٠ آذار/مارس. ولم تعلن حتى الآن أي تهم موجهة إليه. وهذه الرسالة المفتوحة إلى فيدل كاسترو من مؤلفين أوروبيين وأميركيين لاتينيين بارزين نُشرت في «لو موند» في ٩ نيسان/أبريل ١٩٧١. والموقعون عليها، المؤيدون لمبادئ الثورة الكوبية وأهدافها، يتوجهونَ إليك للتعبير عن قلقهم من جراء سجن الشاعر والكاتب إربرتو باديّا، ويسألونك إعادة النظر في الوضع الذي أثاره هذا التوقيف.
وبما أن الحكومة الكوبية لم توفّر بعدُ، حتى تاريخه، أي معلومات عن هذا التوقيف، فإننا نخشى إعادة بروز اتجاه متعصب أقوى وأشد خطورة من ذلك الذي نددت به في آذار/مارس ١٩٦٢، والذي ألمح إليه القائد =

وستكون هناك قشّات أخرى في الأعوام التالية. وعلى ما يرويه ستاندال في مذكّراته، فإن البعض في فرنسا ما بعد الثورة (لكن بعد إعادة الأسرة الملكية إلى العرش) ارتد من خلال حرق نسخه من مؤلفات روسو وفولتير (وربما لم يتم الوصول إلى حد هولباخ وديديرو). وكل ما يتطلبه الأمر، في أميركا اللاتينية، لنيل إعجاب واشنطن، هو التنديد العلني بكوبا بوصفها ديكتاتورية شريرة ومتسلطة. كان هذا هو الحاجز الأول الذي تتوفر بعده بطاقات الدخول مجاناً إلى مستقبل مختلف.

لم يشعر البعض من الذين كانوا، أو لا يزالون، منتقدين، بأي حاجة ملحة إلى التخلي عن الثورة. ومن المهم إعادة تأكيد ذلك في عالم تسيطر عليه حقوق الإنسان، كما لو أن كلمة حقوق هي معيار أنثروبولجي بدلاً من كونه قانونياً، ويتم فيه

= تشي غيفارا في مناسبات عدة، عندما ندد بإلغاء حق الانتقاد في صفوف الثورة.

في هذه اللحظة - في وقت يجعل إحلال الحكومة الاشتراكية في تشيلي والوضع المستجد في البيرو وبوليفيا، من الممكن كسر الحصار الإجرامي الذي تفرضه الامبريالية الأميركية الشمالية على كوبا - لا يمكن استخدامَ الإجراءات القمعية ضد المفكرين والمؤلفين الذين مارسوا حق النقد داخل الثورة، إلا أن تكون له انعكاسات سلبية عميقة في أوساط القوى المعادية للامبريالية في العالم كله، ولدى الذين يعتبرون الثورة الكوبية الرمز والراية. ونحن إذ نشكركم على الاهتمام الذي قد تولونه لهذا الطلب، نعيد تأكيد تضامننا مع المبادئ التي هدت الصراع في سييرا مايسترا، والتي عبّرت عنها حكومة كوبا الثورية في مناسبات كثيرة بكلمات وأفعال رئيس وزرائها، والقائد تشي غيفارا، والكثيرين من الزعماء الثوريين الآخرين.

راجع: *New York Review of Books*, 6 May, 1971.

تجاهل غالبية الحاجات الإنسانية.[1] ومثل هذا الحق الإنساني، كما ورد في الإنذار الأميركي النهائي السيئ الذكر في رامبوييه (والذي مهد الطريق لهجوم حلف شمال الأطلسي على يوغوسلافيا)، كان أنه فرض على كوسوفو أن تحظى باقتصاد السوق. وعندما يتجاهل الغرب بفرح حقوق الآخرين لأنها غير ملائمة ـ أميركا وبريطانيا في غوانتانامو، أبو غريب، الفلّوجة، البصرة، الحديثة؛ وإسرائيل في فلسطين المحتلة ولبنان؛ فرنسا في هايتي وفي مستعمراتها الأفريقية ـ فإن صناعة حقوق الإنسان تكون، بطبيعة الحال، متعاطفة مع بلواه الجماعية. فللتعيين المتسرّع للأساتذة المرتبطين بالجامعات الأميركية في هذه الصناعة الجديدة، الكثير ليقوله دفاعاً عن الحروب الإنسانية، والقليل عن الانتهاك المروع للقوانين الموجودة التي يقوم بها من أدت هباتهم إلى تعيين هؤلاء الأساتذة في المقام الأول.

٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

اجتماع غير رسمي مع الكتّاب الكوبيين والمفكرين في كازاس دي لاس أميريكاس. حضرت بضعة وجوه مألوفة، من بينهم ليساندرو أوتيرو، وروايته «الموقف» بمثابة استحضار قوي للسبات الذي استحوذ على المجتمع البورجوازي في كوبا ما قبل

(١) وحتى لا يسيء أعداء النور تفسير هذا، دعوني أوضحْ أن الحاجات الإنسانية الأساسية ـ المأوى، الطعام، التعليم، الصحة ـ تتضمن أيضاً الحاجة الإنسانية إلى التعبير العلني عن الرأي. وهذه إضافة حديثة نسبياً، وهي نتيجة لعصر التنوير وللثورة الفرنسية، لكنها حاجة.

الثورة. وليساندرو قد عاد للتو من المنفى في مدينة مكسيكو. وحضر كذلك فيرناندو مارتينز، وهو رائد موهوب من روّاد الثورة، ورفيق قديم حرّر مرة، في الستينيات، «الفكر النقدي» *Pemsamienta Critico*، وهي ربما أكثر المجلات السياسية رصانة في الأميركتين، وقد أُوقفت في أوائل السبعينيات لمحاولتها السير على مستوى اسمها وهديه. وجاءت النتيجة إعلاماً من لون واحد، لا يكاد يختلف عن مثيله في موسكو أو في برلين الشرقية: يمكن التنبؤ به: بليداً، موحشاً، جافاً، وميتاً. كانت هذه إحدى مآسي الثورة. وقبل أن نسترجع الذكريات، طلبت مني امرأة مرحة بيضاء الشعر، شرح موقفي من ثورتنا. أجبت:

إنها ثورتنا أيضاً. نشأنا معاً. فجيلي وقع في حب الثورة الكوبية. العنصر الشعري الغنائي فيها هو الذي راق لنا. العنصر الذي يكيّف نفسية أي مجتمع ومعنوياته. نحن نقرأ كتبكم، وملصقاتكم الرائعة تلك تملأ جدراننا، وأعدنا طباعة خطابات كاسترو وتشي في مجلاتنا، ودافعنا عنكم ضد الماركسيين الراديكاليين الذين لم يصدقوا أنكم قمتم بثورة، وضد الليبراليين الذين صدقوا بها... ولأننا أحببناكم، وثقنا بكم. ثم إنكم ختمتمونا بمطارحتكم الفراش مع بيروقراطي بدين، بشع، اسمه بريجنيف، وبدفاعكم عن غزو حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا، وهذا المنحى أثر في ثقافتكم، وكاد العنصر الشعري يختفي. ولهذا، كان علينا الافتراق.

حصلت بعض الابتسامات الحزينة أعقبها صمت، إلى ان تحدثت محاورتي من جديد:

والآن؟

الآن، أجبت، تقدم كلانا في العمر. ويحتاج واحدنا إلى الآخر. إنه الحب في زمن الكوليرا.

بعد هذا انتعش النقاش. وطرحت أسئلة عن الـ «نيو لفت ريفيو»، وأرادت امرأتان موجودتان، سبق وتعرّفتا إلى زميل لي أمضى سنة في كوبا في ١٩٦٢، شرحاً نظرياً حول سبب ابيضاض شعر رأسه عندما كان لا يزال في العشرينات. لدي عدد من النظريات حول ذلك، لكنني قاومت التجربة.

الزميل الذي أشارتا إليه، هو روبن بلاكبورن، وكان مناسباً في تلك الظروف. فالتجانسات السياسية هي في الغالب أساس الصداقات الطويلة. قرأت بحث بلاكبورن الأصيل عن كوبا في «نيو لفت ريفيو» بعد بضعة أسابيع على وصولي إلى بريطانيا في ١٩٦٣، وقبل بضع سنين من لقائي به للمرة الأولى. وبادر قائلاً بتواضع:

إن كوبا، مثل غيرها من الثورات العظيمة، إعلان صريح بأنه في وسع الإنسان أن يصنع تاريخه بنفسه. إلا أن هذا التاريخ يمكن صنعه فقط من خلال ظروف مادية واجتماعية معيّنة. هذا البحث سيدرس هذه الظروف. وعند هذا الحد، ستعاني كل محاولة، لا محالة، من الكثير من المحدودية والفشل. إلا أنه، برغم هذه المحدودية، يمكن إجراء تحليل تاريخي ونظري. وهذا البحث سيساهم، وآمل ذلك، في مثل هذا الاتجاه.[1]

---

(١) Robin Blackburn, 'Prologue to the Cuban Revolution', *New Left Review* 21, October 1963.

ثم شرع في شرح الظروف المحددة التي أخّرت استقلال كوبا في القرن التاسع عشر، بالمقارنة مع فنزويلا وبوليفيا، ولحظ أن مردّ عدم الرغبة الشديدة للنخبة الأوروبية الأصل في التخلّص من الإسبان، سببه العِرق وليس الطبقة: كان السود يفوقون البيض عدداً: ٣٣٩,٩٥٩ في مقابل ٢٩١,٠٢١ في إحصاء ١٨١٧. وبالمقارنة، فإن ٢ في المئة فقط من سكان برّ أميركا الإسبانية، كانوا من أصل أفريقي في تلك الحقبة؛ كان هناك عدد أقل من السود المجموعين معاً في كل مستعمرات البر الإسباني، مما هناك في كوبا.

في الغرب، عمدت اتجاهات *ما بعد الحداثة المهيمنة إلى* نفي التاريخ عملياً، بحيث أصبح مادة أكاديمية لا تحظى بالشعبية، ويحتاج إلى مراجعة دائمة ليلبي حاجات الحاضر. وكان يمكن دائماً المواطنين الذين يشعرون بتوق إلى ذلك، أن يشاهدوا سيركاً من المؤرخين التلفزيونيين يتبخترون حول الخريطة الكروية، ويقدمون، في معظم الحالات، رؤية ساذجة إلى تاريخ العالم. وكوبا تفيض تاريخاً: تاريخها وتاريخ بقية أميركا الجنوبية. وخوسي مارتي وسيمون بوليفار نقطتا اعتلام للجميع، إلا أن مستقبل الجزيرة يحتل مقاماً أرفع في أذهان الشعب. ربما انتهى الأسوأ، لكن المرحلة الخاصة في زمن السلم، وهي تورية تلطيفية للفاقة التي كان على الكوبيين تحمّلها بعد ١٩٩٠، أصابت الكثيرين بأضرار جسيمة. ونحن، خلال عشاء مع أصدقاء، نناقش صراحة الأخطاء التي ارتُكبت، والمستقبل الموعود المفترض أن يتجنبها.

ولو أنني، قبل ثلاثة أو أربعة عقود، قلت لهم، أو أن صوتاً تنبأ، بأنه مع مقلب القرن المقبل، سيكون الاتحاد السوفياتي قد انهار، وستستولي الرأسمالية على الصين وفيتنام، وسيكون عليكم أنتم، أيها الرفاق الكوبيون، أن تراجعوا المبادئ التي قاتلتم من أجلها وصنعتم ثورتكم، لأغرق الجميع في زعاق من الضحك الاستهزائي. وأمكننا الاتفاق على ذلك، ومن ثم تحدثنا عن الأوقات السيئة.

واتفق الجميع على أن المرحلة الخاصة في زمن السلم التي أعقبت عودة الرأسمالية إلى روسيا، كانت المرحلة الأسوأ في التاريخ الكوبي. وانهار الاقتصاد، المعتمد على النفط الرخيص من الاتحاد السوفياتي، عندما طالب الروس بأن يتم الدفع بالدولار. وردّ الكوبيون: لا يمكننا الدفع، ولن ندفع. وبالرغم من كل شيء، لم تحدث مجاعة (كما في كوريا الشمالية)، أو بطالة حاشدة (كما في ألمانيا الشرقية). لكن البعض في المواقع القيادية ممن تعوّدوا كثيراً، على مر الأعوام الماضية، على اتباع خط موسكو، وكانوا مستعدين للسير في ركاب المثال الروسي والأوروبي الشرقي، أصبحوا المقاولين الجدد بشرائهم مقتنيات الدولة وتكديسهم ثروات خاصة. والمنطق بسيط بالنسبة إلى البعض: فلنجعلْ من أنفسنا «ميامِيين» (نسبة إلى الانتماء إلى ميامي) للإبقاء على ميامي خارجاً. بل إنهم نسوا القوانين الأساسية للحركة، متخيلين أن في وسعهم التعاطي مع أنسبائهم الكوبيين ـ الأميركيين من الند إلى الند. وهذا ما لن يحصل. وبالكاد يكون الأمر سراً في هافانا، أن الختيار هو الذي تصدّى

ورفض التنازل عن أي من المكاسب الأساسية للثورة، مصرّاً على أن ما أُنجز يتنافى مع ما تطلبه الرأسمالية الدولية. وربح في تحديه وفي خياره. وردّ المجتمع الدولي بالاستمرار في معاقبة البلاد.[1]

في ١٩٩٣، اعتقد اللوبي الكوبي في الولايات المتحدة (بمعنى آخر المؤسسة الكوبية ـ الأميركية)، أن الوقت ملائم لشدّ عقدة الأنشوطة وتضييق الخناق على نظام فيدل، والعمل على تغيير النظام في كوبا. وشرعوا في الهجوم، بدعم كامل من الرئيس بيل كلينتون الذي كان يحتاج حينها إلى الأموال النقدية والدعم في حملة إعادة انتخابه. وتكرّم كلينتون على المتشددين في أخوية المنفيين الكوبيين، كما شرحت «ميامي هيرالد» ذلك بتباه:

جاء قرار معاقبة كاسترو تماماً ـ من خلال قطع تدفق الدولارات التي

---

(١) إن خبث الاتحاد الأوروبي في شأن حقوق الإنسان مفيد في شكل خاص في هذا المجال، بما أن التعذيب الوحيد في كوبا يجري في غوانتانامو من دون أن يقترح أحد أي عقوبات من أي نوع؛ وهناك فقط حفنة من السجناء السياسيين في البلاد بالمقارنة مع مصر، على سبيل المثال. ودول الاتحاد الأوروبي سعيدة بالامتثال لطلبات واشنطن بـ «الأداء». ويُمارَس التعذيب في بعض الدول التي تدور في فلك الولايات المتحدة في أوروبا الشرقية، حيث دعم سياسيان طلائعيان، هما فاكلاف هافل وآدم ميشنيك، كلّياً الحرب ضد العراق. وتعذيب حقوق الإنسان مقبول مادام أنه يُمارَس لإعطاب أولئك الذين يسيئون استعمال حقوق الإنسان ومعاقبتهم، الرجال والنساء في سجون العراق المحتل ومواطني الفلوجة وحديثة.

تأتي بها العائلات المهاجرة، وبالحد من عدد شركات الطيران المستأجرة، من بين خطوات أخرى ـ من الرئيس كلينتون مباشرة. وبالفعل، فإن الرئيس لم يفعل سوى إسقاط مجموعة من الخيارات الألطف التي أعدتها مجموعة من مستشاريه، لصالح خطة أقسى طالب بها الكثيرون من المنفيين المتشددين، بمن فيهم خورخي ماس كانوسا. واتخذ ذلك القرار في اجتماع في ساعة متأخرة من الليل في البيت الأبيض، حضره عدة زعماء كوبيين ـ أميركيين في ميامي. وعندما لاحظ أحدهم كم أنهم كانوا متأثرين بفهم كلينتون للموقف برمته، شرح أنه انخرط، منذ ١٩٩٠، في دراسة شخصية، ومشتركة عن كوبا وطائفة المنفيين. ففي خلال زيارات إلى جنوب فلوريدا، كان حاكم أركنساس ـ بإرشاد من شقيقة زوجته المنفية الكوبية ـ يسير في شوارع هافانا الصغيرة Little Havana. وفي غضون أيام قليلة، قام كلينتون بأكثر مما أنجزه أي رئيس جمهوري في خلال الثمانينيات، للضغط على كاسترو.[1]

١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥

لطالما كانت لديَّ حساسية تجاه ثقافة التراث وقرى «بوتمكين» (الأمير الروسي غريغوري بوتمكين ـ المترجم). ولهذا، عندما شاهدت حديقة صغيرة في وسط هافانا مكرّسة لأميرة ويلز الراحلة ديانا، صُدمت بغرابة الأمر كله. وأصابني

---

(١) Tom Fiedler, 'A Look behind Bill Clinton's Cuba Stance', *Miami Herald*, 28 August 1994.

أيضاً الفضول. لمَ في هافانا؟ أهي ببساطة الرغبة في التماهي مع نجوم العالم الغربي من خلال حقن أنفسهم بمرض الشهرة، أم إن الأميرة أثارت الختيار؟ ابتسم مرشدي، لكنه لم يُقحم نفسه في الشرح. وجلّ ما قاله هو: أعتقد، إذاً، أنك لا تريد أن ترى التمثال الذي بنته الكنيسة لتكرم ذكرى الأم تيريزا؟ من حسن حظه أنني لم أكن أقود السيارة. فالراهبة الألبانية كانت صديقة عزيزة للدوفالييه، الأب والابن، في هايتي المجاورة، بل إن بيبي دوك، عندما كان لا يزال في السلطة، كرّمها بوسام رئاسي، ولم ينعم عليها بتمثال.

ونتيجة لذلك، توجّست بعض الشيء عندما دُعيت إلى زيارة جامعة مزهاة جديدة. أولاً، يمكن أن تكون هذه أشبه بقرية بوتمكين؟ كنت أشكل أقلية كاملة في هذا الرأي. فقد أصر الجميع، بمن فيهم الاستهكامي، على أنه علي أن أذهب وأرى ذلك بنفسي. وهو ما فعلته. يقع المكان على بعد نحو ١٥ ميلاً خارج هافانا، في الطريق إلى بينار دل ريو، التي سبق وزرتها، وهي نموذج للسياحة البيئية الكوبية. وكان من الصعب، في القيادة خروجاً من المدينة من جديد، عدم مقارنة كوبا مع شقيقاتها من الجزر الكاريبية والبلدان الفقيرة في أماكن أخرى من العالم. وبالرغم من كل المشاكل، فإن التقدم الذي تحقق لا يبدو للعيان بأفضل مما هو عليه في جامعة تكنولوجيا التصرف بالمعلومات هذه، المصممة كقفزة متواضعة إلى الأمام لسدّ «الخلل الرقمي» بين الجنوب والشمال.

سلكنا الممر الجانبي الطويل، وظهرت علينا المنحوتات؛ ورأيت لاحقاً الرسوم الجدرانية العملاقة على الحيطان. والهدف هو خلق بيئة تُشجع تقدير الفن في العالم الحقيقي من خلالها على الإبداع في نظيره الافتراضي. وتساءلت بصوت عال، لدى رؤيتي المباني الأكثر قدماً في الحرم، إذا لم يكن ممكناً إيجاد مهندس معماري أفضل. وقيل لي بابتسامة، إن ما أراه له طابع عسكري في أساسه. فالجامعة كانت في ما سبق أكبر مركز سوفياتي للمراقبة في الأميركتين. من هنا، قالوا أمكن السوفيات مراقبة الرئيس الأميركي مسافراً في كل مكان في بلاده، والاستماع إلى الأحاديث التي دارت بينه وبين من حوله. وتم الاحتفاظ بالمنشأة بعد الانهيار السوفياتي، مع إصرار الكوبيين الآن (كما فعل الروس في ما يتعلق بالنفط) على إيجار مرتفع يُدفع فقط بالدولار. وفي زيارة إلى الجزيرة في العام ٢٠٠٠، تعهد الرئيس الروسي بإيجار طويل للقاعدة، لكن الأميركيين، بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، ضغطوا على موسكو لإقفال المحطة، ووافق بوتين، ربما في مقابل صفقات ما في الشيشان وغيرها. ومهما يكن ما حصل عليه مما وُعد به، فما لا شك فيه أن نتائجه عادت بالفائدة على كوبا.

تضم جامعة علوم المعلومات (Universudad de las Ciencias Informaticas) سبعة آلاف طالب، نصفهم من الإناث، وجهازاً تعليمياً مؤلفاً من ٢٥٠ أستاذاً، وتتميز بعمود فقري مؤلف من كابل من الألياف الزجاجية بسعة عدة ميغابت، يوفر سعة سريعة للحرم بأكمله. والهدف هو خلق طبقة من المحدثين في البرمجيات ومنشآت يمكنها أن تقدم الخدمات إلى أميركا اللاتينية

بأكملها. فما أنجزوه في الطب على وشك أن يُستنسخ في تكنولوجيا المعلومات. نحن، من خلال الاتصال بالمستقبل، نضمن مستقبل الثورة. كتبت هذه الملاحظة في مذكراتي، من دون أن أحدد إذا كان أحدهم قال لي ذلك، أم إنه كان شعاراً على جدار. وهذه، في كلتا الحالتين، فكرة لطيفة. والنظام المفضّل هو «جي. أن. يو. ـ لينوكس» GNU/Linux، وهو ما يذكّرني بريتشارد ستالمان، زعيم البرمجيات المجانية، وقد التقيته للمرة الأخيرة منذ بضعة أشهر في كاراكاس. كان في فنزويلا لمساعدة البلاد على استخدام لينوكس، وقال إنه سيفعل الشيء نفسه في كوبا. سألته «وماذا عن الصين؟»، قال «آه، لقد تمت دعوتي إلى بكين، وقلت لهم ماذا عليهم أن يفعلوا. تحمّسوا كثيراً. لكن عندما أصررت على أن نظام «جي. أن. يو. ـ لينوكس» مجاني، وليس في وسعهم فرض رسوم على المستخدمين، انتهت المفاوضات سريعاً. لم يهتموا وحسب». وبرغم ذلك، فإن كل أجهزة الكمبيوتر في جامعة علوم المعلومات كانت مجانية قدمتها الصين إلى كوبا.

تطلّب البقاء بعض التنازلات المهمة، وأنتج فتح البلاد أمام صناعة السياحة العالمية سوقاً لتبادل العملات، هي في أمس الحاجة إليها. لكن ذلك أعاد معه إحياء تجارة قديمة: عاد القوّادون والمومسات إلى الظهور على الساحة بأعداد كبيرة، للمرة الأولى منذ الثورة. كان الأمر أكثر سوءاً منذ خمس سنين مضت، لكن الظروف تتحسن بلا شك. الجميع يقول هذا، بمن فيهم المنتقدون المتمركزون في الولايات المتحدة.

وبمحض الصدفة، قبل بضعة أسابيع على هذه الرحلة، كنت في باكستان التي ضربها زلزال كبير، وأشارت الأرقام التي نُشرت بعد الأسبوع الأول (والتي تبين لاحقاً أنها تقدير أقل من الحقيقة بكثير) إلى حجم الكارثة: ٥٠ ألف قتيل، ٧٤ ألف جريح، وعلى الأقل ٣,٣ ملايين ـ أكثر بكثير مما بعد التسونامي ـ باتوا بلا مأوى، معظمهم تقريباً في الجبال حيث تبدأ الثلوج بالتساقط في تشرين الثاني/نوفمبر. وقال لي عامل إنقاذ في إسلام أباد، إن هناك رائحة كريهة لأجساد متحللة في كل مكان. يبحث الناجون بينها عما يأكلونه. يقول السكان المحليون إن خمسين ألفا قُتلوا في هذه المدينة وحدها. وسيزيد عدد القتلى إذا لم يتم توزيع الدواء والطعام في شكل عادل.

ظهر رئيس باكستان على تلفزيون الدولة متفجعاً على النقص في طائرات الهيليكوبتر لنقل الطعام والإمدادات. وفي أفغانستان المجاورة، رفض حلف شمال الأطلسي إرسال الكثير منها من منطقة الحرب، بالرغم من نصيحة روبرت كابلان في الـ «إنترناشونال هيرالد تريبيون»، الذي قال عن مهمات الإنقاذ المحسنة للولايات المتحدة ـ حلف شمال الأطلسي:

ينهار التمييز بين الحرب والإنقاذ، وبين الانتشار المحلي والخارجي. . . فمطاردة القاعدة في جُحرها، يستحيل من دون الإرادة الحسنة للسكان المحليين. ويمكن توليد هذه الحالة النفسية من خلال أعمال إغاثة كتلك التي تجري في كشمير. إنه النموذج الكلاسيكي المضاد للتمرد: الانتصار من دون إطلاق أي رصاصة.

لكن، ماذا بالنسبة إلى الأطباء؟ ففي الوقت الذي غادرتُ فيه باكستان، كان الكوبيون قد أرسلوا أكثر من ألف طبيب، نصفهم من النساء، وهو ما يفوق كل أولئك الذين أرسلهم المجتمع الدولي. جاء الكوبيون بمستشفياتهم الميدانية وأدويتهم. وسُمح فوراً للطبيبات بمعالجة النساء القرويات، وأمكن المحادثات بين الكوبيين والسكان المحليين، التي جرت من خلال مترجمين يعملون لوكالة الاستخبارات المحلية، أن تأخذ طابعاً يفوق الواقع.

ـ من أين أنت؟

ـ كوبا.

وشرح الكوبي موقع الجزيرة.

ـ إذاً، أنت قادم من مكان بعيد. من هو زعيمك؟

ـ فيدل كاسترو.

ـ لم أسمع به قط.

ـ أتود رؤية صورة شمسية له؟

تُبرز الصورة، ويتم الإعجاب كثيراً باللحية.

يمكنه أن يكون على مقربة من هنا. لديهم لحىً كهذه في قرية تبعد عشرين ميلاً من هنا.

قيل لي في هافانا إن بعض الأطباء اهتزوا لمستويات الفقر التي لاحظوها في المناطق الجبلية من بلادي. التجربة أفادت الطرفين. وكان يمكن الفلاحين البيروفيين والبوليفيين، أن يكونوا

أكثر ألفة مع الأوضاع الباكستانية. وقد عاد الأطباء منذ فترة طويلة، ومن غير المعروف إذا كان القرويون الناجون لا يزالون يتلقون عناية طبية.

الطب الكوبي موضع حسد معظم القارات اليوم، وهو أفضل دعاية لما يمكن إنجازه في ظل ظروف اجتماعية مختلفة. في كوبا ٦٩ ألف طبيب، يرعون السكان البالغ عددهم ١٢ مليوناً. توجد مدرسة الطب الأميركية اللاتينية، التي أُنشئت في ١٩٩٩، على موقع مذهل على البحر، وهو ما ليس مفاجئاً بما أنها كانت منشأة تدريب سابقة للضباط المرشحين للبحرية. هذه الجامعة الطبية ـ توجد ٢١ أخرى على الجزيرة ـ مخصصة للطلاب الأجانب فقط. فهي تقبل بضعة آلاف من الطلاب من كل بلدان أميركا اللاتينية ومن بعض بلدان أفريقيا وآسيا. وهناك ١٢ ألف طالب من ٨٣ بلداً يدرسون الطب في كوبا، بما في ذلك أميركا الجنوبية (٥,٥٠٠)، وأميركا الوسطى (٣,٢٤٤)، والمكسيك (٤٨٩)، والولايات المتحدة (٦٥)، وبويرتو ريكو (٢). والكاريبي، مع ١,٠٣٩ طالباً، وأفريقيا شبه الصحراوية (٧٧٧) ممثلتان أيضاً. كذلك، يأتي ٤٢ طالباً من أفريقيا الشمالية والشرق الأوسط، و٢٦١ من آسيا (تسجل ٢٠٠ من تيمور الشرقية في العام ٢٠٠٥)، واثنان من أوروبا. وكما سبق ورأينا، فإن الطب الكوبي من الصادرات الشهيرة: ففي فنزويلا يقوم أطباء كوبيون بتدريب ١٧ ألف طالب في الطب، بينما يعمل نحو ألفي طبيب كوبي في كافة أنحاء أفريقيا.

تحادثت مع بعض الطلاب من جمهورية الدومينيكان، وكانوا جميعاً من عائلات فقيرة، تماماً مثل أقرانهم الأفرو ـ أميركيين

والإسبان من الولايات المتحدة. في وقت سابق من تلك السنة، تخرّج أول ١٦٠٠ طبيب في سياق دراسي استمر ست سنين، بمن فيهم سدريك إدواردز من نيو أولينز. قرأت مقابلة صحافية معه تحدّث فيها كيف أنه أحب واقع أن الشخص، بغض النظر عن وضعه الاقتصادي، يمكنه، أو يمكنها، رؤية طبيب، والحصول على العناية الوقائية، من دون أي مقابل؛ وكيف أن دروسه، مثل جميع رفاقه الطلاب من أميركا اللاتينية والكاريبي، كانت مجانية تماماً. وقد دفعت الدولة الكوبية ثمن غرفته المتواضعة وطعامه، وكتبه، وأقساطه. وضمن الجنرال كولن باول، وزير الخارجية الأميركي السابق، عندما كثّفت الولايات المتحدة سياساتها المعادية لكوبا في ٢٠٠٤، أن يتم وضع بند استثنائي في الحصار الاقتصادي وحظر السفر. وأمكن الشبان الـ ٧٦ الذين يدرسون الطب في مدرسة الطب الأميركية اللاتينية، أن يواصلوا تحصيلهم، كما سيمكن ذلك لطلاب مستقبليين. ويشير الكوبيون إلى متخرجي الجامعة في بلدهم بوصفهم رأسمالاً إنسانياً. فالجامعات الكوبية تخرّج في كل سنة ما بين ٨٠٠ ألف ومليون شخص من أصل عدد السكان الـ ١٢ مليوناً. وماذا سيحصل لذلك كله في حال عودة ميامي؟

«هذا، إذاً، هو جوابكم عن مدرسة الأميركتين»، تمتمت لموظف كوبي شاب، واثقاً من أنه فهم إلى ماذا أرمي. ابتسم، لكنني لم أكن واثقاً تماماً من أنه فهم الإشارة. شرحت له. مدرسة الأميركتين كانت مدرسة للتعذيب في باناما، وما لبثت أن نُقلت إلى فورت بنّينغ في جورجيا. فهنا، كان المدربون الأميركيون، وبعضهم من قدامى الحروب الامبريالية في كوريا وفيتنام، يعلّمون

رجال الشرطة وعملاء الاستخبارات الأميركيين اللاتينيين أشكال التعذيب الأكثر فاعلية ووحشية. ومضى المتخرجون ليُظهروا براعاتهم في البرازيل، والأرجنتين، والأوروغواي، وأميركا الوسطى. لطالما كان التعذيب جزءاً لا يتجزأ من الحكم الاستعماري. ولهذا، فإن التعبير عن المفاجأة الليبرالية للكشف عن التعذيب في غوانتانامو، أو أبي غريب، أو بولشارخي (كابول)، محيّر بطريقة ما، وكنت مسروراً لمعرفة أن آخرين احتاروا أيضاً لهذا الفقدان الجماعي للذاكرة الليبرالية.(١)

---

(١) في عمود في «ذي نايشن» في ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥، تحدثت ناومي كلاين بسأم عدد كبير من الناس في أميركا اللاتينية وآسيا، عندما كتبت:

ليس فقط متعذّرو التعذيب من يجهل هذا التاريخ بإلقائهم اللوم في الانتهاكات على تفاحات قليلة سيئة، بل يجهله أيضاً الكثيرون من أبرز معارضي التعذيب. ويظهر أن عدداً مفاجئاً منهم، ممن يظهر أنهم نسوا كل شيء سبق وعرفوه عن حوادث الحرب الباردة الأميركية، أخذ في الانتساب إلى الروايات المضادة للتاريخ، والتي فيها أن فكرة تعذيب السجناء تبادرت إلى أذهان المسؤولين الأميركيين للمرة الأولى في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، والتي يبدو أن وسائل الاستجواب المستخدمة في غوانتانامو برزت على ما يبدو عند هذه النقطة، بشكلها الكامل، من الدماغين الساديين المتخلفين لديك تشيني ودونالد رامسفلد. وقيل لنا، إنه حتى تلك اللحظة، حاربت الولايات المتحدة أعداءها، وأبقت على إنسانيتها سليمة... في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر، ادعى عضو الكونغرس الديموقراطي جيم ماكديرموت في شكل مذهل أمام مجلس النواب، أن الولايات المتحدة لم تشكك قط في نزاهتها الأخلاقية، إلا الآن. وكتبت مولي إيفنس، معربة عن صدمتها بأن الولايات المتحدة تدير سجناً أشبه بالغولاغ Gulag السوفياتي. إنها هذه الإدارة وحسب... وحتى في ذلك، يبدو أن الأمر متعلق في معظمه بنائب الرئيس ديك تشيني. وفي عدد =

في مجال السياسة الخارجية، يسلك الكوبيون عادة سبيلهم الخاص. التقيت عدداً مذهلاً من قدامى حرب أنغولا، في القمة

= تشرين الثاني/نوفمبر من «هابرز»، جادل وليام بفاف بأن ما يفرّق إدارة بوش عن سابقاتها، هو إحلالها التعذيب كجزء لا يتجزأ من العمليات العسكرية والسرّية الأميركية. وأقر بفاف أنه، قبل وقت طويل من أبي غريب، وُجد أولئك الذين زعموا أن مدرسة الأميركتين كانت مدرسة تعذيب، لكنه قال إنه يميل إلى الشك في أنها كانت كذلك فعلاً. وربما حان الوقت ليُلقي بفاف نظرة على كتب مدرسة الأميركتين الدراسية التي تدرّب على تقنيات التعذيب غير الشرعية، وهي متوفرة باللغتين الإسبانية والإنكليزية، بالإضافة إلى لائحة متخرجي هذه المدرسة التي توقف شعر الرأس. . .

في أميركا اللاتينية، لم يُواجَه الكشفُ عن التعذيب الأميركي في العراق بالصدمة وعدم التصديق، بل بشعور قوي بأنهم سبق وشاهدوا ذلك، وبخوف أُعيد إيقاظه. وكتب هكتور موندراغون، وهو ناشط كولومبي تعرض للتعذيب في السبعينيات من القرن الماضي، على يد ضابط تدرّب في مدرسة الأميركتين: صعب علي رؤية صور التعذيب في العراق لأنني أنا أيضاً تعرّضت للتعذيب. رأيت نفسي عارياً واستعدت صور قدميّ مقيّدتين إلى بعضهما، ويديّ موثقتين خلف ظهري. ورأيت رأسي مغطى بكيس قماشي. تذكرت شعورَي الاذلال والألم. وقالت ديانا أورتيز، الراهبة الأميركية التي عُذبت بوحشية في أحد سجون غواتيمالا: لم يمكنني حتى الوقوف للنظر إلى تلك الصور... فقد أُنزل بي أيضاً الكثير مما رأيته في الصور. تم تعذيبي بكلب مخيف وأيضاً بواسطة الجرذان. وكانوا دوماً يصورون.

شهدت أورتيز أن الرجال الذين اغتصبوها وأحرقوها بالسجائر أكثر من مئة مرة، امتثلوا لرجل كان يتحدث الإسبانية بلكنة أميركية، وكانوا ينادونه بالرئيس. وهذه قصة من قصص كثيرة يرويها سجناء في أميركا اللاتينية عن رجال غامضين يتحدثون الإنكليزية، يدخلون زنزانات تعذيبهم ويخرجون منها، مقترحين الأسئلة، ومقدّمين التلميحات. والكثير من هذه القضايا موثّق في كتاب جنيفر هاربوري المثير الجديد: Jennifer Harbury, *Truth, Torture, and the American Way*, Boston, 2005.

الدولية الكوبية، التي ساعدت على إسقاط نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا. قرر فيدل كاسترو أنه يجب وقف الأفارقة الجنوبيين من الاندفاع في اتجاه هدفهم المعلن، وهو تغيير النظام في لواندا. قرر الكوبيون العمل. وأعلن كاسترو في خطاب قوي في ١٩٧٥، أنه في الماضي نُقل الكثيرون من العبيد إلى كوبا من الساحل الأنغولي، وأن على كوبا الثورية دَيْناً يجب أن تفي به. وهي لن تسمح للأفارقة Afrikaaners باستعباد أنغولا المستقلّة حديثاً.

وخلافاً لتقارير ذلك الزمن، لم يكن الروس مسرورين كثيراً بهذا القرار، ورفضوا السماح باستخدام طائرات النقل السوفياتية. ونُقلت الدفعات الأولى من الجنود الكوبيين إلى أنغولا بطائرات نقل بريطانية مستأجرة. أقلعت هذه الطائرات بالجنود الكوبيين والأسلحة من ترينيداد وتوباغو التي كان رئيس وزرائها إريك ولیامس يدعم قرار مساعدة أنغولا. ولاحقاً، أوقف وليامس بعد لأي طويل تحت تأثير الضغط الأميركي، الرحلات الجوية. لكن أمكن عند ذاك إيجاد سبل أخرى. وأرسلت إدارة كارتر موفداً إلى الكوبيين حاملاً عرضاً على طريقة المافيا: سترفع الولايات المتحدة الحظر إذا سحب الكوبيون قواتهم من أنغولا. وجاء جواب كاسترو معهودا:

لا يخطئنَّ أحد. لا يمكن الضغط علينا، والتأثير فينا، ورشوتنا أو شراؤنا... ربما تشعر الولايات المتحدة، كونها قوةً عظمى، بأنه في إمكانها القيام بما تشاء، وبما هو جيد لها. وتبدو كأنها تقول بوجود قانونين، ومجموعتين من القواعد، ونوعين من المنطق: واحد

للولايات المتحدة؛ والآخر للبلدان الأخرى. ربما كنت مثالياً، لكنني لم أقبل قط بالحقوق الدولية الخاصة للولايات المتحدة. لم أقبل يوماً، ولن أقبل مطلقاً بوجود قانون مختلف وقواعد مختلفة... آمل أن يشهد التاريخ على عار الولايات المتحدة التي لم تسمح، على مدى عشرين عاماً، ببيع أدوية هناك حاجة إليها لإنقاذ الأرواح.[(١)]

ولما يزيد على عقد من الزمن، لعب ٥٠ ألف كوبي دوراً حاسماً في مساعدة أنغولا على هزم جيوش دولة التمييز العنصري. وفي ٢٣ آذار/مارس، شن الأفارقة الجنوبيون آخر هجماتهم الرئيسية على كيتو وفشلوا. وهزأ منهم كاسترو: على المرء أن يسأل الأفارقة الجنوبيين: «لماذا لم يتمكن جيشكم المؤلف من العرق المتفوق من احتلال كيتو التي يدافع عنها السود والخلاسيون من أنغولا والكاريبي؟». وسرّع الوجود الكوبي أيضاً في استقلال ناميبيا. وكان أول موقف لنلسون مانديلا بعد إطلاقه زيارة عاطفية إلى هافانا في ١٩٩١ لتقديم الاحترام للدولة الكوبية: «جئنا إلى هنا بشعور من الفضل الكبير الذي نَدين به لشعب كوبا... ولا يمكن أي دولة أن تشير إلى سجل كبير ليس له أي أطماع كذلك الذي أظهرته كوبا في علاقاتها بأفريقيا».

كانت هناك تأثيرات جانبية مزعجة، لا يجب تجاهلها أو

(١) Piero Gleijese, *Conflicting Missions: Havana*, Washington and Pretoria, 1959-1976, Chapel Hill, 2005.
وهو البحث الأكثر شفافية وتنقيباً عن كوبا وأفريقيا.

التخفيف من أهميتها. وتتضمن المحاكمة العلنية للجنرال أوشوا والأخوة دي لا غوارديا (من وحدة النخبة في وزارة الداخلية)، بعدما أُدينوا بالفساد، والارتباط بتهريب المخدرات مع بارونات كولومبيا، وبتعريض أمن كوبا للخطر. وكانت، لحسن الحظ، هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي تأكل فيها الثورة الكوبية أبناءها. ودار حديث كثير عن أن الأخوة لا غوارديا قد جندتهم الولايات المتحدة إبان زياراتهم المتكررة إلى ميامي. لكن أوشوا كان من قدامى الحركة الثورية، وقد قاتل في حرب العصابات الفنزويلية في ذروة الكفاح المسلّح في أميركا اللاتينية. كان يتمتع بشعبية كبيرة بين جنوده. واعترف في محاكمته العلنية التي بُثت مباشرة على التلفزيون الكوبي، باستخدام أموال المخدرات، لتمويل الحرب ضد الأفارقة الجنوبيين وليس لمكسب شخصي. وأقر بأنه مذنب. كانت الإعدامات هي التي أغضبت الكثيرين داخل كوبا، وأدت بمجموعة أخرى إلى الهرب إلى الخارج. وعندما أثرت هذا الموضوع في زيارتي هذه مع بضعة من قدامى حرب أنغولا، بدت ملامحهم حزينة. وقدّرت الصحافة الأميركية أن شعبية أوشوا (زمن التغيرات الكبرى في روسيا) هي التي أدت إلى سقوطه. كان يُنظر إليه بوصفه خليفة فيدل. ولم يتولّد لدي انطباع بأن لذلك علاقة ذات شأن بالقضية. ولماذا الإعدامات إذاً؟ لا يزال الأمر لغزاً. وسواء أكان المرء يؤيّد عقوبة الإعدام أم لا (وأنا لا أؤيدها)، فإنها لا تتناسب قطعاً مع الجريمة في هذه الحالة.

وماذا عن الثقافة؟ فللقارة، ككل، تقليد غني ونابض يتمتد في الزمن إلى بوليفار الذي كان لنثره ميزة أدبية قوية، وساهم في خلق معتقد يصعب تجاهله، وتجاوزه. ولطالما توجد روابط قوية بين الفن والسياسة ـ لكل من اليمين واليسار ـ في أميركا الجنوبية. وقرر فنانو الجداريات في المكسيك اعتناق هذا النوع الخاص من الفن، وإدراجه، لنزع الملكية الخاصة عن الأعمال الفنية. فلا يمكن شراء الجداريات العملاقة التي رسموها، ويمكن الجميع مشاهدتها مجاناً. وجدارية ريفيرا التي تصوّر تاريخ المكسيك على أسوار وزارة التربية، هي واحدة من الأكثر تعبيراً وجمالاً. وقد قاد الشاعر خوسي مارتي، نضال كوبا من أجل الاستقلال ضد الحكم الإسباني. وأصبح على التوالي كل من دومينغو فوستينو سارمييننتو، مؤلف فاكوندو Facundo، وรومولو غالليغوس، الذي كتب دونيا باربارا Dona Barbara وكانايما Canaima، رئيساً للأرجنتين وفنزويلا. وفي فترة أكثر قرباً، نافس مؤلف القصص البيروفي ماريو فارغاس يوسا، في الانتخابات الرئاسية في بلاده باسم اليمين المحترم، من دون أن يحالفه النجاح. والشعراء أيضاً التزموا سياسياً، عادة إلى اليسار (بابلو نيرودا، إرنستو كاردنال، نيكولاس غيّين، إيمي سيزايري... إلخ). واخترع الباحث والناقد الأوروغوياني إدواردو غاليانو، شكلاً من أشكال الرواية غير الخرافية (ذكريات النار Memory of Fire، وعروق الدم المفتوحة لأميركا اللاتينية Open Veins of Latin America)، أخذ الأميركيتن معاً عنوة.

وحتى بوليفيا، حيث تبالغ السياسة في تحديد الأدب،

أنتجت شعراءها وكتّابها، وهم أقل شهرة من أولئك الموجودين في بلدان أخرى من أميركا الجنوبية، لكنهم مهمون بالدور الذي لعبوه في ثقافة البلاد السياسية.(١)

وحدها البرازيل، التي يفصلها التاريخ الاستعماري واللغة عن بقية القارة، لم تشكل استثناءً في هذا المجال. فقد أنتجت

---

(١) برز جيل مهم من الكتّاب في بوليفيا في بداية القرن العشرين، وخصوصاً ألسيدس أرغويداس (١٨٧٨ ـ ١٩٤٦) وفرانز تامايو (١٨٧٩ ـ ١٩٥٦)، اللذين بدآ بالاهتمام بسكان البلاد الأصليين الذين يشكلون الأغلبية، مدركين أنه لا يمكن حصر الثقافة الوطنية والأدب بطبقة المستوطنين البيض في المدن الرئيسية.
ثم، بعد الانتفاضات الكبرى التي سببتها حرب شاكو في الثلاثينيات، جاءت مجموعة جديدة من الكتاب ذوي الالتزام بالتحسين الاجتماعي والتغيير السياسي. والبارز من بينهم كان أوغوستو سيسبيدس (المولود في ١٩٠٤) وكارلوس مونتينيغرو مؤلف الوطنية والاستعمار Nacionalismo y Coloniaje (1953). وأصبح سيسبيدس وزيراً للتربية بعد ثورة الحركة الوطنية الثورية في ١٩٥٢. وتصف روايته «سانغري دي ميستيزوس» Sangre de Mestizos مَشاهد ملوّعة من حرب شاكو، تتخللها أحداث من لاباز. ويتطرّق كتاب مهم آخر، هو ميتال ديل ديابلو Metal del Diablo (1946)، إلى الظروف في مناجم القصدير. واستحضر سيسبيدس أيضاً تاريخ تلك الأعوام في انتحار الديكتاتور ElDictador Suicida، عن الجنرال جيرمان بوش، والرئيس كولغادو El Presidente Colgado، عن الرئيس غوالبيرتو فيرّويل، وهو الجنرال الذي شُنق خارج القصر الرئاسي في لاباز. وبينما أخذت تخيب أحلام الحركة الوطنية الثورية، ظهر كتّاب سياسيون جدد، وبخاصة ريني زافاليتا (الذي مات شاباً)، ومارينو بابتيشتا غوموسيو (الذي قُتل في انقلاب عسكري). وأعطى غويّرمو لورا صوتاً للمعتقد التروتسكي القوي في بوليفيا، ويُعتبر عمله التأريخي المهم عن أصول الحركة العمالية البوليفية، *Historia del Movimento Obrero Boliviano* (1967)، واحدة من جواهر الكتابة التأريخية في أميركا اللاتينية.

أميركا اللاتينية حصاداً غنياً من الكتّاب، والشعراء، والنقّاد، وأخيراً صانعي الأفلام. وأعطت الوحدة اللغوية (باستثناء البرازيل) لأميركا اللاتينية ثقافة سياسية مترابطة، ومنوعة في الوقت نفسه، لا مثيل لها في آسيا وأفريقيا، كانت أكثر حياة بكثير من معظم ما كان لأميركا الشمالية أن تقدّمه. هناك هيمن التاريخ على الثقافة: فالقرن الأول للولايات المتحدة الأميركية بعد الاستعمار، كان تحت سيطرة الأصولية الدينية، والإبادة الجماعية، والعبودية، والتوسع الامبريالي المستمر، في الداخل والخارج معاً.

وتخلصت كوبا، وهي آخر مستعمرة إسبانية في أميركا الجنوبية، من حكامها المستعمِرين القدامى في ١٨٩٨. ومن بدائلهم المدعومين من الولايات المتحدة في ١٩٥٩. لكن الوظيفة التعارضية للثقافة أصبحت بادية للعيان منذ العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر. وبالرغم من أن البلاد كانت أمّية على نطاق واسع، فإن العبيد والسود الأحرار طوروا تركيبتهم الخاصة من الدين والثقافة، منشئين عالماً منفصلاً شعروا فيه بأنهم أحرار. وأمكن تبيان أن ذلك لم يكن هروباً وحسب، من خلال النسبة الواسعة من الكوبيين السود الذين قادوا التمردات وشاركوا في حروب الاستقلال، وغالباً واصلوا الكفاح حتى بعدما وافق الزعماء الأوروبيو الأصل على تسوية. وقد أُعدم عدد من الموسيقيين السود غداة انتفاضة قادها السود.[1]

---

(١) تعلّمت الكثير من دراسة أنتوني كاباسيا المهمة عن تكوين الهوية الوطنية الكوبية، Antoni Kapacia, *Havana: The Making Of Cuban Culture*, London and New York, 2005.

ووفّر دخول آلات الطباعة إلى المستعمَرة في الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر، الأساسَ لثقافة مستقلة عن العاصمة، وأظهرت الصحافة، بالرغم من الرقابة، نبضاً بالحياة عكس الثقافة الأوسع للجزيرة.

شعرت كوبا بقوة ببعض أسوأ تأثيرات الحياة السوفياتية الأدبية ومعاييرها إبان عهد بريجنيف الراكد، وكان التأثير أكبر في الحيّز الخاص بالأدب والجنس، منه بالسينما التي سارت في شكل أفضل. وفي ظل القيادة الحذرة، والمبدعة في آن، لألفريدو غيفارا، وفرت المؤسسة الكوبية لفن السينما وصناعتها ملجأً أمكن فيه بضعَ دزينات من الأزهار أن تنضر. وساعد وجود عملاق سينمائي مثل توماس غوتييرّيز آليا، يحيط به زميلان يملكان خبرة وموهبة من الوزن الثقيل، هما أوكتافيو غوميز وأومبرتو سولاس، على هزيمة المحاولات الأكثر فظاظة لفرض الرقابة. وتم جهارة تحدّي كل الاقتراحات التي تضمنتِ معايير جامدة، شكلية، وجمالية. وفي الوقت نفسه، كان سانتياغو ألفاريز يُنتج فيلماً وثائقياً أعجبت شاعريته الصديق والعدو. واستخدم ألفاريز القلّة التي فرضها الحصار الأميركي لأفضل تأثير: فاستخدامه الصور الفوتوغرافية، والكليبات التلفزيونية، والصحف القديمة، أعطى حياة جديدة للكولاج (عمل فني تصويري يكون بلَصق قطع الورق بطراز معيّن على الصفحة أو اللوحة) بوصفه شكلاً من أشكال الفن. وذُهل كريس ماركر وجوريس أيفنس بـ «الآن» Now، و«النصر على الدوام» Hasta La Victoria Siempre، و«هانوي، و١٣ آذار/مارس» Hanoi

Martes 13. ولو أن آينتشتاين لا يزال حياً، لأُعجب ودُهش، كما فعل زائر ضال من هوليوود، هو فرانسيس فورد كوبولا، الذي شاهد عمل ألفاريز (كان ذلك في أواخر الستينيات)، وعلّق: نحن لا نملك حسنات مساوئهم.

وفي هذه الأيام، تركز المؤسسة الكوبية لفن السينما وصناعتها، في شكل كبير، على تنظيم مهرجان هافانا السينمائي. وقد التقيت ببعض صانعي الأفلام. وبالرغم من أنه من غير الإنصاف أن نحكم عليهم على أساس لقاء سريع، فإن انطباعي هو أن صانعي الأفلام الكوبيين يعملون تحت إكراه السوق العالمية، باحثين عن مشاريع تجارية يمكنها الحصول على تمويل من الخارج، ويعانون في شكل يفوق الحد، بسبب هاجس إنتاج مسلسلات للسوق الأميركية اللاتينية. ولربما وُجد بعض المؤلفين المختبئين في مكان ما، سيبرزون فجأة مثل الخلد العجوز، ويفاجئوننا جميعاً.

وشكك الكثيرون من الروائيين الكوبيين أيضاً، في مفهوم أن الأدب التخيّلي مبتذل ولا داعي له. ويمكن الشعور بالعبء الكبير للتقاليد البيروقراطية والنقدية وراء بعض الانتقادات، بالرغم من أن الأمر لم يصل إلى حد الهجوم الفلسطيني philistine [نسبة إلى قبائل الفلسطو التي حاربت العبرانيين في العهد القديم ـ المترجم] لكارل رادك على كتاب عوليس Ulysses لجيمس جويس في مؤتمر الكتاب السوفياتي في أوائل الثلاثينيات، وهذه دلالة إلى عقم الواقعية الاشتراكية.

إلا أن رؤساء الدوائر الثقافية كانوا في حالة مراقبة دائمة لاقتلاع كل المشاعر المعادية للدولة، أو أي شِعْر مظلم أو فاحش، أو أي أدب خيالي يصوّر المثلية الجنسية. استُعير السند العقلي من روسيا القيصرية والستالينية. وبالرغم من أن التحامل على مثليي الجنس كان المقياس العالمي في ذلك الوقت، فإنه كان، برغم هامشيته، أكثر سوءاً في أميركا اللاتينية، حيث كانت الثقافة الرجولية قوية في شكل خاص، ولم تترافق حركات التحرر الجنسي مع نمو أقصى اليسار أو مجموعات الكفاح المسلح. كان يتم القبول بالمثلية الجنسية في أكثر أشكالها القمعية والسرّية، بالرغم من أنه عُرف عن أليخو كاربنتيير إيحاؤه في مجالسه الخاصة، بأن الشهوة المثلية الجنس كانت مكمّلة لثقافة القوات المسلحة الثورية.[١]

تغيّر الكثير من هذا. فالروائي آبل بريبتو، وهو حالياً وزير

---

(١) Robin Blackburn, 'Putting the Hammer Down on Cuba', *New Left Review* 4, July-August 2000.
تحتوي هذه الدراسة أيضاً على رواية ذات دلالة عن جمهورية الموز المايامية، وكيف تؤثر في واشنطن، بالإضافة إلى وصف مؤثر عن كيف تبقى كوبا حيّة في الأزمنة الصعبة. وقد تحسّن الوضع كثيراً منذ ذلك الوقت. إلا أن بحث بلاكبورن يوفّر تصحيحاً مهماً للثابتة الموجودة في الأكاديمية الأميركية وفي الإعلام، بما في ذلك «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، حول كوبا الواقعة في فخ أولوية حقوق الإنسان، ومساهمات ألما غيّرموبريبتو في «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، وهي طبقة قائمة بنفسها للاتجاهات البكائية: انظر «زيارة إلى هافانا»، «حب وبؤس في كوبا»، «فيدل في المساء»، «الهيت ـ باراد الكوبي»، Cuban Hit Parade.

الثقافة، انتقد علناً اضطهاد بضعة من الشعراء والروائيين في الستينيات. أدرك أن عالم الثقافة الاصطناعي يسيطر عليه الضعف. والإبداع فيه إما مغمور، وإما مقنّع بشدة. وتنتشر في كوبا روايات كابريرا إينفانتي ورينالدو أورينياس، وهناك محاولة جدية لوضع خط تحت ماض يأسف له الكثيرون. وسيكون مفيداً للبلاد وشعبها إذا ما امتدّ وضع مشابه إلى وسائل الإعلام المكتوبة والتلفزيون. كانت لي دائماً وجهة نظر بأنه في إمكان الثورات أن تحسّن الديموقراطية بطريقة هي (خصوصاً في عالم اليوم) ممنوعة في العالم الرأسمالي. فالنقاش العام، والانتقاد، وتبادل وجهات النظر المتناقضة، ستقوّي كوبا وتعطي سلطة وسلاحاً لشعبها، وهو قد أصبح من بين الأكثر تعليماً في العالم. وهذه الآن ضرورة سياسية لا يجب تأجيلها إلى ما لا نهاية.

تنتظر واشنطن موت الختيار. وعندها سيبدأ هجوم جديد. سيكون هجوماً اقتصادياً وعسكريا، وسوف تقوم حينها بعرض المال بكميات غير محدودة لشراء ولاء شعب الجزيرة، واعدة إياه بجنة استهلاكية إلى الأبد. وإذا نجحت السياسة الأميركية في ذلك، فسوف يشكل ذلك مأساة لكوبا وأميركا اللاتينية. والخيار في الأزمنة الليبرالية الجديدة هو بين الدمار من خلال خصخصة النظام المتميّز للصحة والتربية والثقافة الذي تم بناؤه هنا، وبين تقوية الثورة من خلال المحافظة على مكاسبها عبر إنشاء آلية داخلية فعالة تجعل الزعامة والسياسة المنبعة في مواجهة مسؤولياتهما أمام الشعب. ولن يحدث هذا بين ليلة وضحاها. لكن من المجدي العمل لحصوله. وربما لم يكن الأمر مصادفة

كاملة أن يتم في صيف ٢٠٠٦، نشر مخطوطة وملاحظات غير منشورة لتشي غيفارا حول الاقتصاد السياسي. فالاعتماد الاقتصادي على الاتحاد السوفياتي القديم، كان ضرورة، نظراً إلى الحصار الأميركي. أما الاعتماد التربوي فكان عبئاً. فمعظم الكتب الدراسية السوفياتية في الاقتصاد والعلم السياسي، كانت بدائية وذريعية الفكر. وقد تم وقفها. لكن اقتصادات ساموِيلسون، وحدها، ليست حلاً مثالياً. ولاحظ تشي أن:

... لدينا التزام شديد بألا نُخفي رأياً وحيداً لأسباب تكتيكية، بينما نقوم في الوقت نفسه باستخلاص النتائج، أنه بسبب تشددها المنطقي ودرجتها الرؤيوية العالية، قد تساعد على حل المشاكل، وليس فقط طرح الأسئلة من دون حلول. نعتقد أن العمل مهم لأن البحث الماركسي في حقل الاقتصاد يسير في مسالك خطيرة. فالعقيدة المتشددة في زمن ستالين تبعتها براغماتية متقلّبة. والمأساوي، هو أن هذا لا يشير إلى حقل عملي معطى، بل يجري في كل نواحي الحياة في البلدان الاشتراكية، خالقاً اختلالات مضرّة بالفعل، ولا يمكن قياس عواقبها النهائية.

كُتب هذا منذ نحو نصف قرن. وبينما النبرة النقدية مثيرة للإعجاب، فإن النص في كنهه ذو طابع إرادي، مؤتلف مع كتابات تشي الأخرى.

وتجب مناقشته بجدية، بما أنه يحتوي على تحذيرات عالمة بالشيء قبل حصوله، حول لماذا قد يتقوّض الاتحاد السوفياتي وينحو إلى الرأسمالية. والسؤال المهم الذي لم يطرحه تشي هو:

هل تتحرك الجماهير السوفياتية لمنع عودة النظام القديم؟ هل يشعر شعب الاتحاد السوفياتي بأنه كانت له مصلحة في النظام القديم؟ هذه الأسئلة ليست مجرّدة، وستصبح مهمة بعد موت فيدل كاسترو.

وماذا عن الختيار نفسه؟ دخل في آب/أغسطس ٢٠٠٦ في الثمانينيات، وها أنه قد شهد مرور خمسة رؤساء أميركيين، حاول كل منهم الإطاحة به بكل الوسائل الضرورية تقريباً، وإعادة كوبا إلى وضعها السابق، مجرد تابعة لسياسات الولايات المتحدة. ومات أيضاً أبغض الناس إليه في ميامي، خورخي ماس كانوسا. وبالرغم من أن البيت الأبيض يشن حملات سياسية وإعلامية في شكل دائم، ويشير إليه بوصفه أثراً غابراً، فهو لا يزال صامداً. ومن الصعب تفادي حضور فيدل كاستر في ضمائر شعوب أميركا اللاتينية، بسبب رحلاته المنتظمة بين دولها وعواصمها. فقد أصبح أيقونة قارية في عرف مارتي وبوليفار. فالتاريخ والموقع ساعدا كوبا على تفادي مصير أوروبا الشرقية.

لماذا لم يتقاعد فيدل كاسترو مثلما فعل نلسون مانديلا؟ لأنه يعرف أن الكفاح لم ينته بعد؛ وأن هافانا ليست جوهانسبرغ؛ وأن ما من أصحاب ملايين ومليارات من ميامي سيساهمون في بناء تمثال بحجمه ليُستخدم خلفية لتصوير بعثات رجال الأعمال الهادلين الزائرة من العالم المعولم؛ وأيضاً، وهذا هو الأهم، لأنه مثل بوليفار، يفكّر قارياً، وليس في الأرصدة المصرفية، ولديه حس حقيقي بالتاريخ، وتأرجحاته، ومفاجآته، ومراراته.

قلة كانوا، منذ عشرين عاماً، ليعتقدوا أن التطلعات التي عبّر عنها بيان هافانا الأول ستحصل على زخم هائل من خلال انتخابات ديموقراطية في فنزويلا وبوليفيا.

وذُكر ان الختيار قفز فرحاً مثل مراهق في مباراة كرة قدم عندما تأكدت النتائج في لاباز في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥. أَبعِدِ المراهقة تُبعدِ الأحلام. وهو يعرف، أفضل من الجميع، الفرق الكبير بين الثورات والانتصارات الانتخابية. الثورات تبدأ بالشطط والإفراط. وهي ترقص على إيقاع وقع الطبول الطوباوية التي لا يمكن الآخرين سماعها، وزعماؤها ينظرون دوماً إلى الأعلى، ويتساءلون متى تبدأ النجوم في المطر. وهي لا تمطر ولن تمطر، وعند هذا الحد تبدأ الحياة الواقعية. ولم يمكن تشي قط أن يتوقف عن سماعها، ومضى إلى بوليفيا لمواصلة الرقصة. كان لا يزال يرقص عندما قتلوه.

الانتصارات في كاراكاس ولاباز هي من طراز مختلف. إلا أنها، في عالم بدأت الثروة فيه تصبح سفيهة باطراد، تحدد نهاية مرحلة الهزائم والتراجعات، وبداية مسيرة جديدة إلى الأمام في ظروف صعبة. وسبق للثورة الكوبية أن قدّمت أملاً جديداً لقارة مصابة بما أشار إليه إيمي سيزايري، على أنه جذام المحاكاة البشع، لكنها وُضعت بقساوة في الحَجْر الصحي. وكسرت البوليفارية عزلتها. ويمكن المرء أن يأمل فقط أن تبقى كوبا حية بعد زعيمها.

الفصل السادس

الماضي كخاتمة:
حيوات سيمون بوليفار

في ذلك الوقت... كان يتمتع (بوليفار) بالمظهر الغريب لمقاتل عصابي متسكع دخيل. ارتدى خوذة فارس روسي، وبابوج مكاري، وسترة زرقاء برزكشة حمراء وأزرار ذهبية، وحمل الراية السوداء لسفينة قراصنة مرفوعة على رمح رجل سهول، والجمجمة والعظمتان المتعارضتان يعلوها شعار بأحرف من دم: «الحرّية أو الموت».

غابرييل غارسيا ماركيز، «الجنرال في متاهته»

Gabriel Garcia Marquez, *The General in His Labyrinth*, 1990

كان بوليفار قرصاناً سابقاً في الكاريبي. فحياة بوليفار، المولود عام ١٧٨٣ ـ في منتصف الطريق بين إعلان استقلال الولايات المتحدة واندلاع الثورة الفرنسية ـ وأفكاره، ستتأثر في شكل غير متناظر بالحدثين. وإذا أمكن طرد البريطانيين من الأميركتين على يد شعب ينتمي إلى العرق والدين نفسيهما، فلمَ لا يكون طرد الإسبان من الجنوب متاحاً؟ فثلاثمئة عام من الحكم الاستعماري ـ بدءاً بسقوط المكسيك وانتهاءً بغزو البيرو ـ كانت أكثر من كافية. وإذا كانت الحكمة العليا لعصر التنوير

الفرنسي وضعت أسس الثورة الفرنسية، أوَلا يمكن أن تخدم الهدف نفسه في أميركا الإسبانية؟ وسيأتي الكثير من ذلك لاحقاً، مع سفر بوليفار عبر أوروبا، مقارناً انحلال بلاط مدريد وخموده مع خميرة باريس الثورية، وإن كان ذلك عشية تتويج نابوليون. وستبقى باريس، حتى هزيمة نابوليون وعودة العرش، متفوقة على مدريد وسابقة فيلادلفيا بأشواط. وبالطبع هناك لندن. لم يكن في الإمكان تجاهل لندن، الختّالة، المراوغة، الانتهازية. فقد بقيت، بالرغم من خسارة مستعمرتها الأميركية، قطب الرحى لامبراطوية قوية ومتنامية، والأهم من ذلك، تلك التي لا يمكن اليوم تحدي سيطرتها على البحار. ولهذا السبب وحده، كان يجب استمالتها إلى قضية استقلال أميركا الجنوبية، وتذكيرها بمصالحها الامبريالية الخاصة في الأميركتين.

من بين جميع الزعماء الثوريين الذين امتطوا أوروبا والأميركتين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان الهدف السياسي لبوليفار هو الأكثر جرأة. فلمْ يطالب بأقل من تحرير كامل القارة المتحدثة بالإسبانية وتوحيدها. وما لا شك فيه أن سان مارتين، وأوهيغينز، وسوكري، كانوا جنرالات لامعين، لكن بوليفار فاقهم كثيراً بقدرته على التفكير الاستراتيجي. علمته التجربة أنه لو سُمح حتى لقاعدة إسبانية واحدة بالبقاء في القارة فستصبح بؤرة استقطاب للثورة المضادة. وعلى مدى ١٥ عاماً، ثبت على مقاومة ملحمية للامبراطورية الإسبانية، قائداً سلسلة من المسيرات الطويلة عبر جبال الأنديز لا مثيل لها في التاريخ المناهض للاستعمار. ونجح أخيراً، في ١٨٢٥، في طرد نواب الملك وجنرالات الجيش الإسباني. إلا أنه، بالرغم من أن حركة التحرير تسيطر الآن على منطقة أكبر بخمس مرات من

أوروبا، لا تزال وحدة القارة بعيدة المنال. فالفكرة ومُطلقها فاخرا بنفسيهما حتى الموت. وفي ١٨٣٠، وبينما كان بوليفار طريحاً يحتضر من السلّ في مزرعة بعيدة في سانتا مارتا، محاطاً فقط بعدد قليل من أصدقائه المخلصين وخدمه بعيداً جداً عن المدن التي حرّرها، قارن كفاحه لتوحيد أميركا الإسبانية بحراثة البحر. وشدد تكراراً على ضرورة البدء من جديد.

بالرغم من إنجاز بوليفار الفريد، اتجه اليسار المتشدد في الأميركتين وغيرهما إلى تحاشي موضوع بوليفار، وتعاملوا مع ملاحظات ماركس القليلة المعرفة بالموضوع بوصفها كتاباً مقدساً، والتي ـ حتى عهد قريب ـ تركت الساحة مفتوحة كلّيا.[١] بيد أن

(١) John Lynch, *Simon Bolivar: A Life*, New Haven and London, 2006.

هذا الكتاب الذي صدر في وقته، هو سيرة الحياة الجيدة الأولى للمحرر منذ أكثر من نصف قرن، والأولى التي يكتبها مؤرخ يتحدث الإنكليزية. وهي إضافة ذات شأن إلى معرفتنا ببوليفار، وتحتوي بصفة خاصة على معلومات عن مسألة العرق المؤلمة. وهنا يتقدم لينش على كاتبَيْ سيرة بوليفار الأكثر تميزاً، إميل لودفيغ وغرهارد مازور، وأعمالهما متوفرة بالإنكليزية. وكلاهما ألماني فرّ من الرايخ الثالث ـ الأول إلى سويسرا، والثاني إلى كولومبيا ـ لكنهما استمرا في اعتبار الحضارة الأوروبية متفوقة فطرياً على حضارة سكان البلاد المستعمَرين. وشعر كل من المؤرخين الألمانيين الأصل بالحاجة إلى السخرية من سابقه. وأشار مازور إلى لودفيغ على أنه ليس صادقاً ولا عميقاً. وكتب لينش بتهذيب أكبر عن عمل مازور الذي يُظهر تقدمه في السن. وتعكس سيرة لينش أيضاً روح عصرها الأكثر تماثلاً. إلا أن الروايات الثلاث، إذا قُرئت بالترادف، تقدم صورة أخاذة لموضوعها، حيث إن ضعف كل منها يلقي ضوءاً على قوة الأخرى.

لصعود بوليفار، وهبوطه، وسقوطه، أبعاداً شيللريّة: سياسة، أهواء، حروباً، انتصارات، وخيانات. لقد شبّه كارلايل بوليفار بعوليس الذي تطلّب هوميرا ليفيه حقّه. وماركيز هو أقرب ما حصلنا عليه إلى هذا الأمر. ولهذا السبب، فإن عمل كتّاب سيرة بوليفار، حتى لو أُخذوا جماعياً، يجد منافساً حقيقياً في رواية غابرييل غارسيا ماركيز التاريخية الأخاذة، «الجنرال في متاهته». ويحتوي هذا العمل الخيالي على فيض من التفاصيل الواقعية، وفراسة نفسية نادرة يجب أن تكون مثار تقدير لكل كتّاب السيرة.

وقائع حياة بوليفار معروفة جيداً. وهو كاتب رسائل عظيم، ترك وراءه مجلدات من الرسائل، واليوميات، والتصريحات. وقام أحد معاونيه، المدعو دانييل فلورنسيو أوليري، بتسجيل الكثير من الأمور يومياً، وأصدر في وقت لاحق رواية من ٣٤ مجلداً عن حياة بوليفار وحملاته، هي كناية عن خارطة ملاحة، أصبحت، بالرغم من مقاطع متناقضة، قراءة ضرورية لكل كاتب سيرة. وإعادة تركيب حياة بوليفار من هذه النقطة وحدها، لن تكون بمثابة هذا المسعى الشاق. فكل من كاتبي سيرته الثلاثة، شدد على مظاهر مختلفة من شبابه. وهناك تفسيرات متنوعة للظروف التي أدت إلى جعل شاب من عائلة ميسورة يصبح راديكالياً، وكان يمكنه أن يعيش حياته الخاصة المرفهة، من دون اهتمامٍ بأحوال دول أميركا اللاتينية والفقر والقهر اللذين تعانيهما. ولا يزال وصف مازور للحياة الفارغة التي عاشتها الأرستقراطية ذات الأصل الأوروبي، التي لم تتأثر طوال ٢٠٠ سنة بالحرب أو الثورة، يحتفظ بقوته:

الترف، الإسراف، الخمول، واللذة، ميزت حياة الطبقات العليا البيضاء... فهي عاشت الحياة المخزية لليعاسيب (ذكر النحل الذي يعيش من تعب غيره)، محاطة بطائفة من العبيد، منقطعة عن أي اتصال ببقية العالم، في مناخ تُحبّذ فيه البطالة. ليست هذه الوقائع هي المفاجئة، بل المفاجئ هو أن هؤلاء الناس لم تفسد أطباعهم أكثر...

كيف تخلّص بوليفار الشاب، الذي ينتمي إلى واحدة من أكثر العائلات ثراءً التي تملك عبيداً في فنزويلا، من هذه البيئة المفسدة؟ تيتّم في سن مبكرة ـ ثلاثة أعوام عندما فقد والده، وتسعة عندما توفيت والدته ـ، وكان له ثلاثة أخوة أكبر منه سناً، ووُضع في عهدة عمه، وكان يمقته. وغالباً ما كان يُرخى له ولأحلامه العنان، إلى أن قرر عمه وولي أمره أن الولد يحتاج إلى تعليم، وأرسله إلى مدرسة كاراكاس الرسمية في ١٧٩٣. كره بوليفار ذلك أيضاً، وما لبث أن فرّ إلى منزل شقيقته الأكبر منه سناً. وتم في مآل الأمر الاتفاق على أن يعيش مع معلّمه سيمون رودريغيز. وكان رودريغيز متعلّقاً أشد التعلق بالثورة الفرنسية، ومعادياً بعنف للإكليروس، وثورياً، ومؤمناً بالحب الوصالي، وقد كتب في إحدى المناسبات إلى صديق له: «الرجاء أعد إلي زوجتي في وقت قريب. فأنا أحتاج إليها للهدف نفسه الذي تحتاج إليها أنت». واضطر إلى الفرار من فنزويلا بعد اكتشاف مؤامرة تُدبَّر للتمرد عليه، وإلى تغيير اسمه إلى روبنسون (تيمناً ببطل رواية ديفو)، وإلى أن يهيم كالشريد في أنحاء أوروبا.

واكتشف روبنسون الشاب، وهو في فرنسا، أعمال هولباخ وروسو، وسيبقى راسخاً في إيمانه بها ما بقي من حياته.

ووجد رودريغيز في بوليفار الشاب المنفتح الذهن والذكي، إميله Emile، وحَشَا رأس الفتى الشاب بمزيج من الفلسفة الفرنسية والقصص البطولية للمقاومة والكفاح. وتحدث إلى بوليفار عن ثورة التوباك أمارو في البيرو منذ أعوام قليلة مضت، وكيف أخذت الامبراطورية على حين غرّة، وكيف أن توباك تعرض للخيانة من جماعته، وما أعقب ذلك من عقوبات. فقد عذّب جنود الملك الإسباني زعيم الأنكا المهزوم علناً، وقتلوه، بينما كانت الأرستقراطية الأوروبية الأصل تتفرج من عرباتها. ترك ذلك كله أثراً كبيراً في بوليفار. وأصبح هو أيضاً، مع الوقت، مدمناً على روسو، وكتب لمعلمه القديم: «لقد سلكت الطريق التي أريتني إياها... لقد ربّيتُ قلبي على الحرية، والعدالة، والعظمة، والجمال». وفي وقت لاحق، جاء مبعوث بريطاني إلى بوليفار، دوزنَ نفسه تماماً على رادار الجنرال، ومعه هدية، وهي حصة صغيرة من غنائم ما بعد واترلو: نسخة نابوليون من العقد الاجتماعي. لم يكن للبريطانيين أي أوهام بالنسبة إلى الجهة التي يتعاطف معها. وبث رودريغيز أيضاً في الفتى إلحاداً على مدى الحياة، وارتياباً في الدين.

عندما وصل سيمون بوليفار ذو الـ ١٦ عاماً للمرة الأولى إلى مدريد في ١٧٩٩، مرتدياً الحلة النظامية للأرستقراطيين ذوي الأصل الأوروبي، لقي استقبالاً من المجتمع الراقي. وأبهره

البلاط، واستضافه معارفه ببذخ. تلقّى تعليماً أرفع من تعليم المركيز دي أوستاريز، وهو مسؤول إسباني مثقف مولود في فنزويلا. وسرعان ما أدرك الفتى الشاب، وساعده في ذلك «لقاء كريه» مع بعض الضباط، أن الأوروبي الأصل من المستعمرات، مهما يكن لون بشرته فاتحاً (على عكس بشرة بوليفار)، لن يُعامَل مطلقاً بمساواة في إسبانيا. وأصبحت الليمبييزا (أصالة الدم) هاجساً في شبه الجزيرة بعد إعادة احتلالها. وبرغم ذلك، لم تكن فكرة الانضمام إلى التمرد أو القيام به ضد الحكم الإسباني في الأميركتين، قد تملّكت رأسه بعد. كانت الأمثولات التي علّمه إياها رودريغز تحتبس في لاوعيه، لكن، لم تكن لديه أدنى فكرة، على سبيل المثال، عن واقع أنه في ١٧٨٣، بعد قليل من إعلان استقلال الولايات المتحدة ومن مجيئه هو إلى العالم، أرسل أحد رجال البلاط البارزين، المدعو كونت أراندا، مذكرة تنبئية في شكل مدهش إلى مليكه (سابقاً الفلاسفة الفرنسيين بأشواط، وقلة منهم فكّرت سياسياً في المستعمرات)، محذراً من حماقة محاولة التشبّث بالمستعمرات بالقوة، وموصياً بالحكم الذاتي، ومتوقعاً نهضة الولايات المتحدة:

لا يمكن الاحتفاظ بالممتلكات العظيمة إلى الأبد. ويصير الوضع الحالي أكثر صعوبة من جراء المسافات الهائلة، وبطء السلطات، وأنانية الحكومة... الجمهورية الصغيرة جداً (الولايات المتحدة)، التي تحتاج قطعاً إلى فرنسا وبريطانيا اليوم لتكون موجودة، ستنمو في يوم من الأيام لتصبح عملاقاً، وستنسى كل الفوائد التي حصلت عليها من أيدي القوتين، وستحلم فقط بالجبروت. فحرية الوجدان، والنمو

السكاني الهائل في تلك الأراضي الشاسعة، وفوائد الحكومة الجديدة، ستجذب العمال والفلاحين من كل البلدان، لأن البشر يسعون إلى النجاح. وسيأتي يوم سنشعر فيه متألمين بجبروت المارد. وسيحاول عندها ضم فلوريدا وخليج المكسيك إلى سلطته، وسيُعيق تجارتنا مع إسبانيا الجديدة، ويسعى إلى احتلالها، بما أن البلدين قويان ومتلاصقان، بينما ستتمكن بصعوبة من الدفاع عنها. هذه التوجسات، يا مولاي، لها أساس قوي، ما لم تُجهض تحقيقَها تغييرات أخرى، أكثر خطورة، في أجزائنا من أميركا. وسيتألب كل شيء لحث أتباعنا على القتال من أجل استقلالهم في أول فرصة سانحة.

علينا، إذاً، أن نتخلّى عن كل ممتلكاتنا، ونحتفظ فقط بكوبا وبويرتو ريكو في الشمال، وبجزء صغير من الجنوب لتتوفر لنا موانئ تجارية. ولتحقيق هذه الفكرة العظيمة بطريقة تليق بإسبانيا، يجب تتويج ثلاثة من أبنائك ملوكاً على المكسيك والبيرو وكوستا فرما، على أن تحصل جلالتك على لقب امبراطور. ويجب أن تُبنى التجارة على أسس من المساواة التامة. وعلى الأمم الأربع أن تشعر بارتباطها مع بعضها البعض، بتحالف هجومي ودفاعي، من أجل صلاحها المشترك. وبما أن صناعتنا غير قادرة على توفير كل الحاجات لأميركا، فعلى فرنسا أن ترسلها. أما بريطانيا، من جانب آخر، فيجب استثناؤها بشدة...[1]

وصرف شارل الثالث أراندا بوصفه متشائماً. وخليفته، شارل

(١) Quoted in: Emil Ludwig, *Bolivar: The Life of an Idealist*, New York, 1942, p. 56.

الرابع، المنغمس في ملذات الصيد، وملكته، التي مارست السلطة الحقيقية من غرفتها مع قطار الوجهاء الداخلين والخارجين من سريرها المظلّل، كانا على قدر متساو من الاهتمام بمثل هذه الأفكار. وفي الوقت الذي وصل فيه بوليفار إلى البلد الأم في نهاية القرن، كان البلاط والمجتمع قد أصبحا أكثر ركوداً. وألهى نفسه عن الحقائق الإسبانية بوقوعه في حب ماريا تيريزا رودريغز دل تورو، وهي جميلة شابة من عائلة إسبانية ـ فنزويلية من الطبقة العليا تملك عقارات في بلاد الباسك. وفي زيارة قصيرة إلى فرنسا في ١٨٠٢، تأثر بجنرال شاب اسمه بونابرت، ووقع في الحب من جديد، لكن هذه المرة مع باريس ما بعد الثورة. عاد إلى مدريد، وتزوج بماريا تيريزا، وعاد إلى مزرعته الكبيرة في فنزويلا، مصمماً على بناء عائلة وتحسين عقاراته وأعماله. وبعد ستة أشهر فقط ماتت زوجته بالحمّى. وأصبح بوليفار المفجوع وحيداً مرّة أخرى. وأقسم إنه لن يتزوج بعد ذلك مطلقاً، معتمداً في الأعوام التي تلت على معاشرة عدد كبير من النساء للعزاء. واحدة فقط من بينهن، هي الـ «كويتينيا»، مانويلا ساينز (المتزوجة برجل إنكليزي، هو الدكتور ثورن)، ستبقى العشيقة، والأمينة، وشقيقة الروح، والحليف السياسي لبقية حياته، بالرغم من أنها كانت تغيظه، أحياناً. وعندما عادت الأيام الكالحة، لاحقاً، بعد الاستقلال، ائتمنها على أرشيفه الذي حافظت عليه إلى أن أمكن نقله بأمان إلى دانيال أوليري في جامايكا، الذي كان يعمل جاهداً على وضع كتاب عن تاريخ المحرِّر.

غادر بوليفار فنزويلا بعد وفاة زوجته، وأمضى الفترة الفاصلة بين عامي ١٨٠٤ و١٨٠٦ في فرنسا وإيطاليا. وتلقى صدمة أخرى بعودته إلى أوروبا. وشاهد، وهو في باريس، الجماهير تحتفل بتتويج نابوليون. وشعر بوليفار باضطراب وارتباك عميقين. لقد تعرّضت الجمهورية لخيانة من الداخل. ولاحقه شبح نابوليون ما بقي من حياته. جاءت ملاحظات رودريغيز مقذعة، لكن بوليفار واصل إعجابه بعبقرية الكورسيكي العسكرية. وعندما، وصل حفيد لبونابرت بعد عقود على ذلك، إلى أميركا الجنوبية للقتال إلى جانبه، اهتزّ بوليفار فرحاً. وكان أن بوليفار، في هذه المناسبة في باريس، التقى المستشكف ألكسندر فون هومبولدت العائد حديثاً من أميركا اللاتينية. واستمع بدهشة بينما كان الألماني يصف جمال أميركا الجنوبية. وأمعن في التفكير عندما تساءل هومبولدت إذا كان في وسع الأقلية الإسبانية أن تتمسك إلى ما لا نهاية بمستعمراتها. إلا أن الأخير، على غرار مفكّري عصر الأنوار (شكّل توم باين استثناءً وحيداً)، لم يكن ليتصوّر أيضاً استقلالاً كاملاً للشعوب التابعة. وترك الاجتماع مع هومبولدت تأثيراً قوياً في بوليفار، ودفعه إلى التفكير جدّياً، للمرة الأولى، في الاستقلال. وما إن قام بوليفار بذلك، فإنه، على عكس آخرين من طبقته، لم يساوم على هذه المسألة، بل أراد سيادة كاملة. وفات الأوان الآن على حلّ أراندا. وعلى ما أدركه هومبولدت لاحقاً، فإنه من السخافة الاعتقاد أن ما يلاحظه الإنسان هو كل ما هو موجود: خلال فترتي في أميركا، لم أواجه قط أي تململ. لاحظت أنه، بالرغم من غياب الحب

الكبير لإسبانيا، كان هناك على الأقل تماثل مع النظام المثبت. ولم أدرك، إلا لاحقاً، ما إن بدأ الكفاح، أنهم أخفوا الحقيقة عني، وأنه عوضاً عن الحب، كان هناك حقد دفين جداً.(١)

لعب بوليفار دوراً قيادياً في هذه الأحداث. لكنه لم يكن أول من انبرى لقضية الاستقلال: فهناك سابق له في شخص فرانسيسكو دي ميراندا، وهو أيضاً فنزويلي، ووجه مميز ولو

(١) Quoted in: Lynch, *Simon Bolivar*, p. 36.

أحدث الحكم الإسباني انقسامات حادة على مستويات العرق والطبقة. وتشكّل سيرة الحياة التي وضعها جون لينش، من حيث التوثيق، تقدماً لا نزال فيه على سابقيه. وهو يناقش التناقضات داخل حركة التحرير حول مسألة العرق وإرثها في أميركا الجنوبية بعد الاستعمار، ففي نهاية العصر الاستعماري هيمن على فنزويلا عدد صغير جداً من الإسبان ومن نخبة الأوروبيي الأصل ـ أقل من نصف في المئة من مجموع السكان الـ ٨٠٠ ألف، بحسب لينش ـ الذين تولوا الإدارة الاستعمارية وامتلكوا مزارع المواشي والمزروعات في الداخل. وكان نحو ربع الفنزويليين من الأوروبيي الأصل الأكثر فقراً، عملوا كحرفيين وفي التجارات الصغيرة. وكان نصف السكان من الباردوس ـ إثنية تتضمن السود، والخلاسيين، والمستيزوس والزامبوس، أي أولئك المتحدرين من مزيج من السود والسكان الأصليين ـ بينما كان عُشر السكان من العبيد السود العاملين في حقول الكاكاو، والتبغ، والقطن، ونبات النيل. وبالرغم من أن النخبة استاءت من الضرائب التي فرضتها السلطات الإسبانية في مدريد، ومن الضباط الاستعماريين، فإنها حاذرت الاستقلال خوفاً من أن ذلك قد يشجّع الأغلبية من الباردو على إثبات وجودها. وتطلب الأمر غزو نابوليون لإسبانيا في ١٨٠٨، وما تبع ذلك من أزمة في شبه الجزيرة، لإقناع الأوروبيي الأصل بالدفع نحو الاستقلال، الذي أُعلن في مآل الأمر في ١٨١١.

كان غريب الأطوار بعض الشيء. لم تكن العلاقات سهلة بين الرجلين، واللوم فيي ذلك يقع عليهما معاً. وأدى ذلك في النهاية إلى أكثر الفصول عاراً في حياة بوليفار. فإعلان الاستقلال في كاراكاس في عام ١٨١١، أدى إلى رد فعل معاد من الملكيين في الريف. وقام بوليفار وغيره ممن أغضبهم عرض ميراندا بوقف إطلاق النار في ١٨١٢، باعتقال قائدهم الأعلى، وسلّموه لاحقاً إلى الأعداء. وسيمضي ميراندا ما بقي من حياته يتعفّن حتى الموت في سجن قادش. ومن قدوم بوليفار الحديث سيتأتى العزّ والمجد اللذان سعى إليهما كثيراً، بوصفه القائد الذي أخرج في النهاية الإسبان من القارة التي جعلوها قارتهم.

أصبح بوليفار قائداً عسكرياً انطلاقاً من الحاجة السياسية. وكما لاحظ ماركيز: «لم تكن له ثقافة أكاديمية يمكن حتى مقارنتها بثقافة أي من ضباطه، ومعظمهم تعلّم في أفضل المدارس العسكرية في إسبانيا، لكن كانت له قدرة على أن يتصوّر ذهنياً موقفاً بكامله في أدق التفاصيل».[١] وهذا ليس بالإنجاز البسيط عندما يتعلق الأمر بتحرير قارة بأكملها. أضف إلى ذلك الجغرافيا الصعبة التي صادفها، والتي تمتع بها أيضاً بالرغم من المشاق الكثيرة، كما بيّن ذلك في ١٨١٣، في خطابه الشاعري ـ رحلة تحرير سياسي ـ إلى مواطني كاراكاس لمناسبة محاولتهم الثانية التخلص من السيطرة الإسبانية:

(١) Gabriel Garcia Marquez, *The General In His Labyrinth*, New York, 1990, p. 206.

وصل محرروكم، من ضفاف نهر ماغدالينا الزاخر إلى وديان أراغوا المزهرة، ومن ساحات هذه العاصمة العظيمة، وعبروا، منتصرين، أنهار زوليا، وتاشيرا، وبوكونو، وماسبارّو، وبورتوغيزا، ومورادور، وأكاريغوا؛ عبروا الهضاب المعرَّضة للريح، والجليدية لموكوتشيس، وبوكونو، ونيكيتاو؛ شقوا طريقهم عبر الصحارى وجبال أوكانا، وميريدا، وتروخيّو؛ انتصروا سبع مرات في معارك كاكوتا، ولا غريتا، وبيتخوكي كارتاشي، ونيكيتاو، وماركيسيميتو، وتيناكويّو، وخلّفوا وراءهم خمسة جيوش مهزومة، كانت بأعداد بلغت العشرة آلاف، تجتاح المقاطعات الجميلة في سانتا مارتا، وبامبلونا، وميريدا، وتروخيّو، وباريناس، وكاراكاس.[1]

كان ينتظر بوليفار الكثير من هذا في الأعوام التي تلت، عندما أخذ الكفاح من أجل التحرر يتضمن القارة بأسرها. فالجمهورية الفنزويلية الثانية، كما سابقتها، سُحقت على أيدي القوات الملكية في ١٨١٤. وأصبحت إسبانيا، مع حلول العام الثاني، تسيطر مرة أخرى على غرينادا الجديدة، مجبرة بوليفار على الفرار إلى جامايكا، ومنها إلى هايتي المحررة، حيث زوده بيتيون بالبنادق والذخيرة والمؤن والمال. وعاد إلى أميركا اللاتينية في ١٨١٧، مشتبكاً هذه المرة مع الإسبان في يانوس، السهول الفسيحة في وسط فنزويلا، حيث عصفت حرب عصابات غير حاسمة. وقام بوليفار بتحول تكتيكي صوب تحرير غرينادا الجديدة، فعبر الأنديز في ١٨١٩، وهزم الإسبان في

(١) Quoted in: Lynch, *Simon Bolivar*, p. 76.

بايوكا. وأُنشئت كولومبيا في نهاية تلك السنة، وتحررت فنزويلا في ١٨٢١، وتبعتهما الإكوادور بعد ذلك بقليل. وانضمت الدول الثلاث لتشكّل جمهورية كولومبيا العظمى، التي عُيّن بوليفار رئيساً لها على الفور. لكن، لم يكن فيْ وسعه الهدوء حتى طرد من بقي من الإسبان من كامل القارة. وتحرك، مع سوكري، إلى البيرو، واحتل ليما في ١٨٢٤، قبل أن يُنزل هزيمة كاسحة بالإسبان في أياكوتشو. وفي ١٨٢٥، صعد بوليفار إلى بوتوسي في أعالي البيرو، ورأى بأم العين مناجم الفضة التي لعبت، لنحو مئتي عام، دور خزانة الأمر الواقع لإسبانيا. وفي غضون أشهر، أعيدت تسمية أعالي البيرو، ببوليفيا، تيمناً باسمه.

وظهرت مجموعة جديدة من المشاكل بعد إنجاز الاستقلال. فانهارت وحدة الأنديز بعيد قيام الـ «الكوديّوس» (الزعماء) المحليين بالدفاع عن سلطاتهم الإقليمية؛ وفشلت، في ١٨٢٨، محاولات لاغتيال بوليفار في بوغوتا، لكن المعارضة والانقسامات تزايدت. وفي ١٨٣٠ قُتل سوكري، وانقسمت كولومبيا العظمى إلى الأقسام التي تشكّلت منها: فنزويلا، والإكوادور، وغرانادا الجديدة (كولومبيا المعاصرة). وإبان الحرب الإسبانية، تعامل بوليفار من دون رحمة مع الضباط المتمردين على قيادته. حوكم اثنان منهم، هما بيار وباديّا، وأُعدما. وكلاهما كان من الخلاسيين. وأثار إعدامهما احتجاجات عرقية اعتبرها بوليفار شقاقية. وأُذن بنفي الجنرال سانتاندر، الأوروبي الأصل، بالرغم من تورطه في مؤامرة بوغوتا لقتل بوليفار؛ إلا أن بوليفار تصرف بعدم حنكة، عندما تُرك جنرال آخر، هو بايز المستيزو الأمّي، في السلطة، لأن بوليفار

اعتبره حليفاً ضد سانتاندر. وقد منع بايز لاحقاً عودة بوليفار إلى البلاد التي اعتبرها إقطاعاً له بعدما جمع ثروة كبيرة خاصة، بما في ذلك عقارات يعمل فيها العبيد، على الرغم من الإلغاء الرسمي للعبودية.[1]

أرعبت الثورة الهايتية السكان البيض، وحصل قدر عظيم من التوتر، بخاصة وسط الأوروبيي الأصل، وهو ما يفسّر جزئياً إحجام الكثيرين منهم عن القتال إلى جانب جيوش بوليفار التي احتوت صفوفها على الباردوس والزامبوس والخلاسيين. كان ربع جنوده على الأقل من العبيد أو العبيد المحرَّرين. وأدرك بوليفار تماماً مقدار ما يَدين به لهايتي. فقد ساعده سكانها مالياً وعسكرياً في العودة إلى فنزويلا من منفاه الجامايكي. وتعهّد، في مقابل المساعدة المالية والعسكرية من بيتيون، منعَ العبودية، وأصدر سلسلة من القوانين المتوافقة مع ذلك. أما بالنسبة إلى هايتي نفسها، فقد فضّل تحيتها من بعيد. وعندما عقد مجلس الأميركتين في باناما في ١٨٢٦، وهو المجلس السيئ الطالع برغم حسن النية التي تقف وراء إنشائه، لم تتم دعوة هايتي. وماذا عن السكان الأصليين؟ لقد تم إعطاؤهم الحقوق التي يتمتع بها الجميع، لكنها، على ما يكتبه لينش، لم تُمارَس قط في الواقع: فقد فككت السلطات الجمهورية التجمعات الريفية للعبيد السابقين مخلفة النقمة ـ الناتجة عن التمييز العرقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ـ المستمرّة حتى اليوم.

---

(١) See: Robin Balckburn, *The Overthrow of Colonial Slavery*, London and NY, 1988, pp. 331-79.

وأعاد غارسيا ماركيز، ببراعة، تركيب أيام بوليفار الأخيرة. فهو مات غاضباً ومريراً، لكن مستعداً دوماً للحرب مرة أخرى من أجل توحيد القارة. وكان، حتى ساعاته الأخيرة، يحضّر خططاً خيالية لإطاحة بايز واستعادة بوغوتا، إلا أن مقتل سوكري تركه من دون خليفة واضح له. وقبل أيام قليلة على وفاته، قرأ طبيبه تقارير تسلّمها للتو من فرنسا. ففي خلال شهر تموز/يوليو من العام ١٨٣٠، وبينما كانت المتاريس تقام في باريس، كانت الجماهير ترنم نشيداً جديداً وهي تقتحم دار البلدية، يحمل فحواه نكران جميل لمحرر فنزويلا، ويخطب ود أميركا، عدوة بوليفار، حتى بعد مماته:

أميركا، تنظر إلينا من بعيد،

لترفع معنوياتنا.

فبوليفار هو الذي أشعل

حلقة نار جمهورياتها.

وبينما فقد بوليفار شعبيته موقتاً في بلاده، كان مجده قد عبر البحار. وماذا عن أصدقائه؟ قام سانتاندر بطرد مانويلا ساينز من بوغوتا؛ فعاشت الأعوام العشرة التالية في بايتا، وهو ميناء صغير وبائس في البيرو، تبيع في السوق الحلويات، والأدوية، والنصائح للعاشقين. وكتب ماركيز أن ثلاثة زوار مشهورين واسوها في تسيّبها: المعلّم سيمون رودريغيز، الذي تقاسمت معه رماد المجد؛ والوطني الإيطالي غيوزبي غاريبالدي الذي كان عائداً من صراعه مع ديكتاتورية الروزاس في الأرجنتين؛

والروائي هرمان ملفيل الذي كان يجوب محيطات العالم جامعاً المعلومات لكتابه «موبي ديك».

وفي غضون عقد على وفاته، أُعيد سياسياً إحياء اسم بوليفار، لكن ليس روحه، وتحوّل إلى رمز بالنسبة إلى مختلف الكوديوّس (الزعماء) الذين ترأسوا الدول التي حرّرها.

واليوم؟ يسمح أحدث كاتبي سيرة بوليفار، جون لينش، لإجحافاته الأيديولوجية بالظهور في بعض المقاطع الختامية:

> في ١٩٩٨، استغرب الفنزويليون بشدة أن تعاد تسمية بلادهم جمهورية فنزويلا البوليفارية بمرسوم أصدره الرئيس هوغو شافيز، الذي سمّى نفسه البوليفاري الثوري. ويستحضر الجماهيريون المتسلطون، أو الكوديّوس (الزعماء) الجدد، أو العسكريتاريون البوليفاريون، بوليفار بحرارة لا تقل عن حرارة الزعماء السابقين، بالرغم من أنه من المشكوك فيه بأنه سيردّ على نداءاتهم...

وهذا ما يدعوه لينش بالهرطقة الجديدة، معتبراً كاسترو أكثر ذنباً حتى من شافيز. وتجدر، برغم ذلك، الإشارة إلى أن الفنزويليين لم يفاجَأوا جميعاً بإعادة تسمية جمهوريتهم: فقد سبق لشافيز أن اقترح ذلك علناً في مناسبات عدة. والأهم من ذلك هو أن شافيز زعيم منتخَب حصل على دعم غالبية الفنزويليين في خمس مناسبات منفصلة. أما هل يجب أو لا يجب وصفه بالبوليفاري، فهذه مجرد وجهة نظر. وهو يتماثل مع بوليفار من خلال دعوته إلى الوحدة الإقليمية، ومعارضته للامبراطورية الأكثر حداثة ـ التي سبق لبوليفار أن توقّعها ـ وإمساكها بأميركا

اللاتينية (بما في ذلك دعم ثلاث محاولات للإطاحة بشافيز نفسه)، وتواصله المباشر مع جميع الأميركيين الجنوبيين، وشعبيته في أماكن أخرى من العالم.

وأن تشمئز الأوليغارشية الأوروبية الأصل في فنزويلا من شافيز، أمر كان ليفهمه بوليفار أيضاً. إن فشل بوليفار في الامتداد إلى العبيد والسكان الاصليين، هو، في الواقع، كما يشرح لينش، ضعف مأساوي. ويحاول شافيز وموراليس، مع بعض النجاح، أن يكونا أكثر شمولية بكثير، وهو ما يجعلهما غير شعبيين في أوساط النخبة التقليدية. ويكتب لينش عن بوليفار أنه لم يكن عبداً للّيبرالية الاقتصادية، ولم يكن قطُّ مؤمناً بالنظريات. وتطلع إلى دور للدولة هو أكبر وأكثر إيجابية مما تسمح به الليبرالية الكلاسيكية، وأظهر في هذا الصدد دراية بالمشاكل الخاصة للنقص في التنمية.(١) وفي ضوء ذلك، سيبدو بوليفار وشافيز أكثر قرباً، إذ يصارع شافيز المشاكل نفسها بعد قرنين من الزمن. وعلى حد ما لاحظه أحد الذين قاموا بمراجعة ما كتبه لينش. وبرغم ذلك، ربما هناك بعض من بوليفار في شافيز. وسبق للمحلل السياسي الفنزويلي، ألبرتو غاريدو، أن وصف الرئيس الفنزويلي بأنه «براغماتي تكتيكياً، لكنه مهووس استراتيجياً». وهذا وصف يمكن أن ينطبق أيضاً على المحرِّر نفسه.(٢) قد تكون الانتقادات، الموجهة إلى شافيز برغم غرابتها

---

(١) Lynch, *Simon Bolivar*, p. 161.

(٢) *The First Bolivarian Revolution*, by J. H. Elliot, *NYRB*, 13 July, 2006.

لما قبل الحداثة، وما بعدها، والتي تبناها وليم بورروز في انتقاده بوليفار، أدت أقله إلى الحبور. ربما كان الروائي تحت تأثير المخدّر عندما كتب أنه، من معطى قوّة اللغة، فإن فشل بوليفار الأكبر في تحرير أميركا الجنوبية من الطغيان، يقع بسبب فشله في التخلّص من الإسبانية. وأوحى بأن الصينيين كانوا ليحرروا الجماهير بطريقة نفسانية.[(١)]

والخيارات واضحة بالنسبة إلى البقية. فإما أن يدفع المرء صوب «إجماع واشنطن»، وإما أن يحاول إيجاد برنامج مختلف كلياً يعطي الأولوية ليس للسوق، بل للحاجات الإنسانية. وجون لينش، أساساً، مسرور بلا شك بالوضع القائم. لكن غالبية

---

(١) كان بورروز، بطريقة أكثر جدية، متعاطفاً مع القراصنة، كما نطق بذلك في «مدن الليل الأحمر» *Cities of the Red Night*:

«... لدينا حلفاء بين جميع أولئك المستعبَدين والمظلومين في العالم... الشعب الهندي برمته في القارة الأميركية الذي استعبده الإسبان وحطوا من قيمته في فقر لاإنساني وجهل، والذي أباده الأميركيون، وأصابوه بعدوى رذائلهم وأمراضهم... هؤلاء جميعهم حلفاء كامنون...

تخيلوا حركة كهذه على مستوى العالم. سيكون على الثورتين الأميركية والفرنسية، اللتين ستُواجهان بالممارسة الفعلية للحرية، أن تحافظا على عهودهما... فمبادئ الثورتين الفرنسية والأميركية أصبحت أكاذيب ثرثارة في أفواه السياسيين. فالثورات الليبرالية في ١٨٤٨ أنشأت ما يسمى جمهوريات وسط وجنوب أميركا، ذات تاريخ كئيب من الديكتاتورية، والظلم، والرشوة، والبيروقراطية... فحقّك في الحياة حيثما شئت، مع رفاق من اختيارك، وفي ظل قوانين توافق عليها، قد انتهى في القرن الثامن عشر مع كابتن ميشن. ويمكن أعجوبة فقط أو كارثة أن تعيده».

انظر: William S. Burroughs, *Cities of the Red Nights*, New York, 1981, pp. xiii-xv.

الفنزويليين والبوليفيين ليست كذلك. وهذا لا يجعل تلقائياً من الزعماء الذين ينتخبونهم متسلطين إذا بدأوا في تطبيق البرنامج السياسي الذي انتُخبوا على أساسه. ومردّ سبب ظهور هذا الاهتمام المفاجئ ببوليفار، هو من دون شك بروز هوغو شافيز على المسرح الدولي. ولو لم يكن الأمر كذلك، فهل كان عُهد إلى جون لينش كتابة سيرة حياة جديدة؟

الواقع هو أن أميركا الجنوبية تخطو إلى الأمام، مقدمة الأمل إلى عالم يعيش إما في سبات ليبرالي جديد عميق، وإما يعاني يومياً النهب العسكري والاقتصادي للنظام العالمي الجديد. والقارة ملأى بأصداء الكفاحات الماضية، والموجة الجديدة من الزعماء والناشطين تعي أهميتها. لا يمكن تكرار التاريخ، كما أنه لا يجب إغفاله، بل يجب أن يتم استيعابه وفهمه.

أوصى بوليفار نفسه دائماً بعدم اليأس أو الاستسلام السياسي. وجادل بأنه، إذا لزم الأمر، يجب قلب الصفحة والبدء من جديد. وهو ما أخذ يحدث مجدّداً، بينما بدأ استبدال الابتسامات القديمة التعِبة على وجوه المقاتلين القدامى التعِبين بضجيج ضحكة جديدة من الأسفل. يولد الأمل من جديد، وهذا كسب لنصف المعركة.

تيودورو بيتكوف:
رجل لكل الفصول

قال مونتيني Montaigne إن الربح والخسارة توأمان، وكل المكاسب تتم على حساب الآخرين:

يزدهر التاجر فقط على إسراف الشباب؛ والمزارع على السعر المرتفع للحبوب؛ والمهندس على انهيار المنازل؛ وموظفو القانون على دعاوى الناس وخلافاتهم؛ وحتى شرف رجال الدين وممارستهم يعتمدان على موتنا ورذائلنا. فما من طبيب يفرح بصحّة حتى أصدقائه، كما يقول كاتب الروايات الهزلية الإغريقي القديم (فيلمون). والأسوأ، دع أياً منا يبحث في قلبه ويجدْ أن رغباتنا الدفينة، في معظمها، تنبع وتتغذى على حساب الآخرين.

أضف إلى هذا الاشتراكي الذي تحول إلى ليبرالي جديد، الذي له الآن مصلحة مكتسبة في نجاح اقتصاد السوق، وسيقبل بأي منصب وزاري للعمل على إنجاح قضيته. ولو أنه عُرض عليه منصب وزير مكلف مراقبة المراجل التي تغلي في الجحيم، فسيقبل ما دام لا يتم غلي البضاعة في شكل ينتهك قواعد

صندوق النقد الدولي. واأسفاه، مسكين تيودودر. لقد اعتقد فعلاً أن التاريخ انتهى، وأنه يمكن الآن، بأمان، رمي المتاع القديم. وهو، كما برهنت في مكان آخر من هذا الكتاب، ليس وحده. إنه يحرر اليوم صحيفة «تال كوال» (كما هي الحال) اليومية، التي هي ميناء الوقوف الضروري (أحياناً الوحيد) للصحافيين الغربيين الذين هم في عجلة من أمرهم للقيام بحفلة إطلاق نار سريع على شافيز والعودة إلى ديارهم.

لا يزال الشغف المخلّصي موجوداً، لكن موضوعه تغيّر. وبقيت النرجسية توقد غضبه. فهو، وليس حديث النعمة شافيز، من يجب أن يكون رئيساً للجمهورية. هذا الجانب منه لاحظه رجيس دوبري الثاقب البصيرة، الذي رسم جوانب أقل بطولة لبيتكوف في تصويره جواكيم، وهو قائد للكفاح المسلح، في روايته غير المرغوب فيها *L'Indésirable* التي تجري أحداثها في فنزويلا زمن حرب العصابات في الستينيات:

> انه أمين عام ممتاز للتغيير الآتي في النغمة، فكّر فرانك وهو ينظر إلى جواكيم. رجل صلب يختال في مشيته من دون إسفاف، بالرغم من صورته المشابهة لأحد أفراد حزب «تركيا الفتاة». وهو أيضاً مثقف: أكثر الأدمغة ثقابة في المكتب السياسي، هذا ما قاله الجميع. نعم بالطبع، سيكون السلام في أيد أمينة. لكن، هل يمكن رجلاً أن يربح السلام عندما يقبل بمثل هذه السهولة، أن يخسر الحرب؟[1]

---

(١) Regis Debray, Undesirable Alien, 1978, pp. 158-9.

وبيتكوف، بينما كنت أكتب هذا الكتاب، هو المرشح الرئاسي المعلن الوحيد للمعارضة المناهضة لشافيز، وهذه مفخرة كاملة له، خصوصاً أن آخر استطلاع للرأي (تموز/يوليو ٢٠٠٦) أشار إلى أنه عند حدود الثلاثة بالمئة. وأنا شخصياً، آمل ألا يسحب ترشيحه بضغط من الأوليغارشية، وأن يدافع بقوة عن قضية المعارضة ضد البوليفاريين، وهذه ضرورة من أجل صحّة الديموقراطية الفنزويلية.

من هو تيودورو بيتكوف، وما الذي حلّ به؟ وُلد في ماراكيابو، في ولاية زوليا في كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، من أب مهاجر بلغاري وأم يهودية بولندية. كان والده الابن الشيوعي لعضوين مؤسسين للحزب الشيوعي البلغاري، وصديقين لجورجي ديميتروف. هرب من بلغاريا بعد فشل تمرّد ١٩٢٣ الذي أدى إلى حملة قمع ضخمة (٣٠ ألف قتيل)، وانتقل إلى برنو في تشيكوسلوفاكيا حيث تعرف إلى زوجته. أصبح مهندساً كيميائياً، وصارت هي طبيبة. فكّرا في الانتقال إلى الاتحاد السوفياتي، لكن وُجدت بعض المشاكل التقنية التي كانت تتطلب انفصالهما لبعض الوقت، ولهذا، نصحهما بعض الأصدقاء البلغاريين في كاركاس، بالهجرة إلى فنزويلا، وهو ما فعلاه في ١٩٢٧.

كان تيودورو، في الخمسينيات من القرن الماضي، زعيماً طالبياً شارك في المتظاهرات ضد نظام ماركوس بيريز خيمينيز. ولاحقاً، قُتل شقيقه الذي لا يتعاطى السياسة برصاص شرطي، وصعقت المأساة أهله:

بدا أن والدي، منذ مقتل شقيقي ميركو على يد شرطي في ١٩٥٧، فقد معظم روحه الحيوية. وكما سبق وقلت، فإن والديَّ لم يُظهرا قط الكثير من الانفعال، حتى في مجال العاطفة. وأذكر أنني عندما قررت أن أنخرط في منظمة الشباب الشيوعي، أبلغت ذلك لوالدي الذي اكتفى بالقول: جيّد جداً. أعتقد أن هذا جيّد جداً.

كانت تلك خطوة كبيرة لي لأن ديكتاتورية بيريز خيمينيز [١٩٤٨ ـ ١٩٥٨] قد بدأت للتو، ولم يكن وجود المرء في الشباب الشيوعي في ذلك الوقت مجرد مزحة. ومنذ أن كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، قرأت الكثير، وبخاصة التاريخ. وهذه صفة ميّزتني عن أشقائي الأصغر سناً مني وغيرهم من الصبية. تأثرت كثيراً بكتب مثل «الأم» لغوركي، و«السلطة السوفياتية» لهيولت جونسون، بارون كنتربيري الأحمر. كنت إبانها مراهقاً، وكان من المستغرب إيجاد صبي في الخامسة عشرة منخرطاً في السياسة. فتسييس الشبان في فنزويلا ظاهرة حديثة جداً.

في أوائل الستينيات، انضم تيودور، مستلهماً الثورة الكوبية، إلى مقاتلي عصابات فاكو بزعامة الفنزويلي المناهض للامبريالية دوغلاس برافو. سُجن بضع مرات، وهرب من السجن مرتين على الأقل، أشهرهما في ١٩٦٧ عندما نجح في الفرار من كوارتل سان كارلوس مع رفيقيه بومبيو ماركيز (هو الآن عضو بارز، ومتباه، ومتقدم في السن في المعارضة الراهنة لشافيز)، وغيّرمو غارسيا بوسي (المحرر البالغ حوالى السبعين للصحيفة اليومية الموالية لشافيز «في. إي. أيه.» *(VEA)*. وهذه الحوادث

هي التي تشكل لب موضوع رواية دوبري المشار إليها في ما سبق.

دعم بيتكوف وغيره من المناضلين الشيوعيين سياسة التهدئة في ١٩٦٢ التي اعتمدتها حكومة رافييل كالديرا، والتي عرضت العفو عن كل من كان متورطاً في حروب العصابات (كان دوغلاس برافو من بين الذين رفضوا التخلي عن سلاحهم).

بعيد الغزو السوفياتي لتشيكوسلوفكيا، رفض بيتكوف وغيره من المنشقين عن الحزب الشيوعي الفنزويلي خط هذا الحزب الموالي للسوفيات، وأسسوا الحركة نحو الاشتراكية (Movimiento Al Socialismo - MAS)، التي سرعان ما نالت إعجاب دوائر مثقفي الجناح اليساري (وهب غابريال غارسيا ماركيز، الذي نال جائزة رومولو غاليغوس الأدبية في ١٩٧٢، مبلغ الـ ٢٥ ألف دولار للحركة نحو الاشتراكية). وبالرغم من أن الحركة واجهت صعوبة في الحصول على قاعدة شعبية حقيقية من سكان الأرياف، فإن قلّة شككت في الصدقية الاشتراكية التي لا عيب فيها لتيودور. وكان لا يزال ملتزماً الاشتراكية والديموقراطية، كما يبدو واضحاً في خطاب ألقاه في ١٩٧٦، ونُشر لاحقاً تحت عنوان «لا نعط لأي أمة الحق في توجيه مصير الأرض الفنزويلية الأم»، وكانت تلك إشارة انتقادية إلى واشنطن، وليس إلى هافانا:

نعم، أيها السادة، نحن نؤكد الحاجة المطلقة، والضرورية، والحتمية، إلى حكومة اشتراكية تحرّك الجسم الاشتراكي، وتلغي سلطة

المجموعات الاقتصادية الصغيرة، والقوية في آن، التي سيطرت على حياة البلاد، وحددت التوجهات الأساسية لكل الحكومات التي حصلت عليها فنزويلا... إن مصائب مجتمعنا ترتكز على واقع أن البلاد تسيطر عليها بضع دزينات من المجموعات الاقتصادية التي يعمل لها بقية السكان، والتي تبني ثرواتها وسلطتها السياسية على الاستغلال والتلاعب بالأغلبية الساحقة من المواطنين. نحضّ على الحاجة إلى وضع السيطرة على الحياة الفنزويلية، ليس الحياة الاقتصادية وحسب، بل حياتنا الاقتصادية بكاملها، في يدي الشعب بكامله...

نحن نفهم الاشتراكية على أنها الاستعادة التامة للسيادة الوطنية، وليس الاستعاضة عن نوع من التبعية بآخر...

نحن نفهم الاشتراكية على أنها عالم ستكون قد حُذفت منه كلمة استغلال، حتى من القواميس.

ولو أنه لا يزال يؤمن بهذا، لكانت «تال كوال» تنتقد الثورة البوليفارية من موقع اليسار. لكن بيتكوف حنق، بوضوح، على فشل الحركة نحو الاشتراكية في أن تصبح القوة المهيمِنة على اليسار. وصارت، خلال أعوام ١٩٨٠، تُعتبر في الواقع أداة نخبوية وغير فعّالة لطموحات بيتكوف الشخصية، ونادراً ما تحصل على خمسة في المئة من الأصوات في الانتخابات. وقال لي أصدقاء سابقون له، إن هذه أصبحت نقطة مؤلمة في سيرته وتاريخه السياسي، وإنه كان ينفجر غضباً في لقاءات خاصة عندما تُطرح الحركة نحو الاشتراكية على بساط البحث. ترشح بيتكوف للرئاسة مرتين: وحصل في ١٩٨٣ على أربعة في المئة

فقط من الأصوات، بالرغم من حصوله على دعم انفعالي علني من غابرييل غارسيا ماركيز. وهل كان ليحصل على نسبة أكبر من الأصوات لو أن فارغاس يوسا أو كارلوس فوينتس دعمه أيضاً؟

بحلول ١٩٨٨، أخذ يصبح أكثر إحباطاً. وظنّ أن المشكلة ليست فيه (كيف يمكن أن يكون الأمر على هذا النحو؟)، بل في البرنامج السياسي الذي تبناه. وبدّل بيكوف اتجاه الحركة، وطرح برنامجاً أكثر وسطية (لكنه لم يصبح بعد هايكيان آخر)، وحصل على أكثر بقليل من عشرة بالمئة من الأصوات، وهو رقم قياسي للحركة نحو الاشتراكية ومأساة للجيفي ماكسيمو Jefe maximo الخاص بها. وها أن بيتكوف بات مقتنعاً بأن المستقبل موجود في مكان آخر. ومع أوائل سنيّ ١٩٩٠، كانت الحركة نحو الاشتراكية قد تخلّت عن كل شيء. كان الاتحاد السوفياتي قد انهار، واعتقد بيتكوف أن الوقت قد حان للمضي قُدُماً. وهو، هذه المرة، لن يرتكب أي أخطاء. وقرر عندها أن يدعم علناً ترشيح الزعيم الديموقراطي المسيحي رافاييل كالديرا في انتخابات ١٩٩٢ الرئاسية. وفاز كالديرا الذي شن حملته الانتخابية ضمن لائحة مناهضة لـ «إجماع واشنطن». وافتعل الأوليغارشيون المحليون أزمة مالية، وسرعان ما استسلم كالديرا، طارحاً حزمة جديدة من الإصلاحات الليبرالية الجديدة (الثالثة في تاريخ البلاد)، التي عرفت بروزنامة فنزويلا.

وماذا عن بيتكوف؟ كان في السماء. عُين في ١٩٩٥ وزيراً

للتخطيط، وأصبح المسؤول الأساسي المكلف تطبيق الإصلاحات الليبرالية الجديدة، التي حاولت الحكومة جعلها أكثر جاذبية بربطها ببرامج اجتماعية أكثر تواضعاً، وذات حدّ كبير من الرمزية. والتخطيط الذي طبّقه بيتكوف، كان بمثابة عمليات تخصيص تدريجية ورفع للضوابط. وتم المزيد من تحرير للاقتصاد، ولجمت بقوة إنفاقات الدولة التي تم ترشيدها في الإدارات العامة، وبيعت الشركات التي تملكها الدولة في المزاد، وخفضت قيمة البوليفار. طابت الأسواق العالمية نفسها، وتعذّب فقراء فنزويلا وأبناء الطبقة ما دون الفئات المتوسطة. وأصبح كالديرا، مع نهاية عهده، مُحتقراً من الجميع تقريباً في فنزويلا، كما جرى تماماً لبيريز وغيره من قبله. وسيرة حياة بيتكوف على صفحته الخاصة في الإنترنت متواضعة بعكس صفاته المميزة:

في ١٩٩٥، وفي خضم أحد أكثر أوقات البلاد خطورة، أصبح (بيتكوف) وزيراً للتخطيط. وبالرغم من أن سعر برميل النفط كان سبعة دولارات، فقد أنقذ الاقتصاد من الانهيار الفوري، وساهم في تفادي كارثة اقتصادية واجتماعية بترشيد الإنفاق العام، ودعم البرامج الاجتماعية.

وتفيد الإشارة إلى أن برنامج فنزويلا، تضمن مجموعة من سياسات الطاقة التي زادت في تعميق سياسة الانفتاح النفطي Apertura Petrolera التي شُرع بها في أوائل الثمانينيات، والتي وضعت شركة النفط الفنزويلية التي تملكها الدولة (PDVSA) على

طريق المزيد من الاستقلالية، والتخصيص في نهاية الأمر. ودعت حكومة كالديرا، بتأثير من شركة النفط الفنزويلية، إلى أن تتحكم السوق العالمية، بدلاً من «الأوبيك»، في أسعار النفط، ودعمت زيادة كبرى في إنتاج الشركة للنفط بما هو أكثر بكثير من مستوى الحصة التي حددتها «الأوبيك»، ما ساهم في خفض سعر النفط إلى سبعة دولارات للبرميل الواحد وخفض واردات الخزينة في فنزويلا.

في ١٩٩٨، رمت الحركة نحو الاشتراكية، التي أسقط أداء بيتكوف سمعتها، بثقلها المتواضع نسبياً، وغير المرجّح وراء ترشيح شافيز (علّمهم بيتكوف دعم الفائزين، وكانوا تلاميذ نجباء). وأثار الزعيم الكبير الدهشة عندما سارع إلى الانسحاب من الحزب. وشن، بوصفه رئيس تحرير صحيفة «الأخبار اليومية» (إل موندو)، حملة تهجّمية على شافيز. وفي غضون عام طردته «إل موندو»، لأن ناشريها كانوا يريدون على ما يبدو التصالح مع شافيز. فأنشأ على الفور صحيفة يومية هي «تال كوال» التي نشرت طوال الأعوام الستة والنصف الماضية على صفحتها الأولى افتتاحيات بيتكوف المناهضة لشافيز. وهو، بالرغم من انشغاله الآن في حملته الانتخابية الرئاسية، لا يزال يجد متسعاً من الوقت لكتابة افتتاحيات أسبوعية يعترف الجميع بقيمتها المسلّية. ويتمتع بيتكوف بذهن حاد وبقلم لاذع، لكن فقدان الذاكرة أخذ يدبّ فيه.

وعلى مر الأعوام القليلة الماضية، كان بيتكوف فعالاً في

تسويق نفسه في الصحافة العالمية بوصفه صورة الجناح اليساري (مقاتل عصابات سابق... إلخ) أكثر منه وزيراً سابقاً للتخطيط ترأس عملية تطبيق برنامج لبيرالي جديد متشدد. وهو عادة يُقدَّم أيضاً بوصفه شخصاً منتقداً بقية المعارضة بمثل انتقاده شافيز. وهذه بالأحرى صورة مشوهة عن وجهات نظره، كما يعرف ذلك جيداً أي قارئ منتظم لـ «تال كوال». وهو، بينما ينتقد شافيز بحدة ويهزأ به في كل عدد من صحيفته، نادراً ما يهوي بضربة على المعارضة؛ فطلقاته نادرة، لا يطلقها على ما يبدو إلا عندما يرغب في النأي بنفسه عن تحرك مثير للحفيظة بشكل خاص (مثلاً في الأيام التي أعقبت انقلاب نيسان/أبريل ٢٠٠٢). و«تال كوال» هي برهان مهم على واقع وجود حرية كاملة للتعبير في فنزويلا.

وعلى ما تم شرحه سابقاً في هذا الكتاب، فإن مجلة وزارة الخارجية الأميركية، «فورين أفيرز»، وشقيقاتها في أمكنة أخرى، آخذة في التسويق للاعتقاد الساذج حول أميركيين جنوبيين جيدين وسيئين. فلولا جيّد لأنه يدعم «إجماع واشنطن». ويبتكوف، العاجز الآن عن التفكير المستقل، قفز إلى عربة جوقة العازفين الضعيفة هذه برفقة كاستانييدا وفارغاس إيوسا ببهجة ظاهرة. وهو حتماً مبهور بلولا. ونشر في ٢٠٠٥ كتاباً يدعى «اليساران» Two Lefts يستطرد فيه مطولاً حول محاسن اليسار الأميركي اللاتيني المعاصر، والموالي للعولمة، الذي يجسده لولا، ومن ثم يسخر من صيغة اليسار الشعبوي والتسلّطي المتقادم، التي يُبقيها شافيز (وكاسترو) حيّة.

وغالباً يصور نادي المعجبين (صحافيون غربيون في كاراكاس وأصدقاؤهم في مكسيكو وساو باولو) بيتكوف بأنه نزيه، ومحافظ على القانون، وحرّ التفكير ومنصف. وهذه خرافة، كما تدل على ذلك ردّة فعله على انقلاب نيسان/أبريل ٢٠٠٢، التي تحدّت الديموقراطية والدستور.

فافتتاحيته في عدد ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٢ من «تال كوال» تحت عنوان رئيسي ضخم هو و«داعاً هوغو» CIAO HUGO، كانت تستطير فرحاً. فالرجل الذي جعل منه عدوه قد سقط:

بالكثير من الحزن، الذي أنزل بعشرات البيوت الفنزويلية [إشارة إلى ١٩ شخصاً قُتلوا حول قصر ميرافلورس في ١١ نيسان/ابريل] ومن دون أي مجد، بلغ نظام هوغو شافيز نهايته. هوغو شافيز المتغطرس، الذي تمتّع في الإعلان بأنه سيتقاعد في ٢٠٢١، أطيح به ليس بعد أكثر من ثلاث سنين على صعوده المدوّي إلى السلطة... إنها ساعة العدالة، لا ساعة الانتقام. يجب العثور على المسؤولين عن اغتيالات الأمس وإحالتهم على المحكمة، بدءاً بشافيز نفسه. لا يمكن اللصوص الذين كدّسوا الثروات المشبوهة، ونهبوا خزينة الدولة، أن يبقوا من دون قصاص... ولا مجال هنا لاعتماد حل مؤسساتي للتغيير السياسي الحاصل. فنائب الرئيس، ورئيس المجلس الوطني، ورئيس المحكمة العليا، لا يستمرّون بعد شافيز، لأن خط القيادة المؤسساتي هذا انتهى مع النظام.

وعلى الغلاف الأخير للعدد نفسه، صورة كبيرة لجمهرة من متظاهري المعارضة في شارع واسع على مقربة من ميرافلورس، يواجهون بضعة جنود من الحرس الوطني. وفي وسط الصورة،

متظاهر شاب، يحمل علماً فنزويلياً كبيراً. وجاء كلام الصورة معبراً:

مقدام ووحيد، يرمز الشاب الذي يحمل العلم إلى حقبة جديدة لفنزويلا. حان الوقت لإعادة بناء بلاد رفضت التضحية بحرياتها، ونزلت بالتالي إلى الشوارع كي تنقذ كرامتها المهددة. وفي وسط الاشتباكات والرصاص المتطاير، فإن تظاهرة الأمس الخارقة، التي حطمت الأرقام من حيث عدد المشاركين والفرح، تم من خلالها فتح الطريق وتحقق هدف الإلقاء بهوغو شافيز خارج قصر ميرافلورس.

وفي الوقت الذي صدر فيه العدد التالي من «تال كوال»، في ١٤ نيسان/أبريل، أدت الانتفاضة الشعبية وتمرّدات الجنود والضباط إلى عكس مجرى الانقلاب. فماذا سيفعل كاتبنا الصحافي المقدام؟ ها أن بيتكوف، المرتبك وغير الخجل في آن، يختار أن ينتقد السلوك غير الدستوري للمعارضة. كان هذا موضوعاً مشتركاً للّيبراليين الذين بوغتوا وهم يشيدون بالانقلاب، وبات عليهم عندها أن يواجهوا الواقع بعد ذلك بأيام قليلة. وجاء في تلك الافتتاحية، لو أن بديل النظام كان فقط أفضل من كارمونا (ولربما بيتكوف نفسه؟)، وأمكنه توحيد المعارضة والمشاركة في المغانم الوزارية، لما التمّ الشعب حول شافيز. هذا النوع من أحلام اليقظة، كان شائعاً في القطاعات الأكثر انتفاعاً في كاراكاس.

ولنعد إلى الصراع على الرئاسة. ماذا قدّم بيتكوف ذو الـ ٧٤ عاماً للناخبين؟ وعلى ما جرت عليه العادة مع مرشحي المعارضة الفنزويلية، كان برنامجه غامضاً عن قصد. والإجراء الملموس

الوحيد المقترح حتى تاريخه، هو السيستا تيكت cesta ticket النفطي (كتيب قسائم شهرية يوفّره أرباب العمل ويُستخدم لشراء الطعام). وهو شبيه في المفهوم بأنظمة مدرسة الحوالات التي تأخذ في الظهور في كل مكان في الولايات المتحدة. وعلى ذلك، يتم دعم الطب الخاص، والتعليم الخاص. . . إلخ، بينما سيكون على مؤسسات الدولة أن تتعلم إما كيفية التنافس مع القطاع الخاص وإما أن تموت. ومن المشكوك فيه أن يلقى هذا الاستهواء صدىً طيباً لدى غالبية الفنزويليين. ودفعت الشيوعية ببيتكوف إلى الكفاح المسلح، ومن ثم إلى الاشتراكية ذات الوجه الإنساني. ومن هنا، قفز بالدانة إلى «إجماع واشنطن»، وهو لا يزال هناك، شخصية حزينة وهامشية في بلاد شاء مرّة أن يغيّرها. ويتحدث مناوئو شافيز باستمرار عن التسلّط، لكن تبادل الآراء الصريح والحر، في ٢٠٠٣، بين بيتكوف ومكسميليان أرفيلايز، وهو عضو في الفريق السياسي لشافيز، يشير إلى العكس تماماً. كان التشدق الطفولي لبيتكوف والرد الرصين لأرفيلايز، جزءاً من تبادل أكبر، لكنه سيعطي القراء نفحة عن المسرح السياسي في شرق كاراكاس:

من: تيودورو بيتكوف

إلى: مكسميليان أرفيلايز

(٢٣ تموز/يوليو ٢٠٠٣)

أرى أنك تستمر في كونك مغيظاً كالعادة. فنحن، في هذه الصحيفة، نجري مقابلات مع الجميع، وقد أجريت أيضاً

مقابلات مع عدد غير محدود من الشافيزيتيين. وإذا شئت أكثر، يمكننا أن نجري مقابلة معك لإخراجك من عزلتك. وأنت على حق، فما قالته ماريا صول (وفي الواقع لم أتحدث معها أكثر من مرتين) كان أحمق. ويبدو لي أن [إيغناسيو] راموني غبي ومرتزق، لكنه ليس، بالطبع، نكرة في فرنسا.

ولا أدري الآن، إذا كان يمكن عقلك الصغير أن يتقبّل فكرة أن المُحادِث ليس مسؤولاً عما يقوله من تجرى معهم المقابلات. ونحن، في هذه الصحيفة، لا نقوم بالأمور بالطريقة التي تقومون بها في ميرافلورس، حيث لا يمكنكم حتى أن تطلقوا الريح من دون إذن من شافيز. كما أن الصحافيين عندي لا يطوفون حول شافييز، كما تفعلون، ويلحسون رجليه. بل إنني لا أعرف مسبقاً مع من تجرى المقابلات، لأن الصحافيين هم الذين يأخذون هذه القرارات. والشامبانيا التي تودّ شربها هي الأعتق في العالم: فروح شرطييك الفكريّة قد ظهرت فيها. وما يمكنني أن أراه (آه، [شيء ما عن] فرويد)، أنك تسأل كل يوم إذا كانت «تال كوال» قد صدرت، ويحبطك أن ترى أننا لم نُطوَ.

يا لهذا الشيطان المثير للشفقة الذي صرتَه. فماذا لو تعطيني الإذن بنشر رسالتك؟

من: مكسميليان أرفيلايز

إلى: تيودورو بيتكوف

(٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠٣)

من المسلّي دائماً أن تعطينا دروساً في الأخلاقيات الصحافية، أنت وحاشيتك. ولا تحدّثني عن لحس الأرجل vainas، فأنت أيضاً لديك لاحسوك. نعم، نعم، في كل مرّة تكون لي شكوكي حول ما لا يجب أن أفعل، أقرأ افتتاحيتك في ١٢ نيسان/أبريل. هل تذكر، يا تيودورو، ماذا كتبت بعد ساعات قليلة على قلب الديموقراطية الفنزويلية؟ عاش [شافيز] حتى النهاية في الهذيان الذي قتله، وآخر فعل له في السلطة كان إجرامياً بالفعل. فهذه الإذاعة، مساء أمس، المثيرة للضحك، الكافكاوية (نسبة إلى كافكا) عن حق، أجريت عن قصد للتغطية على أخبار المجزرة التي اقترفها قناصو برنال القتلة. وها نحن، بعد سنة، لا نزال ننتظر أقل البراهين على هذه الاتهامات الخطيرة للغاية. لكنني أعتقد أنك، كونك هذا الحارسَ على نظام وسائل الإعلام، اعتقدت أن الصور التي بثتها محطات التلفزة في ذلك اليوم الحزين كانت كافية. وأنا أفتقد أيضاً دروسك الاقتصادية، من تلك الأيام الخوالي عندما كنت تدير الاقتصاد الفنزويلي. أتصور أنك حلمت بحظ مشابه لحظ فرناندو إنريكي كاردوسو؛ ذلك المفكّر الذي أصبح رئيساً. يا لتيودورو المسكين، فقد انتهيتَ كاتبَ الافتتاحية المفضّل لشرق كاراكاس. وأكثر ما يأسر اللب فيك هو قدرتك المستمرّة على جعل بعض

الصحافيين الغربيين المساكين يعتقدون أنك من اليسار. لا أدري إذا كان للأمر علاقة بشاربيك، لكنني أرفع لك القبعة تحية، وأنا ألتقي أحياناً هؤلاء الصحافيين من فرنسا، والبرازيل، ومن كل أنحاء العالم، وهم مُنوّمون بالكامل تنويماً مغناطيسياً بعد الاستماع إلى كلامك الحكيم. يا للعنة، يا لموهبة السحر هذه التي تملكها! وبالمناسبة، هل قرأت «لو موند»، وهي صحيفة مسائية ليبرالية جديدة أخرى أصيبت بالإفلاس منذ أسبوعين؟ ففيها عنوان عجيب: «تال كوال» الصحيفة اليسارية المناوئة لشافيز. يا لها من أضحوكة!

وأنا متفاجئ بطلبك الإذن بنشر رسائلي. فأنت تحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك ليعتقد الجميع أنك تتواصل مع خصومك بتوازن، خصوصاً إذا ما قرأوا ترّهاتك. وسترى ذلك إذا نشرتها. وسأكتفي فقط، حتى لا يفكرنَّ أحد فيك بالسوء، باقتراح أن تنشر الترتيب الكامل للرسائل التي تبادلناها. فالكثير منها أجوبة عن أمور قلناها لبعضنا البعض عبر هذه القناة.

ويمكنك على أي حال نشرها. فأنا لا أهتم البتة. فستضمن بهذه الطريقة لنفسك القدرة على مواصلة تقديم نفسك كرجل معتدل، ومنفتح، مخبئاً ذلك «الستالين» الصغير الغاضب الذي لم تكفّ عن كونه.

وعندما أوحى أصدقاء لأرفيلايز أن بعض المواد في «تال كوال» تصلح أساساً لدعوى، أجاب: وهل تقيمون دعوى على حمار إذا سَلَح عليكم؟

والمأساة الحقيقية هي أن فنزويلا، بينما تأخذ في التحوّل ببطء، نحو الأحسن، تحتاج إلى المشورة الجيدة والمساعدة من أولئك الذين لعبوا دوراً مهماً في ماضيها الراديكالي، وعانوا بسبب السجن وما هو أسوأ. وقرر تيودورو بيتكوف، للأسف، القفز إلى سفينة أخرى، ووجد أنه يصعب عليه التجذيف عائداً بالرغم من أنه كان يمكنه أن يلعب دوراً مهماً ومفيداً في العلمية البوليفارية. ولهذا، قرر أن يصبح جزءاً من المشكلة، حيث إن خطبه الطويلة المنفردة في «تال كوال» تجد من يتقبّلها من قرّاء صالونات الأوليغارشيين الميالين إلى سوء الظن السياسي. تغمدك الله بواسع رحمته.

«لو موند» ليست الأسوأ، لكن...

هنري مالر

افتتاحية «لو موند» في ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٤، عن نتائج الاستفتاء، والمعنونة برصانة «انتصار شافيز»، أتت بعد أشهر عدة نشرت خلالها صحيفة السجل معلومات انتقائية جداً، غالباً ما كانت تغرق في تعليقات منحازة للغاية، وهي لا تُلزم نفسها بالتعليق بحرّية، كما يجب، على النتائج: بل تصرف الوصفات لكل آت.

وبصورة أكثر دقة، فإن «لو موند»، كونها صحيفة يومية وعلاجاً عاماً لكل داء في آن معاً، تتدبّر اقتراح الوصفات للطرفين معاً، لكل من المعارضة والحكومة الفنزويلية. وتستند هذه الوصفة المزدوجة، بلا شك، إلى تشخيص متشدد.

هويدة Moderato

تبدأ الافتتاحية الطبية في «لو موند» بمقطعين، تعشش بين معلوماتهما الفعلية عن النتائج، مغالطات تضيء على الماضي، وتقويمات تحضّر للمستقبل.

لكن هذا الاستفتاء، الذي طالبت به المعارضة، لن يُنهي الأزمة التي تقسم الأمة منذ أكثر من عامين. فائتلاف الأحزاب غير المتجانس ـ التي وحّد بينها فقط كرهها زعيم كاركاس الشعبوي ـ ندد بالتزوير الكبير، مع أنه وعد بأنه سيحترم حكم الناخبين. وفي الوقت الراهن يرفض الانصياع للعملية الديموقراطية، تدعمه في موقفه هذا إدارة بوش التي طالبت بتحقيق في التزوير المزعوم الذي لم يُثره أي من المراقبين المستقلين.

وهذه، في استعراض للماضي، مغالطة. فمن الخطأ القول إن المعارضة وعدت بأنها ستحترم حكم الناخبين. بل على العكس. فقد وعدت المعارضة بأنها ستحترم النتائج فقط في حال كانت خالية من التزوير، لكنها أعلنت مسبقاً أنها في حال خسرت الانتخابات، فإن مرد هذه الخسارة سيكون التزوير بالضرورة. وبعبارات أخرى، فقد وعدت باحترام حكم الناخبين... لكن فقط بشرط فوز المعارضة.[1]

صوت عال Forte

تحدّثت صناديق الاقتراع في فنزويلا، وأنقذ الرئيس شافيز حكمه في مواجهة معارضة كانت تطالب بسقوطه. هذا ما يلاحظه كاتبنا الافتتاحي منذ البداية. ويؤكد أولاً أنه سواء

(١) تجب إضافة أن المعارضة اشترطت أن يثبت مراقبون دوليون النتيجة. وها هي تنقض هذا الشرط.

أأعجبنا الأمر أم لم يعجبنا، يبقى هوغو شافيز حتى انتخابات ٢٠٠٧ الرئيس الشرعي للبلاد، قبل أن ينخرط في ذهاب وإياب ما بين: «من جهة» و«من أخرى»:

تحتاج الديموقراطية إلى المعارضة ـ التي تضم تقريباً نصف الفنزويليين ـ لاستخدام هذه الفترة بطريقة بنّاءة من أجل أن تجد لنفسها زعيماً (ولديها الآن الكثير منهم)، وبرنامجاً تفتقر إليه في الوقت الراهن. وعلى السيد شافيز من جهته، أن يتذكر أنه لم يُنتخب ممثلاً لفئة واحدة من مواطنيه، بل رئيساً للبلاد كلها.

فمن جهة هناك إذاً، تحتاج الديموقراطية؛ وهناك من جهة أخرى «على السيد شافيز أن». وتريد «لو موند» من جهة... ما تريده الديموقراطية. وتقدّم «لو موند» من جهة أخرى وصفة بما يجب أن يفعله «السيد شافيز»: أي أن يتذكّر... تماماً الأشياء التي قالها بنفسه في يوم إعلان انتصاره الانتخابي.

ويلاحظ كاتب الافتتاحية المجهول في شكل عابر، وقد أغاظته رؤية البلاد تبلغ تسوية موقتة، أن فنزويلا كانت في ما مضى بلداً مزدهراً وقد جنحت على مدى أجيال من أزمة سياسية إلى أزمة اقتصادية: ومن المفيد هنا ملاحظة استخدام الدقة في «في ما مضى» و«على مدى أجيال»، قبل رؤية «لو موند» تقوم بجنوحها الخاص.

يبدأ الأمر بأمنية عذرية: أفضل ما يمكن المرء أن يأمله، حتى ذاك، أن لا يصب أحد الزيت على النار، سواء داخل فنزويلا أم خارجها، في واشنطن أم في هافانا.

وتتبع ذلك فوراً وصيّة موجهة إلى المنطقة: على المرء أن

يحافظ على رأسه في هذه المنطقة المتقلّبة في شكل مربع [لكن من قال إن هذه منطقة متقلبة؟]، وبخاصة في بلد هو خامس أكبر مصدّر للنفط.

صوت أعلى Fortissimo

عادت «من جهة»، و«من جهة أخرى». دعونا ننظرْ أولاً إلى «من جهة»:

ليس لأن هذا الضابط الانقلابي السابق يتحدى واشنطن، والذي أصبح اليوم نوعاً من المنبر للقومية الشعبوية الاستوائية المستندة إلى الدعم من الثكنات، يجب اعتباره سياسياً مسؤولاً، أو شخصاً قادراً على انتشال بلاده من الوحول التي رماها فيها من جاؤوا قبله.

فشافيز، من جهة، غير مسؤول. وهو ضابط انقلابي سابق، أصبح اليوم نوعاً من المنبر للشعبوية القومية الاستوائية المستندة إلى الدعم من الثكنات.

للكلمات معانيها، ويعلم الجميع أن مِحرر «لو موند» يراقب استخدامها بحرص. فـ «للقومية الشعبوية» رنّة القومية الاجتماعية: ولا شك في أن تلك هترة مؤسفة من «لو موند»... أضف إلى ذلك أن هذه الشعبوية هي شعبوية «استوائية»: وهذه صفة عُرّيت من مبدأ التفوّق العرقي وهي متناظرة بالضبط مع... وهذه «القومية الشعبوية» تستند إلى الدعم من «الثكنات».[1]

---

(١) تحمل هذه العبارة، في غياب أي تعليق دقيق عن دور الجيش، نفحةً قوية من الديكتاتورية، لكنها بالتأكيد إشارة غير مقصودة.

وماذا عن غالبية الشعب؟ «لو موند» لا تعرف: ومن هنا فإن غياب مثل هذا التفصيل هو إغفال مؤسف...

ويبقى الآن أن نتبع انعطافة صغيرة عبر من «جهة أخرى»:

لكن ليس لأن إدارة بوش تقارنه من دون أي تفريق بالديكتاتور الكوبي وتدعم مناوئيه ـ بما في ذلك إبان الانقلاب الفاشل في ٢٠٠٢ ـ، على المرء أن يعتبر هوغو شافيز بمثابة كاسترو جديد، ومتحدث باسم المحرومين.

من جهة أخرى، شافيز ليس كاسترو جديداً. حسناً... لكننا لا نعرف ما هو الدور الذي يفترض أن تلعبه هنا هذه العبارة الموضوعة جنباً إلى جنب مع المتحدث باسم المحرومين. وهل علينا، ربما، أن نمتنع عن التأمل في هذا أيضاً؟ لكن، على ما تقوله «لو موند»، «سواء أأعجبنا الأمر أم لا»، يستحيل نكران أن شافيز هو المتحدث باسم المحرومين، والزعم أن «المنبر القوي الشعبوي يستمد دعمه من الثكنات» وحسب. وها أن التحليل بين «من جهة» و«من جهة أخرى» يأخذ، في طريقة ما، بالعرج.

لماذا؟ لأن الإدارة الأميركية هي المحكّ لهذا التقلّب، وهذا تأثير هاجس «لو موند»، الذي نشأ منذ إعلان «كلنا أميركيون» في ٩/١١: ليس لأن شافيز معارض لبوش، يصبح شخصاً لا يمكن المرء أن يخالطه. وليس لأن بوش يشبّهه بفيدل كاسترو، «يجب على المرء أن يعتبر شافيز بمثابة كاسترو جديد». وبعد هذا المقتطف من الفكر الجيوسياسي، يأتي التفسير...

رَهْو Allegretto

بلغنا هذا الحد: «لا يجب علينا أن نعتبر هوغو شافيز بمثابة فيدل كاسترو جديد، ومتحدث باسم المحرومين». لماذا؟ «لأن شافيز يَدين، قبل أي شيء، ببقائه السياسي للارتفاع في أسعار النفط».

قبل العودة إلى هذا التفسير الإعجازي، علينا أن نحاول حل هذه المعضلة: هل تشرح هذه الجملة لماذا ليس شافيز كاسترو جديداً، أو لماذا ليس شافيز المتحدث باسم المحرومين؟ اللغز مطبق. ويمكننا المضي عن طريق الإسقاط: ليس لأن بقاءه السياسي مردّه إلى زيادة أسعار النفط، فإن شافيز ليس كاسترو جديداً... لكن بأي طريقة سيؤدي ذلك إلى منعه من أن يكون المتحدث باسم المحرومين؟ علينا المحافظة على حضور ذهننا وحلّ عقدة ذلك كله.

لنبدأ من جديد: «... هوغو شافيز يَدين فوق كل شيء ببقائه السياسي للزيادة في أسعار النفط [من هنا توكيدي]. ويتبع ذلك أن شافيز «يبقى» (برغم ذلك بـ ٥٨ في المئة من الأصوات ونحو مليونين من الأصوات المحذوفة). وإنه كان ليبقى حتى من دون الارتفاع في أسعار النفط. وهذا يتطلب تفسيراً...

وإليكم التفسير»

لم يكن، من دون هذه [الزيادة في أسعار النفط]، ليعثر قط على مليارات دولار التي أنفقها في الأشهر الماضية على برامج اجتماعية يصعب نفي طابعها الانتخابي.

وبقدر ما هو حسن الاطلاع، فإن كاتب افتتاحية «لو موند» المجهول، لا بد من أنه قرأ ـ في الصفحات الاقتصادية ـ مقالات عن ارتفاع أسعار النفط. وهو يعرف إذاً أن استقرار أسعار النفط وموجة الارتفاعات الأولى التالية مردهما إلى دور حكومة شافيز في إعادة إطلاق «أوبيك». وهو يعرف أيضاً أن الأرباح التي أعادت الحكومة توزيعها تحققت بالرغم من الاحتجاب عن العمل الذي فرضه إضراب أرباب العمل في السنة الماضية. وهو، في النهاية، يعرف أيضاً أنه كان يمكن هذه الأرباح أن تُستخدم لزيادة أرباح الموثورين، وأن تخصيصها للبرامج الاجتماعية كان بالتالي خياراً سياسياً.

لكن كاتب افتتاحية «لو موند» يفضّل أن يتجاهل كل هذا: فهو بات يعرف أن شافيز (وحده؟) أنفق مليارات الدولارات على برامج اجتماعية يصعب نفي طابعها الانتخابي. وبعبارات أخرى، عندما تتمكن الحكومة[1] أكثر من ذي قبل، من الوفاء بالتزاماتها التي سمحت لها بكسب ثقة الشعب، فإن ذلك يتم لـ ... كسب الأصوات، ناهيك بأننا نقول إنه شعبوي...

خاتمة Finale

وينهي كاتب الافتتاحية «رقصة الباليه» الثنائية على هذا النحو:

---

(١) التي، يجب أن يقال عَرَضاً، تبنت منذ فترة طويلة إجراءات اجتماعية (كما يقال)، لم تكن «لو موند» كثيرة التحديد في شأنها.

أمامه سنتان لإظهار حسّه بالمسؤولية، ولوقف إدارة بلاده بهذه الطريقة المشوّشة. . . وفوق أي شيء، ليحترم في شكل تام القانون وحقوق الإنسان. لكن هذا يتطلّب، في المقابل، أن تحترم المعارضة كلياً نتائج الانتخابات، وأن تُظهر هي أيضاً أنها مسؤولة بترك هوغو ينهي ولايته.

نداء النفير هذا (الذي تتردد فيه أصداء إيحاءات غامضة واتهامات بوجود أجندة سرّية)(١) فارغ تقريباً، لا يقول شيئاً سوى كم أن «لو موند» تعتبر نفسها مهمة.

إعادة Reprise

ماذا يُستنتج من ذلك كله؟ أولاً، من حق «لو موند» أن تكتب ما تريد. بل يحق لها أيضاً أن تقدّم الوصفة التي تشاء إلى العالم كله: فمن يجرؤ على أن يحلم بوقف انحياز حزب «لو موند»؟

دعونا فقط نلاحظْ أن حزب «لو موند» يعمل ويعبّر عن نفسه بطريقة مستغربة. فالناطق باسم فريق التحرير بكامله، كاتب افتتاحية مجهول: ليس، وهذا ما لا نشك فيه، لأنه يطبق المركزية الإدارية، بل من جراء نوع غير شفاف، بشكل كبير، من التسلط المركزي. لكن لنُعَدّ من هنا. . .

---

(١) أين هي انتهاكات حقوق الإنسان التي يتم التنديد بها هنا، حتى قبل أن تحصل؟

هل حزب «لو موند» ينشر على الأقل صحيفة تنبئ قراءها؟ هذه مشكلة سنعود إليها بمزيد من التفصيل، لأنه من بين الخمسمئة مقالة من كل الأحجام التي كرّستها «لو موند»، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لفنزويلا منذ ١٩٩٩، لا تعطي أي منها تفاصيل عن الدستور البوليفاري؛ ولا تعطي أي منها تفاصيل عن مرسوم القانون الذي تم تبنّيه في ٢٠٠١؛ ولا تعطي أي منها تفاصيل عن المهمات التي شجعتها الحكومة، ولا حتى من أجل تقويمها. بل بالكاد بضعة مقاطع متفرقة في إطار من المقالات التحليلية أو التعليقية. وبرغم ذلك، ما من شك في ما يتعلّق بـ «لو موند»: فحكومة شافيز هي «شكل من أشكال القومية الشعبوية الاستوائية».

الملحق «ج»(*)

تعلّمنا الأمثولة:
ما لا يقتلك يجعلك أكثر قوّة

باريناس، ألعاب وصداقة

جئت إلى باريناس عندما كنت في الثانية. بعد ذلك بوقت قصير، انتقلنا، والداي، وأشقائي العشرة وأنا، إلى حي قريب من المكان الذي انتقلت إليه عائلة شافيز. كان هناك خياران فقط في باريناس في ما يتعلّق بالتعليم الثانوي: المدرسة الصناعية والتقنية، والمدرسة الثانوية العادية. أما الطبقة العليا فترسل أولادها إلى المدارس الخاصة.

في ذلك الوقت، درست وشافيز في مدرسة أوريلي الثانوية نفسها، لكننا كنا التقينا خارج أسوار المدرسة، حيث لعبنا كرة القاعدة. لم يكن هناك الكثير مما نفعله معاً في ذلك الوقت،

(*) مقابلة مع حاكم ولاية لارا، ريّس ريّس، أجرتها معه روسا إليزالدي ولويس بايز.

لأنه لعب في فريق وأنا في فريق آخر. ويجب أن اعترف بأن فريقه كان أكثر تنظيماً من فريقي.

ـ في أي قاعدة لعبت؟

ـ كنت متلقّفاً، وفي موقع الاستعداد لالتقاط الكرة، وهو كان دائماً في القاعدة الأولى. وقمت عدة مرات بالرمي هناك في باريناس، لكنني في معظم الأوقات كنت المتلقّف عندما يكون هو في القاعدة الأولى.

ـ هل تطوعت في سلاح الجو؟

ـ اخترت، عندما أنهيت دراستي الثانوية، الذهاب إلى مدرسة سلاح الطيران في ماراكاي بدلاً من الأكاديمية العسكرية في كاراكاس. مضى كل منا في طريقه. والتقينا، في نهاية العام، إبان المباريات بين الأكاديميتين. لم يقصد في تلك الأيام الكثيرون منا من باريناس، الكليات العسكرية، ولم يتجاوز عددنا العشرة.

أذكر أنهم، في تلك المباراة، وضعوني في مركز الرمي عندما كانت الأكاديمية تهزمنا. تمكنت من إيقافهم، لكن هوغو أصاب كرة وبلغ القاعدة الأولى، بالرغم من أنني لم أمكّنه من النجاة بها، وادعيت أنها كانت لعبة فريدة وحيدة. ولطالما اعتبرت أن ما أنقذه هو أن القاعدة الأولى كانت قريبة بالفعل. ولعب واحدنا ضد الآخر في المباراة الثانية. لكن حينذاك، أصبحت علاقتنا أكثر وثوقاً. وصرنا أكثر قرباً في السنة الثالثة،

حيث عندما يصبح المرء برتبة بريغاديير،[1] يتمتع بمزيد من الاستقلالية وبفرصة أكبر للصداقة. وفي السنة الرابعة أرسلوني إلى الولايات المتحدة، إلى وحدة طيران تدرب الضباط المتمرّنين في كولومبوس في الميسيسيبي... وهناك أصبحت ضابطاً طيّاراً، وتخرّجت.

ـ هل أقمت أي علاقة مع شافيز في ذلك الوقت؟

ـ كلا، لم يكن من اتصال كبير بيننا في تلك السنة. تخرجت ضابطاً طياراً. وعندما عدت إلى هناك، عينوني في مكان آخر، فانتقلت وغادرت إلى باركويسيميتو في ١٩٧٥. وقرابة ذلك الوقت تخرّج أحد أشقائي من مدرسة الاتصالات في الجيش، وأُرسل إلى باريناس حيث كان شافيز يخدم بصفته ملازماً ثانياً. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٧٦، في خلال المأذونية الأولى، عدت لأرى عائلتي، فالتقينا، ودار بيننا حديث في الحصن هناك...

ـ متى حصل أن حلّقتَ بطائرتك فوق سيدينيو باتايون وتسببت بهزّة هائلة؟

ـ في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٦، إبان مهرجان بيلار في باريناس. توجّب القيام بغارة جوية وهمية على سيدينيو باتايون.

---

(١) في الأكاديمية العسكرية في فنزويلا، يحصل الطلاب ذوو أعلى العلامات الأكاديمية على رتب فخرية (مثلاً، بريغادير بريميرو، وبريغاديير، وديسنينغويدو).

كان الحصن هو الهدف الأخير. نظرت إلى يميني، وبينما نحن ندخل المدينة، ورأيت تدريباً يجري لاستعراض المهرجان. خرجت عن مساري، وأخذ الأناس المشاركون في الاستعراض يلوّحون لطائرتي. أبقيت الاتصال اللاسلكي مع الطائرات الثلاث الأخرى التي كانت تحلّق ورائي. نحن داخلون. الهدف في المرأى. نحن خارجون. طرت بمحاذاة برج المراقبة الذي أفاد عن وجودي. وقال الضابط المسؤول عن المناورة، «لا، هذا غير ممكن، فالطائرات هي جنوب شرق المكان».

عندما خرجت من الطائرة، قاربني قائد اللواء، وقال: أكنت تقود الطائرة الرقم ٤ في السرب؟ ماذا كنت تفعل محلّقاً فوق المدينة؟ فأجبت بأنني أردت أن أتدرّب على الاستعراض. كانت طائراتنا متجهة إلى الاستعراض في اليوم التالي. وكان وجه ذلك الرجل يقول لي إنه يجب توقيفي، هذا في أحسن الاحوال...

ـ شافيز يسلّي نفسه وهو يتذكر هذه القصة...

ـ يقول دائماً إنهم أوقفوني. لكن ما حصل كان أكثر سوءاً: منعوني من المشاركة في الاستعراض في اليوم التالي. كان ذلك أشد إيلاماً، لأن سكان المدينة كانوا هناك، ويحلم المرء دوماً بالقيام بمناوراته، وأن يقول الناس: انظروا هذا فلان ابن فلان. وعلى أي حال، فإن واقع قيامي باستعراض كان بمثابة تعزية لي. كان استعراض الرجل الواحد، لكنني قمت به.

أولى المؤامرات

التقينا أنا وهوغو كثيراً في نادي الضباط التابع للجيش في باريناس. جميع الضباط يلتقون هناك، ويعاقرون بعض الشراب ـ لم يكن هو من الذين يشربون كثيراً ـ ويلعبون كرة القاعدة. وأقام، خلال تلك الأعوام القليلة الأولى، علاقة وثيقة مع شقيقي أنيبال. وفي أيار/مايو ١٩٧٧، نُقلت فرقة كازادورس سيدينيو إلى كومانا. في ذاك الوقت، كان هوغو قد تعرف إلى نانسي، أم أولاده الثلاثة الأكبر سناً، وكان شقيقي مخطوباً لزوجته الحالية. كانا يمضيان معاً لرؤيتهما، لأن المرأتين جارتان.

في ١٩٧٨، تمت ترقيتنا من ملازمين ثانين إلى ملازمين. وفي ١٧ كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة، التقينا على مقربة من بعض أشجار النخيل قبالة منزلي. أخبرته عن أمر حصل معي، وكان هو يخبرني عن طريقة تصرّف الجنرالات. لا يعرف المرء عندما يكون ملازماً ما يحصل في القيادة العليا. أذكر أنه انتقد غياب العقيدة العسكرية، وكيف أن العسكر تآمر مع سياسيي ذلك الوقت الفاسدين.

في ١٩٧٩، أصبحت ملازماً، بعد أن أُرسلت إلى دورة أخرى في الأكاديمية العليا لسلاح الجو في كاراكاس. التقيت هناك قائد السرب وليام إيزارا كالديرا، وهو اليوم فريق أول طيّار، وقد شاركني بعض أفكاره حول المبادئ الأخلاقية العسكرية التي أثّرت فيّ. قلت له هذا، وأجابني، وقد تملكته

الدهشة لسماع ملازم شاب يتحدّث على هذا النحو: ماذا تعتقد أنه علينا القيام به؟ علينا أن نغيّر الجيش من الداخل. يجب الأخذ في الاعتبار أننا كنا نفكّر في الجيش، ولم نكن مدركين بعدُ الحاجةَ إلى تغيير النظام السياسي في البلاد. كان الأمر أشبه بالانحباس داخل زجاجة. لم أكن أعلم حينها أن وليام إيزارا كالديرا كان جزءاً من حركة انقلابية.

كان قد عاد للتو من الولايات المتحدة. درس التربية في هارفرد، ودعاني إلى إلقاء نظرة على بعض الوثائق. ولسبب ما، لم نلتق في ذلك الحين. عدت إلى باركويسيميتو، وكنت قد تزوجت بميلاغروس، وكان إيزارا قد نُقل في ١٩٨٠ إلى هنا، إلى ولاية لارا. ها نحن نلتقي مرّة أخرى بالصدفة، قال: «لا، ليست صدفة. لا تنسَ أنني أردتُ أن أستمع إلى حججك». علمت أن الأمور أصبحت صعبة عليه، ولهذا نقلوه من كاراكاس إلى باركويسيميتو. كان يبدو كمتآمر ويتكلّم كما لو أنه وحده. بعد ذلك بوقت قصير، أراني في شقته، الوثائقَ، وأوجز لي مشروعاً سياسياً كاملاً.

ـ هل كان للأمر أي علاقة بما ستصبح لاحقاً الحركة البوليفارية؟

ـ لا، بل كانت تُعرف بالحركة الثورية للجنود في الخدمة .Accion Revolutionaria de Militares Activos, (ARMA). عرضت أن أضعه على اتصال مع أصدقائي ـ كنت أبالغ، لأنه كان لي صديق واحد يشاركني هذه الأفكار: هوغو شافيز ـ.

بعد ذلك ببعض الوقت، التقينا ثلاثتنا في بالو غراندي، وهو حي راق في كاراكاس. وما أوجزه لنا كالديرا كان حركة مدنية وعسكرية واسعة.

ـ وماذا كان فحواها؟

ـ كانت أشبه ببقايا الحركات الهدّامة في الستينيات التي قُمعت بعنف. وربما كان لقائد السرب وليام إيزارا علاقة ما بتلك الحركات عندما كان ضابطاً طياراً. كان هوغو تريخو، وبوسيدس غونزالس، وغيرهما من البحرية في تلك المجموعات التي شكلت التيار الأكثر هدماً في الستينيات. وبعد هذا الاجتماع، تمت ترقيتنا إلى نقباء في ١٩٨٢، وهي السنة التي أقسمنا فيها اليمين في سامان دي غويري. وقد توافقنا بالفعل على أنه سيقوم بتنظيم أصدقائه في الجيش، وأقوم أنا بتنظيم أصدقائي في سلاح الطيران.

ـ هل غالباً ما كنتما تريان بعضكما البعض؟

ـ تحادثنا كثيراً. هو كان في الأكاديمية العسكرية، وأنا كنت مدرباً في أكاديمية سلاح الجو. وربما أقمت علاقة أكثر وثوقاً مع الطلاب العسكريين مما فعل هو، بسبب طبيعة سلاح الجو. فنحن مجبرون على العيش واحدنا فوق الآخر، والعمل كمجموعة. فحياة كل منا تعتمد على ذلك.

ـ هل كان لمجموعتك اسم؟

ـ لم نُعطَ أي شيء، ولا أي اسم، وذلك من أجل سلامتنا

الخاصة. أما هم ففعلوا، بالرغم من أنني لم أكتشف اسم الحركة إلا عندما وُضعنا في السجن بعد ذلك بعشرة أعوام.

واصلنا الاجتماع ببعض الانتظام. والتقينا في ١٩٨٣ في ماراكاي، بعدما أصبح هناك مع القوات الخاصة، ويقيم على مقربة من المدينة، في سان خواكين، عند الحدود بين أراغوا وكارابوبو.

كنا نزحف خارجين من الزجاجة؛ بمعنى أننا خرجنا من الدائرة المغلقة للجيش، وبدأنا في البحث خارجاً عن الأسباب التي تقف وراء مشاكل القوات المسلحة وانحراف العقيدة العسكرية. عرفنا أن الفساد مردّه السياسة.

خلال الانتخابات، ينقل سلاح الطيران صناديق الاقتراع. وأذكر أنني، حين كنت ملازماً، كُلِّفت مهمّة نقل صندوق اقتراع في مدينة جبلية. وبينما كنت على وشك المغادرة، طلب مني المقدّم ألا أذهب لأن هذا الفريق أو ذاك قد فاز، على أي حال، في الانتخاب. لكن، ماذا بالنسبة إلى هؤلاء المقترعين؟ وأجابني بازدراء أن أنقل صناديق الاقتراع وأرميها من الطائرة. كان هذا أحد مظاهر الفساد. وعندما بلغت صناديق الاقتراع اللجنة الوطنية للانتخابات، حصل الأمر نفسه: فإما قاموا برميها، وإما بتغييرها. هذه جرائم شاركت فيها القوات المسلحة يومياً، هذا من دون الإشارة إلى الثراء المكشوف الذي تباهى به كثير من الضباط الذين خدموا النظام السياسي.

ـ هل من قوات كانت تحت إمرتك؟

ـ نعم. ونحن كنقباء، أخذنا في تجنيد المزيد من الضباط، وأصبحنا مجموعة كبيرة. كنا نلتقي في فالنسيا، في ولاية كوردوبا، ونتخذ الكثير من الإجراءات كي لا تتم ملاحظتنا.

ـ هل شارك شافيز في هذه اللقاءات؟

ـ ترأس الاجتماعات، ودعاني إليها. كنت أذهب مع بعض ضباط سلاح الجو أمثال ويلمار كاسترو سوتلدو، وهو اليوم وزير الإنتاج والتجارة. وكنت أذهب أيضاً برفقة رائد من أصل إيطالي ذي بنية ضخمة، وكان شديد الاندفاع والعدوانية، وغالباً ما تحدّث عن إطلاق الرصاص على الناس، وما لبث أن تقاعد.

بدأنا نجري اتصالات مع مدنيين في مجموعات سياسية، وبخاصة مع القضية الراديكالية؛ وهي حزب يساري بايع اليوم الليبرالية الجديدة وأصبح واحداً من الأكثر سوءاً وفساداً. وكان الجزء الأكبر من عملنا مع أعضاء القضية الراديكالية في غويانا. أنشأوا هناك فريق عمل جيداً مع اتحادات عمال الحديد والصلب، وأصدروا صحيفة رصينة. وهذا كله أفادنا نحن أيضاً.

ـ ألم تشعر بأنك مضطهَد؟

ـ شافيز شعر بذلك. وقد أخذوا، في الواقع، ينقلونه من وحدة إلى أخرى. وأذكر أنهم أرسلوه من ماراكاي إلى إيلورزا، في ولاية أبوري.

ـ هل كانوا قد رفّعوك إلى رتبة رائد؟

ـ نعم، في عام ١٩٨٦. في ذلك الوقت، التقينا الجنرال فرانسيسكو فيسكونتي أوسوريو، وهو رجل ذو مبادئ أيديولوجية راسخة. كان جزءاً من مجموعة ARMA (الحركة الثورية للجنود في الخدمة)، وبدأ القمع بفعل بعض الدسائس. قتل أوسوريو أحد الضباطَ المرتبطين بالمجموعة بالرصاص في لوس تيكويس. وفي وضع كهذا، اتصل بي شافيز وطلب مني زيارته في إلورزا. أذكر أننا تجولنا على صهوة الحصان حول قطعة مزروعة كانت له في الوحدة، عند مدخل المدينة، وذهبنا إلى حفل موسيقي في المساء. وكان قد عُيّن رئيساً للجنة المهرجان. وتحدثنا، من بين أمور أخرى، عن إمكانية حركة عسكرية ما، والقيام بعمل عسكري على نطاق واسع.

ـ هل تتذكر التاريخ، تقريباً؟

ـ بالطبع، إنه يوم احتفالات إلورزا، في ١٩ آذار/مارس ١٩٨٦. وكانوا بدأوا في تعقّب هوغو، بعدما شكّوا في وجود مؤامرة ما.

ـ لكنهم، كما تبيّن، لم يتمكنوا من تحطيم الحركة.

ـ أتدري ما الذي عمل لمصلحتنا في ذلك الوقت؟ لقد شهدت القوات المسلحة صراعاً داخلياً كبيراً على السلطة، وهو ما حرف أنظارهم. كانوا يتحاربون في ما بينهم لتقرير من يتولى قيادة الجيش، ومن ينال حظوة هذا الحزب أو ذاك، ومن سيفوز بالانتخابات، وماذا سيكون موقف كل واحد منهم. وربما اعتقدوا أن الضباط الأصغر رتبة المنزعجين، لن يلبثوا أن ينسوا الأمر برمته عندما يحصلون على الترقية.

التحضيرات للتمرّد

بعد ذلك الاجتماع في إلورزا، التقينا في مرأب السيارات في المؤسسة العليا للجيش في كاراكاس. وبدأ بعض أساتذة الجامعات في حضور اجتماعاتنا. كان يمكن اشتمام رائحة تمرّد ما، لكن كانت هناك أيضاً توترات وخلافات.

ـ هل كان شافيز يستخدم خوسي أنطونيو اسماً مستعاراً؟

استخدمه في مجموعته، لكن ليس معنا. فالاتصالات بيننا، نحن الاثنين، كانت أمينة جداً. ولم أستخدم أنا أيضاً اسماً مستعاراً. كان هاجسنا الأمن. وزيادة على ذلك، فإن عالمهم يختلف عن عالمنا: فنحن الطيارين نعيش في مجموعات. لم يكن أحد ليقطّب حاجبيه إذا رأى أربعة أو خمسة طيارين معاً، يتحدثون. في الجيش تختلف صلاحيات النقيب كثيراً عن صلاحيات الملازم. ولم تكن هذه حالنا، لأن الملازم الأول طيار سيطير معي، ونحن نخاطر معاً بحياتنا. فإذا تحطّم الملازم الأول الطيار تتحطم أنت أيضاً.

وبرغم ذلك، لم تكن احتياطاتنا كافية. أتذكر نادرة يرددها شافيز دائماً. فنحن حينما أصبحنا برتبة رائد في القوات المسلحة، التقينا في يوم الطيران في إحدى بطولات السوفتبول بين الوحدات المختلطة، واتخذنا مواقعنا في المباراة. وصرخ أحد الرفاق من المدّعين، ها أن الكوماكاتس قد أتوا مباشرة! وكوماكاتس هو الاسم المعطى للمفتنِين، وهي كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى للقادة، والروّاد، والنقباء، والملازمين. أصبح

وجه شافيز أحمر. فقد فضحنا هذا الرجل المستهين بالخطر، هكذا، أمام الجميع. وشافيز صديقي، وقد دعوته إلى تلك المباراة. حصلت ثغرة أمنية صغيرة، لكن، لحسن الحظ، لم تكن لها أي عواقب.

ـ أنت عدت إلى الولايات المتحدة.

ـ في نهاية ١٩٨٧، عُيّنتُ مساعداً للملحق العسكري في سفارة فنزويلا في واشنطن. رونالد بلانكو لا كروز، الحاكم الحالي لولاية تاشيرا، كان هناك أيضاً. بعث إلي بمذكرة يبلغني فيها أنه يتابع دورة في جنوب الولايات المتحدة، وأنه سيأتي ليزورنا. ولسبب ما، لم يحصل ذلك، لكنني، في إحدى سفراتي إلى فنزويلا ـ غالباً ما كنت آتي وأعود ـ التقيت رونالد من دون سابق انتظار، وكان ضابطاً في أحد الحصون، وتوطدت معرفتنا... وهو عبر طبعاً عن انشغالاته وعبّرت أنا عن انشغالاتي أيضاً.

ـ ماذا حل بالمجموعات في هذا الوقت؟

تشتّتنا بعض الشيء. وأُرسل الكثيرون منّا ـ ومنهم فيليبي أكوستا كارليز ـ إلى أميركا الوسطى، والسلفادور، كجزء من عمل عسكري مشترك بين الحكومتين الفنزويلية والأميركية. وعندما عادوا، بدأ الكاراكازو في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩.

ـ هل قاتلت ضد المتمردين في ذلك الوقت؟

ـ لا، لا، إذ غالباً ما يتم استدعاء القوات البرية والحرس

الوطني لهذه الأنواع من الأعمال. لم يستخدموا سلاح الجو المتخصص جداً.

وأذكر مرة أننا أخذنا بضع طائرات إلى كوستاريكا، كجزء من خطة ضد سوموزا، إبان الولاية الأولى لكارلوس أندرس بيريز.

ـ متى عدتَ من الولايات المتحدة؟

ـ في أواسط ١٩٩١، وأجريت عندها حديثاً مع الرائد شافيز. أكد لي أن الحركة لا تزال قائمة، وأن الكثير من الأمور تحوّل إلى الأسوأ، بما في ذلك القمع ضد المجموعة، وضده شخصياً. وقلت له إن أحد مساعدي وزير الدفاع في واشنطن، وهو برتبة رائد، أعطاني لائحة سرّية بأسماء أولئك الملاحَقين بسبب نشاطاتهم الهدامة. كان اسمي في آخر اللائحة، أما اسم هوغو ففي رأسها.

هل دعاك شافيز إلى المشاركة في الانتفاضة؟

نعم، فقد التقينا مطلع تشرين الثاني/نوفمبر... طلبتُ بعض الوقت لأعيد تنظيم القوة الجوية، بما أنني قد عدت للتو إلى فنزويلا. فالكثيرون من الذين دعموا الحركة في الأساس لم يعودوا في سلاح الجو، وتلاشت روح التمرد لدى البقية بعض الشيء.

وحوالى العشرين من الشهر، أبلغني الرائد شافيز أن التحرك العسكري سيتم في ١٠ كانون الأول/ديسمبر، في عيد سلاح

الجو، عندما يحضر الرئيس كارلوس أندرس بيريز الاحتفال العام في ذلك اليوم. لكن ضباط الجيش كانوا متململين كثيراً.

التقينا في الأسبوع الأول من كانون الأول/ ديسمبر. وقد أخذ ضباط الجيش المتمردون يصرّون علينا أن نتحرك سريعاً. تحدثت مع الجنرال فيسكونتي، الذي كان رئيسي الجديد منذ عودتي من الولايات المتحدة، ووافق معي على أن سلاح الجو ليس في وضع يسمح له بالانضمام إلى الانتفاضة في ذلك الوقت.

كان هناك فارق في العمر بين الضباط القادة في سلاح الجو والجيش. لم نكن نملك قيادة وحدات عملانية. أرادوا إلحاقي بوحدة عملانية في باركويسيميتو، لكنني أخّرت نقلي إلى هناك لأواصل تنسيق التحركات مع الرائد شافيز. كانت تلك غلطة فادحة. كان علي القبول بعملية النقل، إذ سيصبح في وسعي دعم العملية برمتها من ماراكاي. وفي النهاية، لم يحصل التمرّد في كانون الأول/ ديسمبر؛ وفي ١٠ كانون الثاني، بعد عودتنا من العطلة، استأنفنا اجتماعاتنا، بانتظام أكبر، بسبب ضغط الضباط الصغار...

- في رسالة أعطتنا إياها زوجتك ميلاغروس، يكتب لك شافيز، بالرموز، عن مدير دعمك في مكان يدعى لوس كولورادوس. إلى من كان يشير؟

- إلى الجنرال فيسكونتي. ولوس كولورادوس هو مطعم يقع في الطريق إلى ماراكاي، على مقربة من لوس تيكويس. كنا

نلتقي هناك، وأصبحت هذه اللقاءات أكثر فأكثر انتظاماً بعد ١٥ كانون الثاني/يناير.

الروّاد شكلوا الرتب الأعلى في الضباط الموالين لنا. فجنرالات الجيش بدّلوا ولاءهم. وفقدوا، بعد ترقيتهم، دافعهم الثوري، ورفضوا أي علاقة لهم مع الشبّان المفتنين. لقد امتصهم النظام.

ـ هل كنتم تبحثون عن أحد في المراتب العسكرية الكبرى؟

ـ نعم، وعرفنا أن فيسكونتي كان جنرالاً تقدّمياً. وكان هناك أيضاً وليام أزارا. وهو، بالرغم من أنه ترك سلاح الجو، إلا أنه مفكّر تقدّمي، يعرف كيف يتخذ قراراً صعباً، وكيف يستمع.

ولمّا ينتهِ شهر كانون الثاني/يناير بعدُ، حتى حذّرني الرائد الذي أعطاني لائحة الضباط المتهمين، من وجود الكثير من التوتر، وأن الناس يقولون إن الضباط الصغار سيتمردون في أي حال إذا لم يتحرّك رفاقهم الضباط من رتبة رائد وما فوق. طلب مني شافيز الاجتماع معه في الثاني من شباط/فبراير في ذلك المطعم في لوس تيكويس. في ذلك اليوم، غادرت باريناس، واتصلت بالجنرال فيسكونتي، وقلت له إنه علي أن أراه مساء ذلك الأحد نفسه في لوس كولورادوس. وصلنا أنا وهوغو إلى هناك حوالى التاسعة والنصف ليلاً، وهو الوقت الذي اتفقنا فيه على اللقاء. كانت تمطر. تأخر الجنرال، وقررنا، حوالى الساعة الحادية عشرة، أن نغادر. وبينما كنا نهم بالمغادرة، وصل

فيسكونتي مع مشير الجو المتقاعد ماكسيميليانو فرنانديز، الذي لم نُرد قطُّ الكشف عن هويته.

ـ لماذا لا تريد تسميته؟

ـ لأنه شخص ساعدنا وقتها، ولم تعد له بعدها أي علاقة معنا. نحن ممتنون له. وهو اليوم يقيم روابط مع مجموعات مناهضة للثورة ويحط من سمعتنا، ويكذب شمالاً ويميناً.

أبلغنا شافيز أن التمرد سيحصل في غضون ساعات قليلة. وبقينا هناك نضع الخطط حتى الثانية فجراً. وعلمنا، عند الوداع، أن التحرك العسكري سيبدأ في الثالث من شباط/فبراير في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة ليلاً.

وافق الجنرال مكسيميليانو على أن يرسل في ذلك الصباح رائداً ليقدّم الدعم عند محيط القاعدة التي كنت فيها في ماراكاي.

أبلغ الجنرال فيسكونتي الرائد شافيز بوجود حظوظ قليلة جداً في تأمين دعم جوي. وأشار إلينا بالتركيز على تفادي هجوم جوي على القوات البرية التي ستحتل ميرافلورس.

أذكر أن شافيز سأل فيسكونتي عند الثانية فجراً، لماذا لا يأتي معنا إلى كاراكاس؟ فأجاب بأنه عليه أن يصون القيادة العليا لسلاح الجو من القاعدة البحرية. وكان يشير إلى أكبر قاعدة لسلاح الجو، متواجدة في ماراكاي.

لقد اتخذ القرار الصائب. كان فيسكونتي يقيم في تلك القاعدة، لكنه لم يكن قائد تلك القوات، بل كان يقودها جنرال آخر، يميني الولاء في شكل يثير الاشمئزاز. كان والده وزيراً في حزب العمل الاجتماعي. فمَنْعُ هجوم جوي على القوات المتمرّدة كان أمراً حيوياً.

ـ من كان قائد تلك القوات؟

ـ الجنرال خوان أنطونيو باريديس نينيو. سبق أن كان والده، باريديس بِيّو، وزيراً للدفاع، وهو واحد من الذين أوقعوا أكبر أذى بسلاح الجو. قرر الجنرال فيسكونتي أنه سيذهب إلى ميرافلورس ما إن يستولي عليه الرائد شافيز. ووعد الجنرال الآخر، الجنرال مكسيميليانو، بالذهاب إلى كاراكاس للمشاركة في الانتفاضة. وغادرنا، أنا وهوغو، إلى ماراكاي. ذهبنا بسيارتي وكانت من طراز ماليبو. غادرت حوالى الرابعة فجراً ـ بعد توقف في الطريق ـ تجاه ثكنة بايز، حيث كانت الكتيبة التي يقودها شافيز. رأيته يسير صوب مركز صغير للحراسة أقاموه هناك. تحقق جندي من هويته، وأدرت السيّارة.

٣ شباط/فبراير ١٩٩٢

ـ كنتُ مقيماً في القاعدة الجوية. لكنني، قبل بلوغي الكتيبة، توقفت عند منزل الرائد لويس ساباتينو: رامبو الشهير الذي هرب. قلت «اسمع، غداً هو اليوم المنشود». امتقع لون وجهه: «أي يوم؟». كان يجب أن أنتظره الثامنة صباحاً في ماراكاي.

لكنه لم يحضر قط. فهو كان يطير بسرب من طائرات «أف ـ ١٦»، وأردته أن يساعدني على الاتصال بضباط هذا السرب وإقناعهم بدعم الجيش، بالرغم من أن تعليماته قضت فقط بشل سلاح الجو.

عند الرابعة بعد الظهر كان على الرائد شافيز أن يحضر إيجازاً للمهمة التي أوكلها الجيش إلى وحدته. وبالكاد عرف الجميع أننا استخدمنا مناورات روتينية للجيش، مقررة في ٤ شباط/فبراير، تغطية لتمرّدنا.

كان على القوات، في ذلك اليوم، أن تتقدم إلى إل باو (كوخيديس) في الجنوب. وبدلاً من التوجه إلى إل باو، خرج شافيز إلى كاراكاس.

عند الثالثة بعد الظهر، تحدثت مع الجنرال فيسكونتي في واحد من مرائب ماراكاي، واتفقنا على الاستيلاء على القاعدة أثناء الليل. وراجعنا العمليات في شكل روتيني عند الرابعة بعد الظهر. وأخذ جميع الضباط المشاركين في اجتماع التنسيق الأخير لعملية ٤ شباط/فبراير، وهو موعد مناورات إل باو، في الوصول. وقد حضر جميع روّاد القوّات الخاصة الإيجاز الأخير.

ـ هناك، في ماراكاي؟

ـ في القاعدة، في ماراكاي. شاهدت جميع الضباط يدخلون، إلا شافيز، الذي وصل بعد لحظات قليلة على عجل. كان قد تأخر. انضم إلى الاجتماع، وخرج بعد بعض الوقت. طلبت من أحد الجنود أن يمضي إلى شافيز، قائلاً له إن لدى

شافيز صندوق كتب يخصّني. رافقه الجندي إلى سيارته، ففتح صندوقها، وأخرج صندوقاً سلّمه إياه. كان في داخله جهاز الراديو الذي سنستعمله للتواصل مع بعضنا البعض إبان الانتفاضة. هيه، «هذه الكتب تزن الكثير»، قال لي الجندي الشاب. «إنها مجرد كتب قديمة، ضعها هنا». قلت له. داخل العلبة كانت الرموز التي سنستخدمها عبر الراديو.

عند السادسة مساءً، التقينا، أنا والجنرال فيسكونتي، وضابطين آخرين ـ رائدين عُيّنا في الوقت نفسه مثلنا ـ. سألني الجنرال هل أبلغت هذين الضابطين؟ أجبت: لا، لم أقل لهما شيئاً. لكن يمكنني ذلك، لأنني اعتقدت أنه يجب الوثوق بهما، وأن اي تسريب، في وقت متأخر من العملية، لن يغيّر في أي شيء.

ـ لقد حصل بالفعل تسريب...

ـ نعم حصل... انتهى اجتماعنا عند التاسعة، ومضى الجنرال فيسكونتي إلى منزله، لارتداء ثياب الميدان وجلب مسدسه. وغادر الضابطان الآخر، على ما يُفترض أنه لتبديل ملابسهما. لكنهما لم يعودا قط.

اشتباكات في ماراكاي

عند العاشرة إلا ربعاً ليلاً، سُمعت أولى الطلقات النارية حول القاعدة. دخل المتمردون عبر مركز للحراسة على مقربة من أحد منازل الحامية. شاهد الجنرال فيسكونتي الرائد تورّيس،

المكلف حصار القاعدة، يصل. وجلب معه أيضاً دبابة. حاولوا مفاجأة الجنود، لكن هؤلاء تصرّفوا. تم تبادل الرصاص وقُتل واحد من رجال الرائد تورّيس.

أمرني الجنرال فيسكونتي بالتحرك. وظهرت مجموعة النقباء قادة القوات المجوقلة ـ لا يمكن الوثوق بأي منهم ـ، واقترح الجنرال أن أحاول الحفاظ على ما يمكن من الجو الطبيعي، لنرى ما قام به العقداء. وأمرني بالتعامل مع الجنود الذين يحرسون القاعدة من داخل. لم يعرف أي منهم ما الذي يحدث. منعت ملازماً من أخذ مجموعة من الجنود إلى السور. وخرجت من مركز الحراسة الأساسي، وتوجهت إلى المركز الخارجي، حيث كان الرائد تورّيس... عندما سرت إليه، قطعت ما بيننا زخة من بندقية رشاشة.

كانت قوات مديرية الاستخبارات والوقاية DISIP قد أوقفت سيارتها على الجانب الآخر من الطريق تطلق النار من هناك. ركضت صوب المركز، حيث يوجد رائد آخر، طيار، يضع سواراً بوليفارياً. صرخت: أيها الرائد، أنا أيضاً مشارك في هذا.

لم يعلم تورّيس أن هدفنا هو شلّ القاعدة، ومنع الطائرات من الإقلاع. عدت إلى حيث كان الجنرال فيسكونتي، فقال: سننتظر. التعليمات الواضحة لدينا هي الانتظار حتى الاستيلاء على ميرافلورس. وعندها، سنوقف الضباط، ونساند المتمردين

في الجيش. كان على الجنرال فيسكونتي أن يتوجه إلى الضباط ويقول لهم إن البلاد تفتقر إلى زعيم، ولهذا فإننا ستتولّى الأمور.

لكن، ما فاجأنا ـ كانت الساعة الواحدة إلا ربعاً فجراً أو ربما بعد ذلك بقليل ـ أن ظهر كارلوس أندرس بيريز على التلفزيون. واتضح أننا لم ننجز أياً من أهدافنا. فلو أن الرئيس وقع أسيراً، لكنا استفقنا في الرابع من شباط/فبراير يدعمنا الشعب ولدينا سيطرة ما على الشوارع، وذلك بفضل العمل على الأرض مع القضية الراديكالية وغيرها من الأحزاب اليسارية، بمن فيها متطرفو الراية الحمراء، كوننا اجتمعنا بهم مرات عدة.

مرّت الساعات من دون أنباء عن رفاقنا في كاراكاس. لم يتسن لنا الاتصال عبر الراديو. بدأ العقداء يشكون في الجنرال فيسكونتي. اتصل كارميلو لوريا، وهو أحد قادة الحركة الديموقراطية، بالقاعدة، وعندما طلب التحدث مع الجنرال أجابه بأنه ليس لديه ما يقوله له. بدأ الشك يراودهم، ومضوا إلى وحدة أخرى لعقد لقاء. أخذ تورّيس الشاب يصبح يائساً شيئاً فشيئاً. وها أن الشمس بدأت في الظهور.

ـ هل أمكنك الاتصال بأحد آخر؟

ـ كلا، تمكنت الدبابات من دخول قصر ميرافلورس. لكن، من دون دعم جوي، يصعب على القوات أن تجابه بفاعلية هجوماً كهذا. وبرغم ذلك، كانت العملية حسنة التصوّر من حيث إنها تركت سلاح الجو خارجاً. فحتى لو أمكننا تحريك

طائرات ـ وهذا أمر مستحيل، لأنه لم تكن لنا سلطة حقيقية على هؤلاء الجنود ـ فلم نكن لنقوم بأي عمل فوق المدينة. وكان علينا أن نحضّر لهجوم ليلي ونضيء الاهداف. ولم يحصل أي من ذلك. الشيء الوحيد الذي أمكننا فعله هو وضع علامات فوق الدبابات التي يستخدمها المتمردون.

ـ وماذا عن فيسكونتي؟

ـ عند الخامسة من صباح الرابع من شباط/فبراير، أمره وزير الدفاع بالتحليق فوق المتحف العسكري حيث كان شافيز، وشن هجوم. استدعى الجنرال ذاك الرائد الإيطالي وطلب منه الإقلاع مع أربع طائرات، لكن من دون مهاجمة أحد، ولا حتى بتحميل أي أسلحة. وهو ما فعله.

كان العقداء يراقبون الجنرال عن كثب، وقد أصبحوا عند هذا الحد يشكون فيه أكثر من ذي قبل.

ـ لماذا كان الجنرال فيسكونتي هو من يُصدر الأوامر؟ هل كان قائداً للقاعدة؟

أُوقف القائد عند مدخل القاعدة وتولى فيسكونتي القيادة. واكتشفنا، بعد ذلك، أنهم عند السادسة من بعد ظهر الثالث من شباط/فبراير، كانوا قد عرفوا أن الانقلاب سيحصل، وحذّروا كل قادة الوحدات. لكن النخبة العسكرية لم تتمكن من تحذير القائد. كان محباً للمتعة، وخرج للاحتفال مع زوجته ـ أوقفها المتمردون معه وأطلقوها لاحقاً ـ. اضطر عقداء القوات

المجوقلة إلى أن يُطيعوا أوامر فيسكونتي، بما أنه الضابط الأعلى رتبة، في غياب القائد.

مع شروق الشمس، كان تورّيس لا يزال مشغول البال للغاية. وعند التاسعة أو العاشرة صباحاً، لا أذكر مع من تكلّمت، لكنني أدركت أن كل شيء قد ضاع سُدىً. أبلغت تورّيس أن التحرك في كاراكاس قد فشل، إلا أنه أصرّ على الاستيلاء على القاعدة. بعد دقائق قليلة من ذلك الحديث، ظهر شافيز على التلفزيون. خرجت وأعلمت الرائد تورّيس بذلك. طلبت منه سحب الرجال وإعادة الدبابات إلى وحدته. لم يكن إقناعه بالأمر السهل، فكيف بالضباط الصغار.

ـ بماذا شعرت عندما رأيت شافيز على التلفزيون؟

ـ بالأسى والحنين. كنت أحب لو أنني كنت هناك بالرغم من كل شيء. استمعت أنا والكثيرين من الضباط الآخرين، إلى رسالته في الوحدة اللوجستية. جاءني رائد وقال، «هل سمعته؟ لقد قال إن العملية فشلت في الوقت الراهن». أجبته «لا يربح المرء دائماً». وخرجت باحثاً عن تورّيس. فسّرت عبارة «الوقت الراهن» تلك بأن هناك المزيد سيأتي.

هناك المزيد سيأتي

في الطريق إلى مركز الحراسة، رحت أفكّر في ما سنقوم به لاحقاً. فكّرت في أنه يجب إعادة تنظيم أنفسنا. لكن علينا، قبل ذلك، أن ننجو من القمع الذي سيبدأ فوراً. علمت أنهم

سيوقفونني. لم أبال إذا كان ذلك سيكون في ماراكاي أو باركويسيميتو، حيث نقلوني قبل ٣ آب/أغسطس بكثير. جاءت ميلاغروس تقلّني من القاعدة حوالى الخامسة بعد الظهر. في اليوم التالي أرسلوا طائرة إلى باركويسيميتو وأعادوني إلى ماراكاي. استجوبوني وأخضعوني لجهاز كشف الكذب. والحال، أنني هزمت الآلة. سألوني: «هل عرفتَ بالعملية العسكرية»؟، «لا، لم أعرف بالعملية العسكرية»، أجبت.

ـ وكيف انتهى الأمر؟

ـ لا أدري. وضعوني في هيليكوبتر وأخذوني إلى كاراكاس. بلغنا قيادة القوات الجوية حوالى الثامنة ليلاً. ولدهشتي، أبلغني قائد سرب الطائرات أنه لا يريد تلطيخ صورة سلاح الجو: دع الجيش يتحملْ ذلك وحده. متى تتوقع ترقيتك؟ اعتاد هؤلاء الأشخاص شراء الناس بالترقيات (وأنا طبعاً لم أقبل بأي شيء؛ وجاءت ترقيتي في وقتها في تموز/يوليو ١٩٩٤). نقلوني إلى مديرية الاستخبارات العسكرية للتحقيق معي. كانوا غارقين حتى آذانهم. وضعوا المزيد من الطاولات في الممرات، وبرغم ذلك، لم يكن لديهم ما يكفي للتعامل مع جميع الضباط الموقوفين. وجاء زميل لي لطيف برجل شرطة للاهتمام بي. وبمروري عبر الطبقة السفلى، سمعت الرائد شافيز يغنّي.

ـ ماذا كان يغني؟

ـ أعتقد أنها «بالمارس دي كالابوزو»، وهي أغنية لإلياس

بردومو. أخذ قلبي في الخفقان بشدة. حاولت أن أتصور لماذا كان يغنّي. وخمَّنتُ أنه ربما كان يحاول تحذير رفاقه. فلو بقي هادئاً، فهذا يعني أن أمراً جللاً قد حلّ به.

نزلت عبر ممرات طويلة. كانت الزنزانات مكتظة، وعلى المرء أن يعبر ممراً للذهاب إلى ما تحت الطبقة السفلى. وقبل أن أدرك ما يجري، أصبحت في الشارع. غادرت من دون أن يتم استجوابي، أو ملاحظة أنني هربت. أخذت سيارة فارغة، وعدت إلى المقر العام للقيادة.

دخلت، ومضيت إلى الغرفة التي أُحتجزَ فيها. استلقيت على السرير وغفوت لبضع ساعات. في اليوم التالي، استدعاني مدير استخبارات سلاح الجو من جديد: «كيف سارت معك الأمور؟»، «في شكل جيّد»، قلت. وأبلغني أنه علي العودة إلى الديم في اليوم التالي. هناك اهتم بي شخص مشتت الذهن. قال لي إنهم أوقفوا الكثير من الناس الذين ليست لهم علاقة بما حصل. اعتذر مني، وطلب مني العودة إلى مقر القيادة.

ـ ألم يسألك أي شيء؟

ـ لم يكن ذلك استجواباً رسمياً، بل اكتفى بكتابة ما قلته له: «إنني من باريناس، وقد عرفت شافيز، وإنه كان عرّاب ابني». كانوا قد رأوني في منزله في اليوم السابق، فقلت له «نعم، وإنني حملت هدية إلى زوجته». على العموم، احتجزوني ٤٥ يوماً في تلك الغرفة في القيادة.

عرضوا علي إدارة مدرسة التمريض في سلاح الجو. لم

أقبل، فجعلوني أعمل في المقر العام للقيادة، في وظيفة مكتبية. واتُّهم فيسكونتي كذلك، ووضعوه في مكتب مفتش سلاح الطيران في وزارة الدفاع. كنا معاً في كاراكاس. أرسلت إليه ملاحظة أخبره فيها أننا ننظم أنفسنا، وأن الحركة تنامت، وأن عليه أن يكون صبوراً.

الطريق إلى ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر

اشتعلت الحرب من جديد داخل القوات المسلحة، كما لو أن شيئاً لم يحصل. فشهر تموز/يوليو، شهر الترقيات والمهمات الجديدة، يقترب. عدنا، من تحت أنوفهم، إلى حركتنا الانقلابية في المقر العام للقيادة، وفي الوزارة، داخل حصن تيونا. اعتدنا الذهاب إلى مخبز قريب من الحصن مع فيسكونتي وآخرين. كنا نختصر المحادثات لعملنا بأننا مراقَبون. أخذت الحركة في النمو من جديد، لكن في سلاح الجو هذه المرة.

ـ هل كنتَ على اتصال مع شافيز في السجن؟

ـ ليس في البداية، لا. راقبوا ذلك الأمر عن كثب، ولم يكن مسموحاً لنا، طبعاً، الذهاب لرؤيته. تدبّرت ميلاغروس رؤية هوغو، وجاء أحد أشقائه إلى باركويسيميتو وتحدّث معنا. لم نحدد موعداً. وفي ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢ أبلغني الجنرال فيسكونتي، أننا سنتحرّك في السابع والعشرين. لماذا السابع والعشرون؟ وأدركت لاحقاً لماذا. فالتمارين على الاستعراض الجوي الذي يقام دوماً في يوم سلاح الجو، في

العاشر من كانون الأول/ديسمبر، تبدأ في ذلك اليوم. جُمعت كل الطائرات في قاعدة ليبرتادور. ومضيت صباح ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر إلى ماراكاي.

ـ هل أجريت اتصالات مع ضباط في الجيش؟

ظهرت خلافات. اتصلنا بعدد من الجنرالات المتقاعدين، لكنهم رفضوا تلقي الأوامر من فيسكونتي، لأنه كان قائداً مشيراً في سلاح الجو، إلى جانب أن الجنرالات المتقاعدين كانوا أرفع منه رتبة. وفي النهاية أوقفنا اجتماعاتنا بهم.

من جهة أخرى، فإن ضباط الجيش الموقوفين كثر، ومن بقي منهم في الجيش كان عرضة للمراقبة عن كثب. واعتقدنا أنه من الأفضل الاتصال بالبحرية. وليلة السادس والعشرين، أبلغني فيسكونتي، أننا سنبدأ حركتنا في الرابعة والنصف فجراً. كنا في قاعدة ماراكاي.

أبلغني النقيب المسؤول أننا مستعدون للتحرك. ووصل أيضاً أحد قادة طائرات «أف ـ ١٦». «هل تشارك أنت أيضا في هذا؟»؛ أجبته: لا خيار لنا يا أخي.

انتظر الجنرال فيسكونتي مع الضباط الآخرين، وباشرنا تحركنا عند الفجر، كما هو مخطط. وبحلول بعض الظهر، حوالى الثانية أو الثالثة، كنا قد خسرنا، مرة أخرى، لأن القوى الأخرى فشلت. فقد وشى بنا أحد ما في الساعات الأولى من صباح السابع والعشرين، وتم شلّ حركتنا.

ـ يتم تذكّرك في تلك العملية، من بين أمور أخرى، بأنك أول شخص يخرق جدار الصوت فوق كاراكاس.

ـ حلّقتُ ثلاث مرّات فوق كاراكاس. في الجولة الأولى أمرت النقيب بوضع الطائرة على السرعة القصوى، للمضي إلى كاراكاس بسرعة قياسية. نعم، حلقنا على علو منخفض جداً، وخرقنا جدار الصوت.

لا يجب القيام بذلك عند أدنى من عشرة آلاف قدم، لأنه قد يتسبب بمشاكل كثيرة للطيار، أما نحن فقد قمنا بذلك على علو نحو ثلاثة آلاف قدم. كانت تلك الطريقة الوحيدة للمضي عبر وادي كاراكاس، كان الأمر أشبه بدويّ قنبلة. عند هذا الحد كان يدور أول الاشتباكات في المدينة. وانضمت مجموعة من الجنود تلقائياً إلى ضباطنا لمهاجمة ميرافلورس. فقد هاجموا القصر حتى بعدما علمنا أن البحرية لن تنضم إلينا. لم تكن هناك من عودة إلى الوراء.

يمكننا أن نتصور التأثير الذي أحدثه ضجيج الطائرة في المدينة. تحطّم الزجاج في كل مكان، وعدنا بالطريقة نفسها التي دخلنا فيها. قمنا بذلك فقط لإثارة الجلبة التي ستساعد على احتلال ميرافلورس، وأيضاً للهروب من الطائرات التي تتعقبنا، وكانت أحدث من طائراتنا.

ـ هل خططتم أيضاً لاحتلال محطة التلفزيون؟

ـ خدعنا أحد ما بطريقة قذرة. كان معنا شريط جاهز. فقد خططنا بعناية لاحتلال القناة الحكومية، القناة الثامنة، وقمنا

بذلك في وقت مبكر من النهار. تورّط ثلاثة جنرالات في الأمر: فيسكونتي وأميرالان. فيسكونتي، من ماراكاي، مع أسطول جوي كامل، والآخران، من وحدة الكوماندوس في البحرية، وأعتقد أنهما كانا في المتحف أيضاً. وكان على أحد الأميرالين الاهتمام بالتلفزيون.

لكن الشريط الذي أرسلناه استُبدل بشريط لشافيز. قالوا إن الآخر لم يصل في الوقت. لا نزال لا نعلم كيف جرى ذلك بالضبط، لكنه تسبب بالكثير من الارتباك. ولم تلتزم بعض المجموعات الراديكالية بالمخطط الذي تم الاتفاق عليه. ولسوء الحظ، فإن الذين احتلوا التلفزيون تُركوا لمصيرهم وذُبحوا.

السجن

عندما فشل الانقلاب، سجنونا في ثكنة بايز في حصن تيونا. أطلقوا نحو ثمانية أو عشرة ملازمين وملازمين ثانين كانوا في السجن منذ الرابع من شباط/فبراير، ووضعونا مكانهم. كنا نحو ستين.

ـ هل كانت لكم اتصالات مع السجناء في ياري؟

ـ مع شافيز، طوال الوقت. وبدأت زوجة أرياس كارديناس بزيارتنا لتخبرنا عن النزاع بين الرائد شافيز والرائد أرياس. لم أعرف هذا الضابط، لأنه لم يحضر اجتماعاتنا قط.

لم تُعجَب زوجة كارديناس بواقع أن شافيز حاز الكثير من التعاطف بوصفه قائداً للانقلاب، ولم تُطق رؤية زوجها مرؤوساً

من شافيز الذي كانت له أقدمية أقل من أرياس في القوات المسلحة. فأنا وهوغو تخرجنا من الأكاديمية بعده بسنة.

ولهذا، كانت زوجته تأتي لتقول لنا إن شافيز يكذب، وهذا وذاك من الأمور...

ـ كيف نظّمتم أنفسكم؟

ـ كوني الضابط الأعلى رتبة، جعلوني مسؤولاً عن السجناء الآخرين. كانت مهمة صعبة. فهناك الكثير من الشبان الذين لم يتأقلموا مع حياة السجن، حيث لم يكن لدينا أطباء نفسانيون أو تحليل نفسي أو أي شيء من هذا القبيل. ولهذا، توجب علينا القيام بالقليل من كل شيء. وأذكر حالة إلييسر أوتايزا، وهو شاب شجاع، شغلنا كثيراً، لأنه لم يتمكن ببساطة من التأقلم.

وضعوه في السجن وهو لم يتعافَ بعدُ من الجراح التي أصيب بها ـ في البطن والظهر ـ إبان الحركة العسكرية في ٤ شباط/فبراير. كان نحيلاً جداً. ولا يزال يحتفظ بأنبوب إخراج السوائل من جسمه. وهم، في الأساس، أرسلوه إلينا ليموت. أصيب بإحباط شديد. وشغلنا كثيراً. وها أن أوزيا أصبح، بعد ثلاثة أشهر، شخصاً مختلفاً. شُفي، وبدأ في تجاوز وضعه.

قال شافيز، في ذلك الوقت، إنه شعر بمرارة أكبر مما شعر بها من قبل، لأنهم كانوا يلومونه على فشل انقلاب ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر.

لم تكن له أي علاقة بهذا الفشل. فاللوم يقع على البحرية

التي لم تتجاوب. أين الخطأ في الانتفاضة الأولى؟ إنه الدعم الجوي، الذي كان ليسهّل الكثير من الأمور. أذكر ـ يجب أن نتذكر بعض الأمور حتى لو كانت غير سارة ـ أننا عندما حلّقنا فوق لا كارلوتا كانت دبابة تحاول هدم السور لمهاجمة أولئك الذين اقتحموا بالفعل المقر الرئاسي. أُجبرنا على إطلاق صاروخ على هذه الدبابة، وتفادينا بذلك مجزرة رهيبة. ولو أن قواتنا تمتعت بالدعم الجوي في ٤ شباط/فبراير، لأصبح التاريخ مختلفاً.

ـ كم كانت مدة عقوبتك؟

ـ سبع سنوات وتسعة أشهر.

ـ متى خرجت من السجن؟

ـ قبل شهرين من خروج شافيز. أُطلقت بسبب ظروف خاصة لها علاقة بابني أوغوستو. أصيب بالسرطان وكانت حالته تتدهور. جئت إلى باركويسيميتو. وبعد وقت قصير، عندما أخذنا الطفل إلى المستشفى في كاراكاس، ذهبت لزيارته في ياري. كان شافيز في المستشفى العسكري يتعافى من عملية جراحية في العين. وكانت ميلاغروس تزوره طوال الوقت، حتى قبل أن أُطلق من حصن تريونا.

ـ هل راسلتما واحدكما الآخر؟

ـ نعم، لكنها كانت بمثابة رسائل مكتومة عن الجميع. كنا عرضة لرقابة شديدة، ولصيقة.

الحملة

ـ هل انضممت، في ١٩٩٤، بعدما أُطلق الجميع، إلى حملة شافيز؟

ـ كلا، بعد وفاة أوغوستو، بعد ذلك ببضعة أشهر، قررت العناية بأطفال الشارع. انتقلت إلى باريناس، وأقمت مركزاً للأطفال المتروكين في مزرعة صغيرة تخصنا.

كان شافيز قد شرع في جولته في كافة أنحاء البلاد. أذكر أنه توقف في منزلنا قبل أن نأخذ ابننا إلى الولايات المتحدة للخضوع لعلاج بالأشعة. جلب هدية لأوغوستو، ودعاني إلى اجتماع للحركة الثورية البوليفارية. وجرت كل أنواع المساومات والصفقات في محاولة لإزاحته كزعيم. وأمكننا في النهاية السيطرة على الوضع.

جاء مرة أخرى إلى باريناس، وأتي ليراني في المزرعة. كنت أقوم ببعض الأعمال حول المزرعة: مرتدياً سروالاً قصيراً وحذاءً مطاطياً. عانقني وقال: هيا إلى المعركة. أجبته: أنا أخوض حرباً من نوع آخر الآن. علينا، يا صديقي، أن نشبك قوانا من جديد. سنقوم باجتماع لتقرير مستقبلنا كحركة. أقنعني: حسناً، سأعود إلى باركويسيميتو، وسأشرع في العمل للحركة من جديد. عاد إلى ماراكاي، إلى لوس تيكويس، في الليلة نفسها. وأنا غادرت، بعد يومين، إلى باركويسيميتو، ومضيت من هناك إلى كاراكاس.

انضممتُ رسمياً إلى الحركة من جديد في ١٩ نيسان/أبريل ١٩٩٧. صعب علي هضم الكمّ الكبير من الخطابات السياسية والنقاشات، لكنني بدأت في العمل على الفور. في ذلك اليوم أصبحت الحركة الثورية البوليفارية ـ ٢٠٠،[1] حركة الجمهورية الخامسة. بعد وقت قصير على ذلك، أقمنا مكتبنا الأول في باركويسيمينتو، وأعددنا فريق عمل وشرعنا في حملتنا السياسية. تمتعنا بالكثير من الدعم الشعبي، والكثير من الحماسة والتصميم، لكننا كنا نفتقر إلى التجربة التنظيمية. كنت أرافق الرائد شافيز في كل مرة يسافر فيها إلى منطقتنا، ورويداً رويداً أخذت الأمور تسير في مجاريها.

ـ هل كلّمك عن رؤيته إلى المستقبل؟

ـ لطالما كان دائم التفاؤل.

انتصار الجمهورية الخامسة

في يوم الانتخابات الرئاسية بالذات، اتصل بي في المنزل، وطلب مني المجيء إلى فينيتا فورا. وصلت مع ميلاغروس في يوم أحد، بحسب ما أذكر. اقترح أن أصبح وزيراً للنقل

(١) في ١٩ نيسان/أبريل ١٩٩٧، كانت الحركة الثورية البوليفارية ـ ٢٠٠، التي لم يكن في وسعها أن تصبح حزباً سياسياً رسمياً لأنها تحتوي على كلمة بوليفارية في اسمها، أصبحت حركة الجمهورية الخامسة، وهو اسم اختير للحفاظ على رنّة الاسم الاصلي. وقدّمت المنظمة مرشحين إلى الانتخابات في فالنسيا.

والاتصالات. أما أنا فأردت متابعة عملي الاجتماعي. «انظر، يا أخي، أنا لا أعرف شيئاً عن النقل، وأقل من ذلك عن الاتصالات. فالطائرات هي الشيء الوحيد الذي أعرف عنه». أجاب: «ستكون وزيراً للتطوير المدني، فسنقوم بدمج الوزارات». وطفق يصرّ، واستمررتُ في الرفض. اتصل بي أحد زعماء الحزب، وقال: فكّر في الأمر، لأنه علينا مساعدة الرائد. وبعد ساعتين أو ثلاث، التقينا من جديد على العشاء، وقلت: حسناً. وهكذا حصلت على الوزارة.

ـ كم من الوقت بقيت هناك؟

ـ خمسة أشهر. أمضيت وقتاً في ميرافلورس أكثر مما أمضيته في الوزارة، لأننا كنا نلتقي كل ليلة، إلى أن اتصل بي في أحد الأيام في شأن الجمعية التأسيسية. قال: سأضع أفضل رجالي في الجمعية. وعليّ أن أضحي بالبعض. وسلّمت الوزارة إلى خوليو مونتس.

بعد انضمامي إلى الجمعية التأسيسية، جاءت انتخابات الحكام. وتبين أن حاكم لارا هو فاسد. ترشحت إلى الانتخابات، وها أنا الآن الحاكم.

الانقلاب لم يفاجئنا كثيراً

أظهرت شخصية شافيز نفسها بطريقة أكثر حيوية في تلك الأعوام. فهو استراتيجي ممتاز، ذكي، شغوف، معتدل في قراراته، وشخص يعرف كيف يستمع إلى نصائح الآخرين، كما

إلى انتقاداتهم. الكثيرون ينتقدونه، وهو يستمع دائماً، ويتشاور مع مستشاريه ومعاونيه قبل اتخاذ قرار. وإذا ما برهن عن أي شيء، فعن شجاعته وإيمانه العميق بما يقوم به. لطالما برهن عن ذلك، وبالأخص في تلك الأيام وفي الانقلاب الذي تلى.

ـ ما هي الاستنتاجات التي خرجتَ بها بعد أحداث نيسان/ أبريل؟

ـ تحدّثنا عن الوضع داخل القوات المسلحة. أعتقد أننا كنا متهاونين كثيراً عندما اخترنا ضباطنا الأساسيين في القوات المسلحة. بالغنا في ثقتنا. ولم نتفحص كما يجب الأضرار التي يمكن الأوليغارشية أن تُلحقها.

عرفنا، على سبيل المثال، بعض الأمور عن القناعات السياسية الضعيفة لبعض الضباط الذين كانوا يحبون حياة الترف، والرفاهية. تعلمنا أمثولة كبرى من هذا كله.

ـ أين كنت يوم الانقلاب؟

ـ تابعنا ما يجري في ذلك اليوم، في الحادي عشر من نيسان/ أبريل، باهتمام كبير. وحوالى التاسعة ليلاً، أو بعد ذلك بقليل، اتصل بي شافيز وأبلغني أن ضباطاً من أعلى الرتب قد انشقوا، وأنه تتملكه الشكوك حيال مانويل روسندو. بمن تعتقد أنه علينا أن نثق لتسليمه قيادة الجيش الآن؟ الضابط الأكثر وثوقاً في تلك اللحظة هو لويس أسيفيدو كوينتيرو. اتصلت بالجنرال أسيفيدو بنفسي. وحوالى الحادية عشرة ليلا تلقيت اتصالاً آخر من شافيز: «انظر، إنني مرسل ماريسابيل إليك (كانت زوجته

حينها). إنها مغادرة الآن. اعتنِ بها، وأنا سأبقى وأقاتل حتى النصر». قلت: «يجب أن تقاتل، فما من خيار آخر، موافق». بعد ذلك بلحظات، اتصل بي أدان شافيز: تبدو الأمور أبعد من أن تكون جيدة... واتصل بي ديوسدادو عند الثانية عشرة: قد يضعون الرئيس في السجن في أي وقت الآن.

تماثل الرابع من شباط/فبراير في ذهني من جديد. تسارعت الأفكار في رأسي: هل يجب أن نصعد إلى الجبال؟ ماذا سيحدث غداً مع شروق الشمس؟ لم يكن علينا انتظار شروق الشمس. ففي الساعات الباكرة من ذلك الصباح ظهر ثلاثة جنرالات من قادة الجيش في لارا: الجيش، الحرس الوطني، وقادة مشيري سلاح الجو. لم أكن أعرف أنهم بدّلوا فعلاً من ولاءاتهم.

حوالى الثانية فجراً، اتصل بي واحد من جنرالات الانقلاب. لم أكن أعرفه. قال لي الرجل في الحرس الوطني: «انظر، الجنرال كاماتشو كيروز يريد التحدث إليك». «أنا لا أتحدث مع الخونة. هل سمعت؟ أنا لا أتحدث مع الخونة». لكنه أصرّ: «انظر، من الجيّد لو تكلّمت معهم». «لا، أنا لا أكلّم الخونة، وليس لدي ما أقوله لك. أنا حاكم ولاية، وسأرحل عندما يصوّت الناس ضدي. قم بما عليك، وقل للخونة الآخرين أن يقوموا بالشيء نفسه. فعاجلاً أم آجلاً، سينزل الشعب من التلال، سينزلون من التلال». وقال هذا الشخص «انظر، إنهم لا يريدون أن يتمرد شعبكم... قم بعملك، وأنا أقوم بعملي»، وأنهيت المحادثة.

أعتقد أنهم قد خططوا لتوقيفي، ربما بمكيدة مدبّرة من أولئك الذين في كاراكاس. وعند الرابعة من فجر ١٢ نيسان/ أبريل، تيقّنت مما سيحصل: سيأتي الجنرال من الحرس الوطني ويوقفني ويستولي على قصر الحاكم. تصرفت كما لو أنني لم أشك في شيء. ولم أشر قط إلى أنني أخطط لتعبئة الشعب دفاعاً عن مواقعنا. في غضون ذلك، كان الجنرال يحيط نفسه بمزيد ومزيد من الجنود.

١٢ نيسان/أبريل: لم يتمكنوا من توقيفي

عند السابعة صباحاً، عاد من جديد وحاول جعلي أتكلم هاتفياً مع ذاك الجنرال في كاراكاس. رفضت مجدداً، فحوّل المكالمة إلى رئيس بلدية باركويسيموتو. في الثامنة والنصف صباحاً، دعوت إلى مؤتمر صحافي وطلبت من الجنرالات الثلاثة الذهاب معي. بدا الاستغراب على محيّاهم. لم أكن أعرف أنهم عادوا للتو من مؤتمر صحافي طلبوا عقده. قالوا «اذهب أيها الحاكم، وسننتظر هنا».

جاء مصورو كل المحطات المختلفة، لكنني لاحظت أنه لم يتم إشعال ضوء أي من الكاميرات، إلا تلك التابعة للمحطة المحلية. طالبت أولا بالهدوء، ثم أضفت: سنحلل ما جرى في كاراكاس، لكنني أوكد لكم أن العملية البوليفارية لن تتوقف.

فكّر رائد الحرس الوطني في نصب فخ لي. عرف أن رجاله

يفوقون رجالي عدداً. كانت قوات أمني مجزأة: جزء منها كان في المقر، والجزء الآخر في القصر، معي. لكنه قرر عدم توقيفي.

دعوني أُعطكم فكرة عن طريقة تصرّف وسائل الإعلام. ففي مرحلة ما، قال أحد الصحافيين: اسمع، الناس سيطردونك من هنا. أجبت: افتح النافذة واستمع إلى صوت هؤلاء الناس الذين تدّعي أنهم قادمون لطردي. الناس هم في الخارج وهم يدعمونني. اضطررنا إلى تهدئة الناس، لأنهم كانوا مستعدين للقيام بأي شيء. وبفضل هذا الدعم، بقيت في القصر طوال النهار. كم كان هؤلاء الجنرالات الخونة على استعداد لبذله من أجل توقيفي! في غضون ذلك، بدأت أعرف عن الوضع، حيث كنت أتلقى على التوالي اتصالات من رفاقي في كاراكاس.

ـ هل تم الاتصال بك لمحاولة جعلك تبدل جانب الولاء؟

ـ نعم. حتى أن أناساً كانوا إلى جانبنا اتصلوا بي. وهناك من اقترح أن أصبح عضواً في حكومة انتقالية يكون رئيسها تيودورو بيتكوف. أجبت: لا شيء ممكناً من دون شافيز.

ـ من اقترح عليك ذلك؟

ـ حاكم ولاية بوليفار. لم أعتقد، في بادئ الأمر، أنه سيقترح علي أن أخدم الأشخاص الذين يقفون وراء الانقلاب. يجب أن نقبل بالواقع، قال لي. لكن، أي واقع؟ أي واقع علينا القبول به؟ لم أتصوّر في تلك اللحظة أنه يبدّل اتجاهه. «حسناً، يا أخي، إن ذاك الشافيز قد سقط». قلت له «إذا سقط شافيز،

تسقط الثورة معه». وبعد نحو ساعة ونصف الساعة أو ساعتين، اتصل بي مجدداً: انظر، لقد اتصلوا بي من كاراكاس. قلت: آها! من الذي اتصل بك؟ الرئيس كارمونا ـ قال ـ إنه يدعوني إلى اجتماع. سألته: وهل ستجلس مع خونة؟ «سأستمع فقط إلى ما عليهم قوله»، قال. عندها أدركت أنه أصبح في الجانب الآخر. «حسناً، ليُملِ عليك ضميرك ما يجب أن تقوم به»، وأقفلت الخط.

في يوم الجمعة ذاك، تحدثت أيضاً مع رونالد بلانكو، واستعرضنا سريعاً بعض الاحتمالات، بما في ذلك الاستقالة للمضي في شكل آخر من أشكال النضال. وهاكم نصيحة رونالد: كلا، ولا في أي حال من الأحوال. لا يمكننا الاستقالة. فنحن منتخبون من الشعب. لم أر شافيز يوقّع على أي استقالة في أي مكان.

ـ كيف وصل أولاد شافيز إلى باركويسيميتو؟

ـ اتصلت بي ماريا يوم الجمعة وأبلغتني أنها على مقربة من ديان توي. «ماريا، تعالي إلى هنا»، قلت لها. وصلت ذلك المساء، مع شقيقها هوغويتو، وابنتها غابي، وتحدثنا في وقت متأخر من الليل عندما عدت من القصر. ثم جاءت روسا ابنة شافيز الكبرى.

ـ هل تحدثت مع الرئيس فيدل كاسترو؟

يوم الجمعة في الحادي عشر من الشهر، حوالى السادسة مساءً. ومرة أخرى حوالى التاسعة ليلاً. سألني خلال مكالمتنا الأولى إذا كنت أعرف مكان شافيز. بدا قلقاً جداً. «لا أعرف،

يا رئيس، لكنهم أخذوه إلى مكان ما، ولا بد من أنهم ينقلونه إلى مكان آخر الآن. لست متأكدا أين، وقد أقول شيئاً ليس صحيحاً. وسبق أن تحدّثت مع جيراردو إسبينوزا قبل ذلك بقليل. كان في ماراكاي وشاهد حركات طيران مستغربة. أعتقد أن طائرة انطلقت إلى توريامو».

اقترح فيدل: حاول أن تتحدث إلى الـ «سي.أن.أن.». حاول أن تدلي بتصريحات... اكسر الحصار الإعلامي».

شاهدت الهجمات على السفارة الكوبية على شاشة التلفزيون، حاولت الاتصال بالجنرالات الذين يقفون وراء الانقلاب. أجابني جنرال تقلّد رتبته حديثاً: ستجعلون شعبنا يمسح الأرض معكم... لن يسامحكم أحد غداً إذا لم تمنعوا هذه الهجمات على السفارة. اتصلت أيضاً بجنرال الحرس الوطني: انظر، بما أنك على اتصال مع أصدقائك الخونة، اتصل بمنديز كاسانوفا، وقل له إنه إذا حدث أي مكروه للسفارة الكوبية، فلن تتمكنوا من السيطرة على غضب الشعب. أجابني الجنرال: نعم سأتصل به، لكنني لا أعلم هل قام بذلك أم لا.

عندما تحدثت مع فيدل ذلك المساء، قلت له إن الشعب يتعبأ، ويطالب بعودة شافيز. «من؟»، أجبته، «البوليفاريون في كاراكاس بدأوا بالنزول من التلال».

١٣ نيسان/أبريل: أبواب الجحيم فُتحت

بدأتُ، صباح السبت، أرى الإشارات الأولى إلى أن

الانقلاب قد هُزم. وفكّرت في أن هذا الهراء سيستمر فقط حتى منتصف اليوم، وها هو يأخذ في التناثر قِطعاً قِطعاً. جاءني رجل برسالة من فرناندو برموديز، تطلب مني الاستقالة. فرددت عليه بإهانة، وببعض الكلام الشنيع. ذهبت إلى القصر حوالى العاشرة صباحاً. بدأت بالاتصال بالجنرالات في لارا، لكنني لم أعثر على أحد منهم في أي مكان.

تحدثت مع الجنرال بادويل ومع الجنرال غارسيا مونتويا في ماراكاي، ونبّهتهما إلى أن الجنرالات هنا يدعمون الانقلاب. كنت لا أزال أجهل ما قالوه في مؤتمرهم الصحافي يوم الجمعة (فكروا في الأمر وحسب! فقد شاهدت ذاك الفيديو بعد ١٥ يوماً على ذلك). وبقيت أعتقد أن مشيري سلاح الجو وجنرالات الجيش لا يزالون على الأقل مترددين، لكنهم لم ينقلبوا. عرفت أن جنرال الحرس الوطني خائن، لأنه كان على اتصال بالفئة المؤيدة للانقلاب، ولأنه بدا أكثر تعجرفاً. وعندما تحدّثت عن المسألة مع غارسيا مونتويا، دُهش، لأنه سبق وتحدث مع قائد مشيري سلاح الجو، وأدرك أن ذلك الرجل أطاع أوامره.

استدعيت منتصف يوم السبت، هؤلاء الجنرالات من جديد. أعلمني عقيد في الشرطة أنهم في اجتماع في مقر اللواء مع بعض زعماء المعارضة. وتمكنت، بصعوبة جمة، من جعل جنرال الحرس الوطني يجيب على الهاتف. «إذاً، أنت في اجتماع مع هؤلاء الناس؟ حسناً، ضعهم جميعاً قيد التوقيف فوراً. إن الأمور لا تعمل تماماً على هذا النحو. أنا أُصدر إليك

أمراً. حسناً... إنني أفكر في كلمة معك أولاً. لا، لا، عليك أن توقفهم أولاً».

قبل ذلك بقليل، عند حوالى الحادية عشرة صباحاً، اتصل بي رائد في الجيش، وأبلغني أنه ذاهب إلى ميرافلورس مع مجموعة للمساعدة على استعادة القصر. طلب مني أن أبلغ وليام لارا ليتمكن من الذهاب إلى القصر. أجاب وليام: «أتعتقد ذلك صائباً؟»، «نعم، هيا، فأنت الرجل المناسب لاستقبال الرئيس. ومع جماعتنا وقد أصبحوا في القصر الرئاسي، يحدثون في الخلفية ضجيجاً كبيراً وفرحاً، جاءتني الأخبار الممتازة: «ميرافلورس لنا من جديد».

ـ هل عرفت عندها أن شافيز كان في لا أورشيلا؟

ـ لا، لقد اتصلوا بي لاحقاً ليقولوا لي إن الأناس الذين قاموا بالانقلاب أخذوه من توريامو إلى لا أورشيلا. قيل لي إن طائرات هيليكوبتر ذهبت للإتيان به. اتخذت قراري، سنذهب إلى ساحة بوليفار في باركويسيميتو. فجماعتنا محتشدة هناك. والأمر يستدعي الاحتفال. كانت الساعة حوالى الثامنة ليلاً.

ـ ماذا بالنسبة إلى الجنرالات الخونة في لارا؟

اختفوا كلياً. غابوا عن الأنظار بعد الرابعة بعد الظهر، ولم يظهروا في أي مكان. غادرت الساحة بعد إنقاذ الرئيس، وتلقيت الخبر: سيصل شافيز إلى ميرافلورس حوالى منتصف الليل.

ـ متى رأيت شافيز؟

ـ بعث الرئيس بطلبي بعد ظهر الاثنين. كان عيد مولد حفيدته غابي. أبلغته أن الجنرال الذي اتصل بي في الصباح الباكر من ١٢ نيسان/أبريل، ظهر إلى جانبه في التغطية التلفزيونية لوصوله إلى القصر. «سيدي الرئيس، ماذا كان هذا الجنرال يفعل هناك؟ لقد اتصل بي مرات عدة في ١١ نيسان/أبريل وأبلغني أنه علينا الانضمام إلى الجنرالات المؤيدين للانقلاب». سكّن من مخاوفي، ولم أعد أذكر الأمور التي تحدثنا عنها بعد ذلك.

ودعا لاحقاً إلى اجتماع للحكام... حضر حاكم ولاية كارابوبو، الذي اتصل أيضاً يوم الجمعة طالباً مني تغيير ولائي. سألته: هل تذكر أنك اتصلت بي يوم الجمعة؟ امتقع لونه وقررت ألا أغيظه أكثر. وحضر أيضاً حاكم بوليفار. لماذا أردت الاجتماع مع هؤلاء الخونة؟ لم يكن من السهل رؤية أبناء الزنى هؤلاء هناك.

ـ أيمكن مثل هذا أن يحصل من جديد في القوات المسلحة؟

لا يمكننا طرح إمكانية رؤية فصيل صغير يتمرد، لأهداف دعائية، أو حتى خمسة أو ستة فصائل، في مناطق مختلفة من البلاد، لزعزعة استقرار الأمور، وسلسلة من التمردات العسكرية في الحاميات العسكرية... إنها ليست احتمالاً وحسب. لقد خططوا لذلك في أكثر من مناسبة. لكنني، لا أعتقد أنهم سيحاولون من جديد انقلاباً بهذا الحجم. لقد تعلّمنا الكثير.

ـ لكن جميع الناس الذين كانوا وراء الانقلاب، والذين ليسوا في السجن، هم متآمرون محتملون.

ـ هذا هو الجانب السيئ من العمل على الدفاع عن النظام مع الأعداء في الداخل، يتآمرون بكل ما لهم من قوة اقتصادية، ويتمتعون بالدعم من قوة تتجاوز الحدود الإقليمية. هذا صعب، لكن علينا المضي قُدُماً وسط هذه الظروف وتقوية أنفسنا. وأنا أصادف دوماً أناساً قاموا بالانقلاب هنا. فالجنرال غونزالس غونزالس يمر من أمامي هنا في باركويسيميتو، محاولاً أن يجعلني أعتقد أنه ذو أهمية. وأنا أتصرف كأنني لا أراه.

ـ مع خبرتكم كمتآمرين، كيف أمكن هذا الانقلاب أن يأخذكم على حين غرّة؟

ـ ارتكبنا أخطاء فادحة، وكانت لنا مَواطن ضعفنا، وقد تم تصحيح ذلك اليوم. لم يملك الرائد شافيز اتصالاً مباشراً وفورياً مع رؤساء الوحدات العملانية. وعندما حاول الاتصال بهم، لم يتمكن من ذلك مع أي منهم. تولى الجنرالات القيادة ولم يتذكر أحد حتى الروّاد.

كان يجب طلب الدعم من قادة الكتائب عندما أخذت الأمور في الحماوة في ميرافلورس، وتجلّت أولى الخيانات. ولم يكن لشافيز، كما له اليوم، خط اتصال مباشر مع مختلف وحدات القيادة. وهؤلاء كانوا، في النهاية، جنرالات ليست لهم قيادة أو سلطة مباشرة على الجنود. بل إننا، قبل كل شيء، تركنا أولئك الفاشيين يُربكون الشعب.

تعلمنا بعض الأمثولات المهمة من هذا الانقلاب. وعلى قول المثل: ما لا يقتلك يجعلك أكثر قوة. فقد تملك الجنرالات الذين دبّروا الانقلاب، في ما عدا بعض الاستثناءات القليلة، شهوة إلى السلطة والاتصالات. وخلق ذلك، عند حد ما، فراغاً في القوات المسلحة. ولم يتم تعيين أي جنرال له سجل ثوري. وكان للرئيس بالطبع، في ذلك الوقت، جنود موالون له كان في إمكانه تعبئتهم، لكن عامل المفاجأة كان حاسماً. لقد خططوا للانقلاب بعناية، وبعد ظهر يوم ١١ نيسان/أبريل كنا لا نزال لا نعرف بالضبط ماذا يحدث.

أذكر شافيز يقول لي حوالى الثامنة ليلاً: لماذا لا تذهب إلى ليبرتادور؟ كان علي أن أذهب بالسيارة، وهذا يعني أن الأمر سيستغرقني ثلاث ساعات للوصول. قاعدة ليبرتادور موجودة في ماراكاي، وكان قد حصل تحرك للقوات هناك. ويعني هذا إعطاءهم الفرصة لشل حركتي بسهولة كبرى. لم يكن هناك وقت لأي شيء.

ـ هل واجه شافيز خطراً حقيقياً باغتياله؟

لم يغتالوه في تلك الأيام خوفاً من الشعب. وربما اعتقدوا أنه من السهولة أكثر السيطرة على الشعب مع شافيز حياً أكثر منه ميتاً. ولطالما كانوا، على أي حال، يملكون خيار قتله، حتى قبل ١٩٩٩. ولدي انطباع بأن هذا خيار من المرجح أنهم سينظرون إليه بجدية بعد ١٥ آب/أغسطس.

على أي حال، علم الشعب رويداً رويداً أين تقع الحقيقة، ومن هو العدو. وهذا الأمر نفسه حصل معنا. إنه مجاز

الزجاجة: عندما كنا في الثكنات ـ الزجاجة ـ كنا نتطلع فقط نحو الداخل. والشعب توقف عن النظر صوب الداخل، فقد رأى وفهم أن العداء يأتي من الخارج، وبدأ في الانتظام لقطع الخيوط التي تحرّك أعداء الداخل.

في هذه الاثناء، لا يزال القائد شافيز يشرف على استراتيجياتنا. فكل خطوة نخطوها في الحقل الاجتماعي هي خطوة سياسية استراتيجية. وعلى سبيل المثال، فإن مغزى تعليم الناس القراءة والكتابة، يتجاوز مجرد تعميم هذا الحق: علينا ألا ننسى أن التعليم النخبوي كان الأداة التي استخلمتها الأوليغارشية لإدامة إفقار الشعب فكرياً وثقافياً. ويصعب جداً تعويد الشعب على أيديولوجية ثورية ما دام لا يمكنه أن يقرأ حتى المبادئ الأساسية لهذه العقيدة. فتوفير التعليم للشعب حيوي، إذاً، لاستمرار هذا النضال.

لم يعد شعب فنزويلا كما كان. فقبل عشرة أعوام، لم يكن في وسعنا مقاومة إيقاف النفط مع كل ما يحدثه من نقص. وحدها فقط بلاد تستوحي من عملية كهذه يمكنها مقاومة مثل هذا الأمر. وهذا يعني أن تغييراً حصل في سلوك الناس وقناعاتهم. لكن، لا المعارضة، ولا رؤساؤها في الولايات المتحدة، يريدون أن يفهموا هذا. وستستمر الصفقات القذرة والخيانة كما كانت دائماً.

ـ كيف هي حال صداقتك مع الرئيس بعد كلّ هذه الأمور؟ ألا تزال كما كانت في بدايتها؟

ـ صداقتنا تصبح أكثر سهولة وقوة على مرّ السنين. إلا أننا

لا نسيء استخدام الثقة ببعضنا البعض. وعندما نتحدث، أناديه دائما «السيّد الرئيس».

ـ لكنه لا يزال يناديك ويتشو.

نعم، لكنني لا أزال أناديه «السيد الرئيس»، ربما بسبب خلفيتي العسكرية، حيث الرئيس هو الرئيس، بغض النظر عن العلاقة الخاصة التي قد تكون للمرء معه. وأعتقد أن للأمر علاقة أيضاً بمواضيع حديثنا في هذه المرحلة الجديدة في حياتنا، التي لها علاقة بمسائل الحكم، وبعض الشؤون العسكرية، والاضطلاع الملحمي بالثورة.

ـ إذا كنتَ لتعيش حياتك من جديد، فما الذي تفعله في شكل مغاير؟

ـ لا شيء. فأنا لأعيش هذه الحياة ألف مرة من جديد. فالوصول إلى هنا هو ما جعل المسيرة مجدية، لأن لنا للمرة الأولى حكومة مهتمة بكل فنزويلا، وليس بجزء صغير منها. وهذا لا يعني أنني أوافق كلّياً على كل شيء اختبرته أو أختبره اليوم.

ـ بماذا تلوم شافيز؟

ـ ما أهمية ذلك الآن؟

رسالة من هوغو شافيز إلى ريّس ريّس من سجن ياري

ياري، ١٢ تموز/يوليو ١٩٩٢،

عزيزيَّ موتا وأرجيميرو:

أسعدتني رسالتك جداً، بما أنني أعلمت، عبر قناة مختلفة، أنك أُطلقت. أريد، على أي حال، أن تعرف أن صداقتنا تمضي أكثر عمقاً من أي ظروف مضت. بلّغ حبي كله إلى نصفك الأفضل وإلى الاولاد. لقد تلقيت صورة أحتفظ بها وهي مصدر إلهام لي. آمل أن ابنك، والجميع، في حالة جيدة. أرسل تحياتي إلى أقاربك في المدينة.

موتا، أنت جزء من المشروع الأساسي. وحضورك يضمن المسار الاستراتيجي الذي طالما حددناه لأنفسنا. والانسحاب الآن ـ وهذا ينطبق على أرجيميرو أيضاً ـ سيكون ضاراً بنا. ويمكن كل شيء أن يسلك مساراً مختلفاً. الرجاء أن تتقرب أكثر من الدكتور سيلفا وإل ريسيو، بالاضافة إلى فيدل. تلقيت البارحة أخباراً غير مشجعة من عصبتك. يبدو أن الأمور تتفكّك. اتصل بـ (١)، الذي هو في منصب رفيع. ماذا حل بـ (٢) و(٣)؟ يريد أناسي أن يكونوا أكثر انغماساً. وماذا عن (٤)؟ هذا هو الوقت الذي نحتاج إليه فيه. و(٥)؟ يا أخي، أرجوك أن تدرك أن هؤلاء الناس هم الذين نعرف أنهم يشاركوننا قناعاتنا السياسية. وسيلتحق الباقون بالركب، إلا أن ما نريد تأمينه هو الاتجاه الصحيح. نريد أناساً يتولون مراكز القيادة. أرجوك، حتى لا أكرر نفسي، قابل أرجيميرو وناقش هذا معه. يجب أن تعمل عن كثب مع (٦) و(٧)، هادفاً إلى تلاقي «إكس» و«ي».

تعرف نانسي كيفية الاتصال بسيلفا وإل ريسيو. سيطلعانك على التدابير والخطط. وخونشو هو صلة وصل ممتازة بالنسبة إلينا.

يمكنك، إضافة إلى هذا، أن تبدأ العمل السياسي مع الجبهة المدنية. ومفاد ذلك، يا أخي، هو أننا في حاجة إليك. أأتمنك أنت وأرجيميرو على حياتي. أنا واثق من أنك ستكون هناك. فما نحتاج إليه هو إسقاط بعض الحواجز. حضر أرجيميرو لقاءً مع الدكتور سيلفا وبعض الرفاق من «ت». أبلغوني أن «ي» أحبط معنويات الشعب لأنه قال إنك لا تملك شيئاً. قوّم هذا الموقف وتعامل معه بالشكل المناسب.

أنا على ثقة مطلقة بأننا سننتصر.

أرجيميرو: بلّغ تحياتي إلى نصفك الأفضل والأولاد، وإلى بقية العائلة أيضاً.

بالحب والأخوة،

وبكل اخلاص،

هوغو

الرمز[١]

(١): بيدرو سوتو؛

(٢): كورديرو؛

---

(١) أرسل الرمز قبل الرسائل، لئلا تكتشف حكومة كارلوس أندرس بيريز من هم المتعاونون مع هوغو شافيز خارج السجن.

(٣): دالميرو؛

(٤): فيسكونتي؛

(٥): مكسيميليانو؛

(٦): بابلو مدينا؛

(٧): روجر؛

«إكس»: الانتفاضة العسكرية؛

«ي»: الإضراب العام؛

سيلفا: روخاس موخيكا؛

إل ريسيو: بيريز عيسى.

ها هي قصتي تبدأ للتو(*)

الطفولة

ـ ماذا كان والداك يفعلان؟

ـ كانت والدتي قابلة قانونية تقوم أيضاً بتحنيط الموتى وإلباسهم. عندما يموت شخص في الجوار، ينادون عليها فتحمل حقيبة ملأى بالحقن، والفورمول، والشراشف البيضاء، والشرائط السوداء، لتزيين الغرفة التي يسهرون فيها على الميت قبل الدفن. اعتاد الناس السهر على الميت في منازلهم، وليس في صالونات الدفن مثلما يحصل الآن. لم تكن تتقاضى أجراً عن ذلك، لأنها تقوم به إحساناً للفقراء. وكانت تقوم أيضاً بأعمال المنزل.

أما والدي فكان رجل أعمال، وهو لا يزال حيّاً، ولطالما عاش معنا. تلقينا تنشئة قاسية، معظمها على يد والدتي. ولطالما كان والدي متسامحاً وشخصاً هادئاً، بعكس والدتي. ولا أذكر

(*) مقابلة مع رئيس أركان الدفاع خورخي لويس غارسيا كارنيرو، أجرتها معه روسا إليزالدي ولويس بايز.

حتى قيامه بلوم أحد من أشقائي على أي شيء. أما والدتي، فكانت قاسية، وحادة الطباع.

ـ كم عددكم في العائلة؟

ـ سبعة: أربع بنات وثلاثة صبيان، وأنا السادس بينهم.

ـ هل أنهيتم جميعاً تعليمكم الثانوي؟

ـ تخرجنا سبعتنا من خلال تضحيات جمة. ما زلت أعي تماماً المكان الذي جئت منه. وأعرف مقدار المشقة التي مرّ بها والدانا لدعمنا، سبعتنا. درسنا جميعنا في مدرسة غران كولومبيا، وتخرجنا من هناك في الصف السادس. وحصل البعض من شقيقاتي على شهادات ثانوية تقنية، وفي الأعمال، والبعض الآخر تخرج من معهد تدريب الأساتذة، بينما أنا تخرجت من مدرسة بيدرو إيميليو كول الثانوية. وفي وقت لاحق، خضعت لامتحان الدخول إلى كلية التربية في كاراكاس لدراسة التاريخ والجغرافيا، ولطالما أردت أن أدرّس تلك المواد.

خضعت لآخر امتحان دخول في ٢٥ تموز/يوليو. وبرغم ذلك بدأت في الأكاديمية العسكرية في ٨ آب/أغسطس ١٩٧١. وهذا يعني أنه بالكاد أمكنني الحصول على عشرة أيام عطلة. وما إن صرت في الأكاديمية حتى لمت نفسي: «اللعنة، لو أنني فقط بدأت في كلية التربية»... لكن، سرعان ما تبددت شكوكي. قررت في النهاية مواصلة مهنتي العسكرية.

ـ هل تذكر متى التقيت هوغو شافيز للمرة الأولى؟

ـ التقيته صباح ٨ آب/أغسطس ١٩٧١، في قاعة المحاضرات في الأكاديمية العسكرية الفنزويلية، حيث كانوا يُلقون كلمات الترحيب بنا. في وسع المرء أن يعرف الناس في شكل جيّد ومعمق بعد أربع سنوات من الدراسة معهم، إلا أنه أمكنني القول، منذ ذلك اليوم الأول، إنه شخص موهوب، وذكي. كان دوماً الأول في كل شيء، وكان متحدثاً استثنائياً ولبقاً. اكتشفت ذلك يوم استضاف مباراة لملكات الجمال.

كنا في دورة القوات الخاصة نفسها، وهو أمر يقرّب الضبّاط أكثر من بعضهم البعض. تخرجنا في ٥ تموز/يوليو ١٩٧٥، شافيز في الاتصالات وأنا في المشاة. وتلقى هوغو، لاحقاً، وهو برتبة ملازم، المزيد من التدريب على السلاح، وانضم إلى الفرقة المدرعة. وبقيت أنا في المشاة.

ربما لم يسمح لنا وجودنا في فرقتين مختلفتين بمعرفة بعضنا البعض في شكل أفضل، لكننا بقينا على اتصال دائم، وكنا نلتقي من وقت إلى آخر. وهناك أمر لا يجب التغاضي عنه، وهو أن الكثيرين من أتباع شافيز. وهو نفسه، من أبناء دورة السنة التي تخرجنا فيها، وقد أسميناها «سنة سيمون بوليفار».

ـ متى التقيت بشافيز من جديد بعد ذلك؟

ـ دخل شافيز الكلية العليا طالباً، بينما كنت آمراً لإحدى الكتائب. وجب تطويعنا معاً، فنحن من السنة نفسها. لكن المسؤولين الكبار بذلوا كل ما في وسعهم لمنعه من قيادة قوات،

ومن صعود السلّم. وسَرَت إشاعات عن تورطه في محاولة انقلاب ممكنة، فلم يحاولوا حرمانه من الترقية وحسب، بل شرعوا أيضاً في الضغط عليه في محاولة لإفشاله في الامتحانات. كانوا يحسمون منه العلامات لأي سبب، حتى لفاصلة. لكن صَعُبَ إسقاط شافيز، لأنني أعتقد، بصدق، أنه واحد من ألمع الضباط المحترفين الذين التقيتهم في حياتي المهنية. وقد تخرج دوماً من بين الأوائل في صفه، حتى عندما حاولوا جاهدين الحؤول دون ذلك.

الانتفاضة

ـ أين كنت إبان الكاراكوزو؟

ـ في سان خوان دي لوس مورّوس، في فرقة الخيّالة. كنت مساعداً للجنرال موراليس. وكان شافيز في مأذونية بسبب تعقيدات ناتجة عن حمّى الدَّنْك.

ـ جدري الماء؟

ـ شيء من هذا القبيل، وأعطيت الأوامر لفيليبي أكوستا كارليز، الذي كان في الأكاديمية، للنظر في نشوب مفترض للعنف: قتلوه هناك. حدث ذلك في ٢٧ شباط/فبراير ١٩٨٩، في اليوم نفسه الذي نزلوا فيه من التلال.

ـ هل عرفت فيليبي؟

ـ نعم، كان صديقنا، وصديقاً مقرباً كثيراً مني، فهو من

المشاة أيضاً. خدمنا معاً في وحدات مختلفة في كتيبة الجنرال دانييل فلورنسيو أوليري.

ـ هل كانت لك روابط مع الحركة البوليفارية؟

ـ كلا، فشافيز ومجموعته عملا مع الحركة. كانا شديدي التكّتم حيال ذلك بسبب النتائج الخطيرة التي يمكن ان تحصل لو تم اكتشافهما. أرسيت عند الحدود، وربما لهذا السبب لم يقيموا أي اتصال بي. الاتصالات كانت صعبة جداً. وكان علينا استخدام الراديو، ولم يكن في وسعهم قول أي شيء لي عبر هذه القناة.

أنا إنسان صادق. ولست أدري ما هو الجواب الذي كنت لأعطيه لو أنني مررت في ذلك الموقف. ما يسعني قوله هو أنه، عندما حصلت انتفاضة شباط/فبراير ١٩٩٢ ورأيت شافيز على التلفزيون، يتحمّل بشجاعة مسؤولية ما حصل، تملّكني الاعتزاز. شعرت، أقل ما يكون، بأن لديَّ صديقاً من الاستقامة بمكان بحيث يتحمل مسؤولية كبرى.

أخذتني الانتفاضة على غفلة. كنت قائداً لكتيبة مشاة كارابوبو عند الحدود الكولومبية، حيث قاعدة مسرح العمليات الرقم واحد. وبسبب الأعمال المتفرقة لمحاربي العصابات الكولومبيين، تمركزت هناك تقريباً كل السنين الثلاث التي خدمت فيها بوصفي ضابطاً برتبة مقدّم. وأذكر انه، بعد الرابع من شباط/فبراير، كنا متجمعين في نادي الضباط عندما صاح أحد النواب «الموت للفئة الموالية للانقلاب»! وكان هذا جلَّ ما

تطلَّبه الأمر لتدفيعه ثمن تلك الملاحظة في الانتخابات، ولم يُنتخب قطُّ نائباً من جديد.

نيسان/أبريل ٢٠٠٢

ـ أخذك الانقلاب على حين غرّة؟

ـ بالرغم من أنه تم إعلامنا عن انقلاب محتمل، وحصلت أيضاً أحاديث عن استياء عام محتمل، يجب أن اعترف بأنه أخذني على حين غرّة. في العاشر من نيسان/أبريل، اجتمع بي، في هذا المكتب بالذات، كل من وزير الدفاع يومها خوسي فيسانتي رانخل، والمفتش العام للقوات المسلحة الجنرال لوكاس رينكون، وقائد القوات المسلحة الوطنية ـ القيادة الموحدة الجنرال مانويل روسندو، ونائب رئيس أركان الدفاع إفرايين فاسكيز فيلاسكو. وحضر أيضاً رئيس هيئة الأركان المشتركة نائب الأميرال برنابي كارّيرو كوبيرو، ونائب الأميرال خورخي سييرالتا زافارسي من البحرية. أذكر أننا تحدثنا عن مسيرة المعارضة، التي كانت تتحضَّر للسير من المنتزه العام الشرقي إلى شواو. ولم تكن هناك بعدُ، على ما يُفترض، أي إشارات إلى أي شيء، وفجأة، جاءنا الجنرال نستور غونزالس، وهو رائد سابق من مدارس الجيش، معلناً أنه لن يعترف برئيس الجمهورية قائداً أعلى له.

في تلك اللحظة، قبالة شاشة التلفزيون، بدأت أشعر بشيء غريب في وضعية الناس، وبالشك في أن ليس غونزالس وحده،

بل أيضاً مانويل روساندو وفاسكيز فيلاسكو، كانوا متورطين معاً في شيء خطير جداً.

ـ كنتَ آمراً للقوات في كاراكاس منذ فترة طويلة في ذلك الوقت...

ـ كنتُ عقيداً، ومضى علي رسمياً شهر قائداً لحامية كاراكاس، وتشمل صلاحياتي كاراكاس الكبرى؛ وقبل ذلك، في ميريديا مدة ١٨ شهراً، ونقلت من هناك إلى فرقة سان كريستوبال. وأثناء خدمتي في هذه الفرقة، اتصل بي الرئيس للمجيء والخدمة رئيساً لقوات حماية مقرّه. أمضيت ستة أشهر هناك. وقرر في كانون الثاني/يناير أن يعطيني حامية كاراكاس.

ـ متى اتُّخذ قرار تطبيق خطة أفيلا؟

ـ تقرر ذلك بعدما أعلنوا من على التلفزيون، أن المسيرة في تشواو بدلت مسارها إلى ميرافلورس.

ـ كنتَ في وزارة الدفاع في ذلك الوقت؟

ـ نعم، وسمعت الدكتور خوسي فيسانتي رانخل يتصل بمارسيل غارنييه، المدير العام لراديو كاراكاس، ويسأله ما سبب كل هذا الجنون، وكيف أمكن أن تتحول هذه المسيرة إلى ميرافلورس. ونظراً إلى العدد الهائل من الناس هناك في ذلك الوقت، كان لا يمكن تفادي المواجهة بين الكتلتين، وهذا خطير للغاية.

أمكنني سماع مارسيل غارنييه يؤكد لرانخل أنه سيفعل ما

بوسعه لمنع المسيرة من تغيير مسارها. واتصل الوزير أيضاً برئيس «غلوبوفيزيون» الدكتور ألبرتو فيديريكو رافيل، وقال له الشيء نفسه، مستخدماً العبارات نفسها. وهو أيضاً ألزم نفسه القيام بأي شيء لوقف المسيرة. إلا أن كليهما كان يمرر الأمور على رانخل، ولم يقوما بأي شيء على الإطلاق. كانا متورطين في كل شيء، ويتصرفان وفق ما هو مخطَّط. وأعتقد أنهما حتى توقعا مثل هذه المحادثات.

ثم إنهما قررا أن يضعا معاً بياناً للتلفزيون. كانت هناك بضع كاميرات في الطابق السفلي. طلب خرسي فيسنتي من لوكاس رينكون، بوصفه مفتشاً عاماً للجيش، التوجه بكلمة إلى البلاد وإطلاق دعوة إلى الهدوء. كان الضابط الأعلى رتبة في القوات المسلحة. وعندما نزلنا جميعاً للاستماع إلى كلمته، اختفى فاسكيز فيلاسكو. اختبأ داخل أحد الحمامات ولم يمكن العثور عليه. وصل روساندو، لكن فاسكيز لم يصل.

في مواجهة هذا الوضع الصعب، شرعت فوراً إلى الفرقة الثالثة، حيث مقر قيادتي. أذكر أنني طلبت من الجنرال ويلفريدو رامون سيلفا الخروج من اجتماع ضم جميع الجنرالات، لأن الشكوك تملَّكتنا حيال فاسكيز فيلاسكو. فبعد اختفائه في الحمام، قام الجنرال سيلفا بدعوة جميع جنرالات الجيش في كاراكاس إلى اجتماع طارئ في الطابق الخامس من مقر قيادة الجيش، وجعلهم يجلسون أمام شاشة التلفزيون ليتمكنوا من رؤية ما يحدث.

حاولوا في ذلك الاجتماع إقناع مجموعة من الضباط بأنه لم تعد للرئيس سيطرة على الحكومة، وبأنه فقد عملياً سلطته وشرعيته. ودعوهم بذلك إلى الانضمام إلى صفوف الفئة المؤيدة للانقلاب. هذا كله شرحه لي الجنرال ويلفريدو سيلفا عندما طلبت منه الخروج من الاجتماع. استأذن وغادر إلى الكتيبة الثالثة. حينها أخبرته أننا سنطبق خطة أفيلا. سنبدأ مرة أولى وأخيرة بالتحرك كما هو مقرر. ويتعلق الأمر بأخذ مواقع أساسية في المنطقة، وبالأخص حول ميرافلورس. حذّرنا كل الوحدات وجمعناها في باحة كتيبة بوليفار. ومضينا إلى كتيبة أيالا، وأخرجنا الدبابات والرجال المسلحين. حضّرنا كل الآليات التي أمكن إدارة محركاتها للمعركة. ومن بين ٤٥ دبابة بقيت هناك نحو تسع. وجيء بالبقية إلى هنا.

فشل أجهزة الاستخبارات

- هل كان شافيز على بيّنة ودراية بما يجري في حصن تيونا في ذلك الوقت؟

كلا، لم يعلم بما كنا نفعله. ولم أتمكن من إطلاعه. كان ذلك مستحيلاً.

أَوَلم تستشعر أجهزة الاستخبارات أي شيء؟

- تحدثت مع مختلف ضباط الاستخبارات وقالوا لي إنهم أعطوا الرئيس عدداً من الإنذارات: فلان الفلاني يتآمر عليك، وفلان الفلاني يقصد اجتماعات ما. لكنهم في الواقع لم يضمّنوه

الكثير من المعلومات الاستخباراتية حيال ما يجري، وفي معظم الأوقات لم يتم حتى التحقق من المعلومات. وأصبح ذلك، لسوء الحظ، أكثر فأكثر تعقيداً، وبلغ حدّاً أصبحت معه مجموعة المتآمرين كبيرة وخطيرة جداً: أكبر بكثير مما كان يُظن.

وأنا نفسي، اعتقدت في ١١ نيسان/أبريل بوجود خائنَين أو ثلاثة فقط، وتبين أن أكثر من مئة ضابط من أعلى الرتب كانوا متورطين، ومعظمهم تقريباً من دون سلطة. والوحيدان، من بين الجنرالات، اللذان كانت لهما أمرة على القوات العسكرية، هما قائد الجيش ونائبه خوسي فيليكس رويز غوزمان.

ـ لكنك تحدثت مع شافيز في ذلك اليوم.

ـ كانت ضربة حظ. سمعت، وأنا في كتيبة بوليفار، محاولات الرئيس الاتصال بالجنرال روسيندو، الذي كان متورطاً حتى أذنيه في الانقلاب. نادى روسيندو عبر الراديو مستخدماً اسمه الرمزي. كان اسم الجنرال العسكري هو «قِرش ٣»، وأنا «قرش ٦». سمعت صوته: «قرش ٣، قرش ٣، هنا قرش واحد». لم يجب روسيندو. وبملاحظتي إصرار الرئيس، أجبت:

ـ ماذا قلت؟

انظر ـ قلت له ـ يمكنني سماعك، أنا متجه إلى القصر. جماعتي على أتم الجهوزية وعلى استعداد لتطبيق خطة أفيلا. أريدك فقط أن تقول لي متى أحرّكهم. سألني كم لدي من الجنود تحت إمرتي. أجبته: جميع الذين نصت عليهم الخطة، بالإضافة

إلى الدبابات. «انظر ـ أجاب: لنقم بالتالي، أرسل إليَّ ٢٠ دبابة لحماية القصر، وابقَ عندك مع الجنود».

في هذه اللحظة، طلبت من الجنرال ويلفريدو سيلفا المغادرة فوراً إلى ميرافلورس مع الدبابات، والمضي عبر ألكابالا ٣، من النفق المؤدي إلى جادة سوكري، وهي الطريق الأسرع إلى هناك، حيث اعتقدنا بوجود حظوظ قليلة في الاصطدام بمدنيين.

ـ ماذا فعلت؟

ـ اتصلوا بي من الوزارة، وطلبوا مني المثول فوراً أمام الجنرال لوكاس رينكون. ولحظة وصولي، أبلغوني أننا مغادرون بالهيليكوبتر إلى ميرافلورس، لأن الرئيس سيدلي بيبان. وكان في الهيليكوبتر أيضاً الجنرال روسيندو، والأميرال سييرالتا زافارسي، وقائد الحرس الوطني الجنرال فرانسيسكو بيلساريو لانديس. سمعتهم يقولون إنهم سيبلغون الرئيس أنه ليس في الإمكان القيام بأي شيء، وأن كل شيء قد ضاع، وأن الحرس الوطني لا يعترف بسلطة قائده، وقائد الجيش قد ثار وسيدلي ببيان، وهم لا يعرفون ماذا يحدث للبحرية في عدد من الحاميات. كانوا سيطلبون أساساً من شافيز أن يستقيل. إلا أن الدكتور رانخل لم يوافق على هذا الاقتراح.

ـ كان معكم أيضاً؟

ـ نعم. وكان يقول: لن نبلغ أن كل شيء قد ضاع، فالموقف ليس على هذا النحو بتاتاً. عندما وصلنا إلى القصر،

كانت الساعة حوالى السادسة مساءً، تقريباً عند حلول المساء. دخلنا، وبينما كنا ننتظر أن يرانا الرئيس، همست للجنرال لوكاس رينكون بأنه لا شأن لي هنا، وأنني لست عضواً في القيادة العامة: «أعتقد أنه علي أن أكون مع جنودي. أنا قلق لتركهم بمفردهم في حصن تيونا، وأريد أن أكون هناك». أعطاني الجنرال لوكاس رينكون الإذن. استعرت سيارة من الوزير نلسون ميرنتس، وغادرت القصر من المدخل الخلفي، متجهاً إلى الحصن مباشرة.

ـ بماذا كنت تفكّر أثناء القيادة؟

ـ خمَّنت أنهم سيقومون بتوقيفي. كان هناك أمر غريب، لكن المؤامرة بدأت تتضح لي أكثر فأكثر. مررت عبر مركز الحراسة من دون مشاكل. كنت مستعداً لأي شيء للدخول. وفوجئت بأنني تمكنت من ذلك من دون مشاكل. وهذا يعطي فكرة عن الجنون والارتباك اللذين أحاطا بنا.

شرعت فوراً إلى الكتيبة اللوجستية. كنت قلقاً. فقبل صعودي إلى الهيليكوبتر أعطيت أمراً بتوقيف عدد من الضابط الذين ثاروا وتمكنوا من السيطرة على مركزي الحراسة الأول والثالث، وذلك الموجود عند الجامعة الاختبارية العلمية الوطنية التابعة للقوات المسلحة الوطنية Universidad Nacional Experimental Politecnica de la Fuerza Armada Nacional. لقد سيطروا عملياً على مراكز الدخول الأساسية إلى الحصن. كانوا ينفذون أوامر الجنرال مارتينيز هيدالغو باعتراض حركة المرور داخل

تيونو، وقطع طريق الوصول صوب الشرق (ماراكاي، فالنسيا). تمكنوا من جلب كل آلية صادفوها حول الطريق العامة الإقليمية إلى داخل الحصن. جاؤوا بشاحنات نقل، وحافلات، وباصات... أرادوا خلق ازدحام في الحصن، واستخدام هذه الآليات لمنع الدبابات من المغادرة.

ـ متى حصل هذا؟

ـ قبل أن أتحدث مع الرئيس. وعندما طلب مني إرسال الدبابات، كنا قد استعدنا مركز الحراسة الثالث. وأمرت بإزالة كل الآليات المدنية من الحصن.

ـ كيف تمت استعادة المراكز؟

ـ اضطررنا إلى توقيف ثلاثة نقباء كانت المراكز بإمرتهم. وهكذا، فور عودتي من ميرافلورس، توجهت مباشرة للتحدث مع الموقوفين. وبقيت هناك حتى الثامنة والنصف أو التاسعة ليلاً. لقد أرادوا في ذلك الوقت توقيفي.

ـ لماذا لم تكن الدبابات في ميرافلورس، كما طلب الرئيس؟

ـ عندما وصلت الدبابات إلى القصر، تلقى قائد الكتيبة، وهو من الموالين للانقلاب، اتصالاً من فاسكيز فيلاسكو، وأُمر بسحب الدبابات. كان ذلك حاسماً. فبخروج الفرقة المدرعة، بدأت التهديدات للرئيس. قالوا إن حماماً من الدم سيجري إذا لم يستقل، وهددوا بأنهم سيقومون بقصف ميرافلورس.

الحيرة

ـ من أمر بتوقيفك؟

ـ الجنرال لويس كاستيّو كاسترو. أرسل عقيداً ومجموعة من الجنود. ظهروا في مقر سلاح الإمداد والتموين. شهرت مسدسي على الفور، ثم قلت للجنرال: «إذا حاولت توقيفي فسوف تعرف إلى أي مدى أنا على استعداد للدفاع عن نفسي». لم أكن أنوي تركهم يعتقلونني. ومضيت في تهديده، والمسدس في يدي: «هيا، إذا كنت تنوي ذلك، فإنني سأنسف دماغك». تردد بادئ الأمر، ثم امتنع. استدرت سريعاً إلى العقيد خوسي غريغوريو مونيّا بانتونخا، وسألته: «أهذه سيارتك؟»، أجاب بالإيجاب. صعدنا في السيارة معاً. وقلت: لنذهب إلى ميرافلورس.

كان النفق مسدوداً في إل بارايسو. قطع رؤساء البلديات الموالون للانقلاب وشرطتهم الطريق. أخذوا مفاتيح كل السيارات في المقدمة، بحيث لا يعود في إمكان تلك التي وراءها التحرّك.

تعطّلت حركتنا على مقربة من مخرج النفق. لكننا استدرنا هناك، وسرنا في الاتجاه المعاكس، مبدّلين الأضواء، ومتعرّجين بين السيارات الآتية في اتجاهنا، إلى أن خرجنا عند المقبرة.

من هناك، شققنا طريقنا صوب مبنى مديرية الاستخبارات والوقاية في جادة فيكتوريا. كان الموالون للانقلاب قد استولوا عليه وأوقفوا مديره، النقيب كارلوس أغيليرا. وفور وصولنا،

كانت في انتظارنا مفاجأة من العيار الثقيل: كاد يتم القبض عليّ أيضاً.

ـ هل احتجزوك؟

ـ لا، فكارلوس أغيليرا كان حذقاً جداً. أبلغ الضباط الموالين للانقلاب أنني جئت لأخذه مخفوراً إلى حصن تيونا. سمحوا لكارلوس بالمغادرة، وعندما أصبحنا في السيارة أمرني: «لنذهب، لنذهب». أخذنا ندور حول كاراكاس، في حلقات وحلقات، بقصد دراسة الموقف واتخاذ الخطوة اللاحقة المناسبة: لا نعرف ماذا نفعل بالضبط. قرابة ذلك الوقت، اتصلوا بي طالبين مني المثول في مقر القيادة، وقد صار الوقت عندها منتصف الليل أو الواحدة من فجر الثاني عشر. وعدوني بعدم الانتقام، وأنهم يريدون التحدث معي فحسب.

ـ من اتصل بك؟

ـ الجنرال غراناديّو. تشاورت مع أصدقائي وقررنا أن نسلّم أنفسنا لنرى ما حدث. مضينا صعوداً إلى الطابق الخامس من مقر القيادة، حيث كان الضباط الموالون للانقلاب. احتجزوني في حمّام القائد.

بعد فترة فُتح الباب. فوجئت بالجنرال أنريكي مدينا غوميز. إنه الملحق العسكري الفنزويلي في الولايات المتحدة الذي صادف أن جاء إلى كاراكاس يوم الانقلاب نفسه. أبلغني أن هذا العمل كان منتظراً منذ فترة طويلة، وأن الطريقة الوحيدة لمنع سقوط قتلى هو في القيام بما يقومون به.

عند هذا الحد، تبين لي أن كل شيء كان منظماً بطريقة متقنة، وأنهم خططوا لمذبحة في بوينتي ياغونو لتبرير تعبئة القوات المسلحة ضد الرئيس. وإذا أمكن إقناع القيادة العليا بعدم وجود خيار آخر سوى القبول بالانقلاب، فلن يحتاجوا إلى استدعاء الجنود. لقد علم زعماء الفئة المؤيدة للانقلاب أنه سيكون عليهم أولاً قتل عدد من الأناس الأبرياء للحصول على السيطرة، وإبقاء الزعماء العسكريين الموالين للرئيس تحت السيطرة.

ـ كيف كانت ردة فعلك؟

عندما بدأوا يخبرونني بكل هذه الأمور، اتخذت وضعية مستكينة. كان ذلك في صالحي. احتجتُ إلى أن أعرف ما هي خططهم، وجاريتهم من دون أن أُلزم نفسي بشيء. آه، هذا هو ما خططتم له. كنت أحاول أيضاً الخروج من هذه الورطة.

بعد نحو نصف ساعة من حواري مع مدينا غوميز، دخل فاسكيز فيلاسكو مع الجنرال هنري لوغو بينيا، الذي كان قائد حرس المقر الرئاسي. سمعت لوغو بينيا يوبخ فاسكيز فيلاسكو: «تبا، ظننت أنك ستستقل الطائرة»، فأجاب: «كيف يمكنني أن أستقل الطائرة؟ كلا، لقد تقرر الأمر». كان بيدرو كارمينا قد أصبح بالفعل في مكتب القائد. وعندما غادر الجنرالان القاعة، خرجت وراءهما. وبما أنهما رأياني أتخذ الوضعية المستكينة، تركاني وشأني.

ـ كيف كان الجو في هذا المكان؟

ـ نشوة عارمة. كارمونا يجلس إلى مكتب القائد، ومعظم الباقين جالسون من حوله؛ بعضهم يروي القصص، وآخرون يضحكون... جميعهم محتفلون لأنهم، كما ظنوا، حققوا أهدافهم.

ـ هل كان أحد من الجيش الأميركي موجوداً؟

ـ نعم، كان هناك ضابطان أميركيان.

ـ هل تذكر اسميهما؟

ـ لا أذكر اسميهما، لكنني أذكر ملامح وجهيهما، وقَصة شعرهما، وطريقة كلامهما. يمكن المرء أن يتعرف إلى الغرينغو عن بعد ميل.

ـ أكانا يرتديان الزي العسكري؟

ـ كلا، بل ملابس مدنية، لكنهما يحملان بندقيتين. استرعى ذلك انتباهي، لأنني للمرة الأولى في حياتي أشاهد بندقية عليها قاذفة قنابل. عرفت لاحقاً أنها من نوع «أم ٢٠٣».

ـ قيل إن المقدّم جيمس رودجرز والعقيد رونالد ماك كامّون كانا هناك، في الطابق الخامس من مقر القيادة، حيث بقيا حتى نهاية الانقلاب...

ـ بالضبط، هذان كانا اسميهما. اكتشفت هويتهما الحقيقية في ما بعد، لكنها كانت المرة الأولى التي أراهما، وكنت متيقناً من أنهما جنديان من اليانكي.

ـ وكانا أيضاً يحتفلان...

نعم، كانا أيضاً في حالة نشوة. أذكر أن الجنرال كارلوس ألفونزو مارتينيز، الذي كان المفتش العام للحرس الوطني، حضر. وما إن دخل الغرفة، حتى قال: «حسناً، إنه في طريقه. أبقوه هنا، لا تأخذوه إلى مكان آخر. سيُحاكَم هنا، يجب أن نحاكمه هنا».

ـ محاكمة من: شافيز؟

ـ شافيز. عندها ذهبت إلى الجنرال مارتينيز فيدال، وقلت «انظر، ما تفكرون في القيام به خطأ. فكل من يقلل من شعبية الرئيس مخطئ. تعتقدون أن القصة انتهت، وأنا أعتقد أنها بدأت للتو». لم يعيروني اهتماماً. على أي حال حينها نقط قررت الذهاب إلى البيت.

ـ كم كانت الساعة؟

ـ بعد الثالثة فجراً بقليل. كانت قنوات التلفزيون تذيع الرسالة نفسها تكراراً: غارسيا كابيرو، سلّم نفسك.

عند ذلك الوقت، وصل كارميلو، وهو جار لي يعيش في الطرف المقابل من الشارع. بدأنا في الحديث عما يجري. وكان أحد أشقائي هناك أيضاً. ووصلت شقيقاتي لاحقاً. بقينا مستيقظين حتى السادسة صباحاً، وعندها قررت العودة إلى تيونا.

في عين العاصفة، من جديد

ـ هل كان ذلك قرارك، ام أنهم استدعوك؟

ـ كان قراراً شخصياً، لأنني مهتم بمعرفة ما يجري في حصن تيونا.

ـ وهل تمكنت من الدخول؟

ـ من دون أي مشاكل.

ـ وإلى أين ذهبت؟

ـ إلى الفرقة الثالثة.

ـ ومن تولى قيادة الفرقة الثالثة؟

ـ عيّنوا لاميدا هيرنانديز، وهو جنرال اليوم، وكان يومها برتبة عقيد.

ـ ماذا فعلت عندما رأيته؟

ـ حذّرني لاميدا: «انظر فقط إلى معلوماتك، إنهم يريدون توقيفك. طلبوا مني تولي قيادة الفرقة وقالوا إنهم سيرقونني. لكنني لست مهتماً بعرضهم، وقررت أن ألتزم بك، مهما تكن النتائج». كان صباح الثاني عشر عندما بدأنا في دعوة جميع الضباط الذين نعتقد أنهم مخلصون للرئيس.

ـ هل كنت تعرف أن شافيز معتقل في تيونا؟

ـ سُجن في مبنى الشرطة العسكرية، لكنني لم أعرف ذلك

في حينه. أبقوا الأمر سراً مطلقاً. أحاط بعضُ الشكوك بالأمر، لكن ما من شيء مؤكد. واستمررنا من هناك، في ذلك الصباح، في مناداة الضباط وقادة الكتائب. وفي وقت لاحق من بعد الظهر، أقسم كارمونا اليمين كرئيس، وأمر بحل المجالس التنفيذية والقضائية والتشريعية.

ـ يعني أنك أُعفيت من مسؤولياتك رسمياً...

ـ الجميع تم إعفاؤهم. استغللنا تلك الكارثة للتحدث مع الضباط من جديد. عيّن كارمونا أعضاء القيادة العسكرية العليا في تلك الليلة نفسها، وكان ذلك أكثر سوءاً. وعندما عُيّن الجنرال لوغو بينيا قائداً للجيش، أصيب مدينا غوميز بالإهانة الشديدة إلى درجة أنه ذهب، صبيحة يوم ١٣ نيسان/أبريل، إلى منزل رجل الأعمال إيسّاك بيريز ريكاو، وخلع بزته العسكرية، وغادرا معاً إلى الولايات المتحدة.

ـ كذلك، تُرك الجنرال فاسكيز فيلاسكو من دون وظيفة.

ـ تماماً. وبدأ ضباط الحصن، وقد استغلوا واقع أن فاسكيز كان غاضباً جداً، في إعطاء الأوامر للضباط الموالين للانقلاب في المكان، والقول لهم إنهم خُدعوا لأنهم لم يروا استقالة الرئيس. واعترضوا أيضاً على حل كل المؤسسات المدنية، واتهموهم بأنهم لا يحترمون أي معايير، وأن هذه ديكتاتورية. اتصل الروّاد بفاسكيز فيلاسكو، واقترحوا عقد اجتماع. وهو، الغاضب، وافق على عقده في ١٣ نيسان/أبريل عند الواحدة بعد الظهر، في كتيبة أيالا. أبلغوني، بالطبع، أنهم وافقوا على

الاجتماع. وقبل ذلك ببضع ساعات، حوالى الحادية عشرة صباحاً، طلبت من قائد الشرطة العسكرية إذناً يسمح لقائد الفصائل الذي سيصل بتقييد دخوله الحصن.

محتجز في تيونا؟

ـ متى بدأ الناس في التجمع في حصن تيونا؟

ـ منذ مساء الثاني عشر وما بعد، وخصوصاً في تاريخ الثالث عشر. كانوا يصرخون: نريد أن نرى شافيز؛ نريد أن نرى شافيز. كان هذا شعارهم. قالوا إنه محتجز في مقر قيادة الشرطة العسكرية. وفي الواقع، بدأت هذه الشائعات تتأكد، بعد ظهر الثاني عشر، وبدأنا نخطط لإنقاذه.

ـ من أبلغكم أن شافيز محتجز في تيونا؟

ـ أحد الضباط. لكن، بعد ساعتين من التخطيط لعملية الإنقاذ، أبلغونا أنهم نقلوه إلى سجن لوس تيكويس. وهكذا، جمعنا مجموعة أخرى من الضباط الذين كان عليهم أن يقتحموا بشاحنة بوابات السجن والدخول إليه بحثاً عن شافيز الذي يُفترض أنه مسجون فيه.

بعد بعض الوقت، جاء إلينا ضابط آخر وأبلغنا أنهم أخذوه إلى توريامو، وأنهم بعد ذلك، في الثالث عشر، نقلوه إلى لا أورشيلا. هذا هو سبب تخلينا عن محاولات الإنقاذ. فما من مغزى في هدر طاقاتنا بحثاً عن شافيز، ونحن لا نعلم أين هو.

وفي صباح الثالث عشر من نيسان/أبريل، عندما جاء إلينا الضابط وأبلغنا أنهم نقلوه إلى لا أورشيلا، اتصلت بالسفارة الكوبية. خطرت لي في ذلك الوقت فكرة مجنونة بعض الشيء. هيه، ماذا لو يرسل لنا فيدل طائرة فنذهب ونأتي بشافيز من لا أورشيلا؟

ـ ماذا قالوا؟

ـ إن ذلك سيتسبب بمشكلة دولية، وهو ما يجب تفاديه بأي ثمن.

ـ وماذا كان يحصل خارج الحصن؟

ـ عند الحادية عشرة من ذلك الصباح، عندما حاولت استدعاء قادة الجنود إلى هنا قبل اجتماع الواحدة بعد الظهر، كنا نفكّر في أنه، بمساعدة من الشعب، يمكننا أيضاً نصب فخ للفئة الموالية للانقلاب، ولكارمونا.

ـ هل كنت على اتصال مع بادويل في ماراكاي؟

ـ كلا، لكنني عرفت بوجود انتفاضة في ماراكاي، وأن لواء القوات الخاصة لم يعترف بالحكومة الجديدة.

ـ وأين كان كارمونا؟

ـ في هذا المكتب بالذات.

ـ كيف بلغت مقر القيادة؟

ـ عند الحادية عشرة صباحاً. وبينما كنت أحاول إقناع قائد

الشرطة العسكرية بالسماح للجنود بالدخول، اتصل بي قائد كتيبة حرس الشرف، العقيد خيسوس ماراو كاردونا: «جنرال، أنا غير موافق على ما يحصل، وأنا بإمرتك». طلبت منه احتلال قصر ميرافلورس، وتطبيق خطة الدفاع، وتوقيف الفئة الموالية للانقلاب في الطابق السفلي للبدء في ممارسة الضغط. وأكدت له أننا، من جانبنا، نعمل جاهدين لتحقيق هدفنا.

أقسم إن كل شيء جرى على هذا النحو، من دون تفكير كثير. اتصل بي من جديد بعد نحو عشر دقائق. أبلغني أن هيليكوبتر تطلق النار عليهم. قلت له: «حسنا أسقطها». كنت واضحا جداً: «أسقطها». اتصل من جديد، قائلاً إنه أعطى الأوامر لجنوده الذين ردوا على الفور، وإن الهيليكوبتر قد غادرت مبتعدة. لم يتمكنوا من إصابتها. استولوا على القصر، لكن كارمونا أفلت منهم وهرع إلى هنا، إلى حصن تيونا.

ـ كيف وصل كارمونا إلى هنا؟

ـ جاء ترافقه قافلة وفرها له حراس مقره الجدد. حينها، بدأنا اجتماعنا المقرر في الواحدة بعد الظهر. لم يعرف أي من الجنرالات ولا الأميرالات أن القصر قد احتل، وأن كارمونا متجه إلى تيونا. لم يعرفوا شيئاً. كنت أنا الشخص الوحيد الذي يعرف ذلك.

الردّ

ـ ماذا حدث في الاجتماع؟

ـ تحدثوا عن الحاجة إلى الاعتراف بالدستور، لأن الشعب كان مصمماً على الدفاع عنه. لم يكن ذلك مجرد تمرين في البلاغة. فالضجيج الذي أحدثه الشعب عند المقرات، أمكن سماعه حتى من هنا. كانوا يَضربون على حديد جسر تيونا بالعصي والأنابيب، ويُحدثون جلبة هائلة. في تلك الغمرة، استقال نائب الأميرال هكتور راميريز بيريز، وهو قائد فرقاطة، من منصبه كوزير للدفاع، لأنه لا يريد أن يكون مسؤولاً عن المذبحة التي ستحصل هنا، لأن الشعب كان يستشيط غضباً.

أراد مؤيدو الانقلاب إقناع جميع الضباط، وجميع قادة الكتائب، بأنهم لم يكذبوا، كما يدّعي هؤلاء الآخرون. وقال أحد القادة «لم أر استقالة شافيز. كذبوا عليّ ولم يقولوا إنهم سيسقطون كل الضمانات الدستورية». والحقيقة أن الاجتماع غاص في الوحل، وحدث شيء مهم جداً. أخذوا في كتابة مسودة إعلان ثان للانقلاب يعترفون فيه بكارمونا رئيساً للدولة، لكنهم يؤكدون للشعب أنهم سيحافظون على البرامج الاجتماعية نفسها التي أقرتها الحكومة السابقة.

وعندما سلّمني فاسكيز فيلاسكو الوثيقة، أخذت، مستفيداً من غضبه لاستبعاده عن خط القيادة، في تشطيب كل ما اعتبرته يتخطّى الحدود، أو عدائياً، ولم تكن له أي علاقة بالوضع السياسي. وجدت متعة كبرى في ذلك.

خرج فاسكيز فيلاسكو للتحدث مع الجنرال أنطونيو خوسي نافارّو شاكون الذي كان في الخارج. عُلّق الاجتماع. انتظرنا

بعض الوقت. وبينما استمررنا في سماع الناس في الشوارع، قلت لآمري الكتائب «لن ننتظر أكثر من ذلك، سنأتي بالجنرال ونجعله يدلي بهذا الإعلان مرة أولى وأخيرة». جاء الضباط معي. خرجنا وعدنا بفاسكيز فيلاسكو إلى الغرفة. قلت «هاك، اقرأ الوثيقة. راجعها، لأنني سآتي برجال الصحافة إلى هنا». وبوصول الصحافيين، أبلغ أحدهم الأناس الموجودين في الغرفة «لا توجد إشارة بث. فقد توقفت كل محطات الربط. لا مجال لبث حيّ للإعلان، وإذا لم نقم بالأمر بهذه الطريقة فسيكون بمثابة تشويه للوقائع». أعطتنا صحافية تعمل في محطة «غلوبوفيزيون» أحد أرقام هاتف «السي.أن.أن.»، وأقنَعَت «السي.أن.أن.»، ببث الموضوع. هذا إعلان من كاراكاس، حيث كل إشارات البث متوقفة، ونحن سنبث إعلاناً حيّاً. أعطونا الإشارة، ووضعنا فاسكيز فيلاسكو على الخط الهاتفي. هذه هي قصة البيان الذي يعترف بكل السلطات الدستورية وجرى فيه الحديث عن إعادة الأوضاع إلى طبيعتها في كل أنحاء البلاد.

ـ لماذا لم تأت هذه الوثيقة على ذكر أي شيء عن كون كارمونا رئيساً؟

ـ شَطبتُ هذا الجزء. وبسبب توتّر أعصابه، لم يلاحظ فاسكيز فيلاسكو ذلك حتى.

من دبابة

ـ ألم يعرف كارمونا بحصول أي من ذلك؟

ـ كلا. وكما قلت، فإن الموالين للانقلاب لم يعرفوا كذلك ما يجري في ميرافلورس. وجرى حديث عن إعلان ثان، على أن يتم من مكتب وزير الدفاع. جاؤوا كلهم إلى هنا، حيث نحن الآن. وجئت أنا أيضاً، لأرى ما يقولون. أخذوا يتجادلون. كيف نقول للناس إن وزير الدفاع لم يعد راميريز بيريز، بل نافارو شاكون؟ هذا لن يعجب الشعب. كانت أعصابهم شديدة التوتّر. اعتقدت أنهم سيعالجون أمراً أكثر مغزى، ولمَّا رأيت أن الحالة ليست على هذا النحو، عدت إلى الفرقة الثالثة حيث حذّروني من أنهم يبحثون عني لتوقيفي. حسناً، ليوقفوني عند مركز الحرس مع الشعب. التقطت مذياعاً، وتسلّقت دبابة، وتوجهت إلى الجموع:

«القوات المسلحة لم تعترف بسلطة الحكومة التي نصَّبها الانقلاب، ولم تقبل بكارمونا قائداً أعلى. إنها حكومة أمر واقع، والجيش سيقاتل حتى الموت لإعادة شافيز إلى السلطة».

ـ وماذا عن كارمونا؟

ـ كان كارمونا قد أصبح مع الجنرالات. عرفوا أنه تمت السيطرة على ميرافلورس. وحوالى السابعة ليلاً، أمرت العقيد مانتيّا بانتوخا، والعقيد غرانادّيو، وجنرالات آخرين، باحتلال مكتب وزير الدفاع بواسطة كتيبة كاراكاس، وبأسر كارمونا وغيره من مؤيدي الانقلاب. وهو ما فعلوه.

ـ هل جرت مواجهة؟

ـ لا، فقد انهارت معنوياتهم. وعند الدخول إلى المكتب،

قيل لهم إن كارمونا موجود في الجناح الخاص بالوزير، لكن باب الغرفة كان مقفلاً. ودخل ضابط من كتيبة كاركاس، يعرف المكان جيداً، من باب آخر، واعتقل كارمونا.

ـ هل قاوم؟

ـ كلا، مطلقاً. كان مرعوباً ويرتدي ثيابه العادية، ولم يُبد أي مقاومة. أبلغه الضابط أنه قيد التوقيف، أجاب لأي جريمة؟ قال الضابط الشاب «لانتهاكك دستور الجمهورية». جئت به إلى مكتبه فوراً. وعندما التأم شمل الجميع ـ الجنرالات، الأميرالات، وكارمونا ـ تم إبلاغ وزير الدفاع خوسي فينسيني رانخل. جاء إلى هنا فوراً وأنّب الجميع تأنيباً شديداً.

ـ هل كنت هناك؟

لا، كنت على بعد أميال، مع الشعب. لأن الفكرة، في حال عدم استسلامهم، كانت في فتح البوابات لتدخل الجموع وتطوقهم. عند هذا الحد أصبحت أسيطر كلياً على الحصن.

عودة شافيز

ـ جنرال، قلت لنا في البداية، إنه لو طلب منك شافيز الانضمام إلى الحركة في ١٩٩٢، لما عرفت ماذا تفعل. ما الذي حملك، بعد عشرة أعوام، على الصعود إلى سطح دبابة والتوجه إلى الشعب؟

ـ عرفنا أن الفئة المؤيدة للانقلاب كانت خائفة من الشعب،

وأن الشعب مستعد للقيام بأي شيء من أجل رئيسه. فشافيز صديقي، وأدين له بالولاء، والأهم من هذا كله أنه رئيس منتخب شرعياً، وقد تم مرة أخرى، في هذا الظرف، البرهان على جاذبيته الشعبية. عرفت مشاعر شافيز، وهو شخص يضع قلبه كله في عملية، كانت، للمرة الأولى، تُعنى بحاجات الشعب، وتحارب الفساد وسوء استخدام السلطة في هذا البلد. خدمت في فرقة حراسة مقر الرئاسة، وأمكنني، عن كثب، مشاهدة العمل الذي يقوم به. أعطاني ذلك كله قوة كبيرة، وقمت باستجماع شجاعتي. كنت إلى جانب شافيز، وبدا ذلك واضحاً للشعب هناك الذي يحبه كثيراً.

ـ بماذا شعرت لحظة توجهك إلى الجموع؟

ـ شعور بالرضا هو أفضل ما شعرت به قط. الشعب كان في انتظار رد من القوات المسلحة، وهو ما أعطيناه إياه عندها. كان عرضاً كبيراً للدعم. أبلغناهم أن القادة مع الشعب. وعُرض ذلك على التلفزيون.

ـ وبعد ذلك؟

ـ عندما أُوقف الجنرالات والأميرالات حوالى السابعة مساءً، كنا لا نزال خارجاً مع الشعب. كنا نُسمعهم موسيقى لألي بريميرا، ونذيع عليهم، كل عشر دقائق، أي خبر يصلنا. كنا، على سبيل المثال، نقول: انظروا ها أن حاميات زوليا، وسيروبانو، وسوكري، قد اعترفت بشافيز رئيساً دستورياً للجمهورية. ويتبع ذلك تصفيق، وصراخ، وعناق، ونعود نضع

موسيقى ألي بريميرا من جديد. ثم، بعد عشر دقائق: أيها الشعب، حاميات كارابوبو، وتشيرا، وميريدا، تعترف بالرئيس شافيز... الأمر نفسه كل عشر دقائق: أيها الشعب، هذه الحامية وتلك... والفكرة هي إبقاء الناس مستيقظين. وحوالى الثانية من فجر الرابع عشر، علمنا أن شافيز غادر لا أورشيلا في هيليكوبتر متجهاً إلى ميرافلورس.

ـ من أبلغك هذا؟

تلقيت اتصالاً من ماراكاي يبلغني أن البعثة غادرت بالفعل بهيليكوبتر للمجيء بالرئيس. وهو ما أبلغناه للناس الذين تجمعوا هناك، وقد استمرت أعدادهم في التزايد. أمل الناس أن يأتي شافيز إلى الحصن، لكننا لم نعرف وجهته. أخرج شاب جهاز تلفاز صغيراً ركّبه في سيارته، وعندها عرفنا أنه متجه إلى ميرافلورس، وأنه سيصل في غضون دقائق قليلة. صرخت للحشود: لنذهب ونوافه! طلب منا الكثيرون توفير باصات للناس. أجبت: إيجاد باصات لستين ألف شخص في الرابعة فجراً؟ لا يمكنني ذلك. لكن هاك وحسب الناس، كلهم حيوية، يسيرون على الأقدام على طول الطريق العامة إلى ميرافلورس.

ـ كم هي المسافة؟

ـ من هنا إلى هناك؟ نحو ستة كليومترات، لكنها أبعد عبر الطريق العامة.

ـ هل ذهبت أيضاً إلى هناك؟

ـ بسيارة الشاب الذي يملك جهاز التلفزيون. عندما وصلنا، كان شافيز قد أصبح داخل القصر، وتعانقنا.

ـ ماذا قلتما لبعضكما البعض؟

ـ قال: يا رفيق، لم أتوقع دعماً أكثر من الذي أظهرته لي. كنتَ مخلصاً ووفياً لي، وأنا ممتن لذلك.

تعانقنا كشقيقين. ومضينا في الاحتفال بعودة الرئيس. عند هذا الحد أدركنا الصباح.

مؤيدو الانقلاب يخرجون موفوري الجانب

ـ هل رأيت من جديد الضباط الذين أُوقفوا؟

ـ اعتُقلوا هنا، لكن المدعي العام تدخّل. سرى حديث عن أن حقوقهم انتُهكت، وهذا وذاك وغيرهما من الأمور. في النهاية تركوهم يغادرون إلى منازلهم، مع مذكرات للمثول أمام المحكمة.

ـ وماذا عن كارمونا؟

ـ بقي قيد التوقيف، ثم وُضع في الإقامة الجبرية، حيث تمكن من الفرار.

ـ بعد أيام على الانقلاب، قلت للصحافة إنه، بتفتيش منازل عدد مر الضباط المؤيدين للانقلاب، عُثر على دلائل على مخطط لاغتيال شافيز. ما هي الوثائق التي عُثر عليها؟

ـ جرت عمليات تفتيش وعُثر على الكثير من الوثائق

الجرمية، لكن حصل أيضاً الكثير من الضغط من وسائل الإعلام، الأمر الذي نسف قرارات التقدم إلى المحاكمة ومنع قيام العدالة.

وحقيقة الأمر أن الضباط المؤيدين للانقلاب خرجوا موفوري الجانب، كأن شيئاً لم يكن. وكانوا يدخلون ويخرجون من حصن تيونا. يذهبون إلى هناك للهرولة، ولقاء الناس. تمتعوا بحصانة حقيقية، تحوّلت إلى واقع. راودتنا فكرة وضع قائمة بأسماء الضباط الموالين للانقلاب عند مخافر الحرس، لمنع دخولهم، فقدّمت إحدى المحاكم استئنافاً على أساس عدم دستورية مثل هذا الإجراء. استدعوا قائد الشرطة العسكرية وأبلغوه أنه لا يمكنه منع دخولهم، أو التضييق على حقوق أي شخص. ومن يدري ماذا غير ذلك... اضطررنا في النهاية إلى سحب اللائحة. وهكذا، استمر الأمان من العقاب. تباهوا بأمور، وهرولوا، ومزحوا، وقاموا بأمور فظيعة. واستمر ذلك لأكثر من تسعة أشهر، ثم جاء حكم المحكمة العليا الذي قرر أنه لم يقع أي انقلاب.

شجعهم هذا الحكم أكثر بكثير، كما لو أنه أعاد شحن بطارياتهم. أصبح شعورهم كأنهم مخوّلون، يأتون إلى مقر القيادة عندما يحلو لهم ذلك. وتوجب علينا إبقاؤهم على اطلاع، كما لو أنهم في الخدمة الفعلية ويتمتعون بالسلطة المعنوية. وكان يمكن تحمّل هذا. إلا أنهم تمادوا كثيراً، فكانوا يأتون، ويأكلون، ويتناولون الغداء، ويحلقون ذقونهم، ويزورون أصدقاءهم. أخذوا في استفزاز الناس.

ـ ما القرار الذي اتخذته؟

ـ قلنا: إذا لم نمارس الضغط، فسينتهي الأمر بمحاولة انقلاب أخرى. وسيُرمى الانضباط من النافذة. بعد تسعة أشهر على الانقلاب، عُينت على رأس الوزارة، وأول الأمور التي قمت بها هي الاجتماع بالضباط في كاراكاس. قلت لهم إنه إذا جاء الضباط الموالون للانقلاب إلى الحصن، فسنضطر إلى أن نطلب إليهم بتهذيب التعريف عن أنفسهم. وباللطافة نفسها، سنطلب منهم أن يصعدوا في سيارات دورية لنقلهم إلى الشرطة العسكرية. وإذا قاوموا، فسندفعهم بالقوة إلى سيارات الدورية أو نستخدم سكاكيننا الطويلة. ما هو مؤكّد هو أنهم سيصعدون إلى متن هذه السيارات، مهما تكن رتبهم. وبالطبع، نشر الضباط الأمر. وكان لبعضهم أصدقاء ومعارف ورفاق بين الضباط المؤيدين للانقلاب. وقد وفى ذلك بالغرض. ولم يعد أي منهم إلى حصن تيونا. والحقيقة هي أننا لو لم نصرّ، لواصلوا التصرف آمنين من العقاب.

كنت، في كل مرّة تدور شائعات عن التحضير لانقلاب، أضع دبابتين على كل من مراكز الحراسة. تشددنا كثيراً في شأن استعمال الآليات. كنا نقيم مراكز حراسة إضافية داخلية في أماكن أخرى من الحصن، ونسأل عن بطاقات التعريف، ونتحقق من الأمور في شكل منتظم. وفي واحد من هذه التحققات، وجدنا ألفونزو في ساحة مادارياغا يحاول تحريض الحرس الثوري على التمرد. مضيت إليه وقلت: «من العار الإمساك بك

على هذا النحو، أنت الذي لديك سنة أقدمية عليّ، أنت من دعوته بالـ «جنرال». ما سأقوله لك الآن هو أنه إذا خرجت بهذا القدر عن الخط فسأركل قفاك». هذا ما قلته له، وهو صحيح، وقد نُشر الخبر في كل مكان بأنني هددته بركل قفاه. كنت قد فعلت ذلك بالضبط ليُنشر النبأ ويعرفوا أننا مصممون على جعلهم يحترموننا مهما كلف الأمر.

ـ هل لا تزال من أسلحة في حوزتهم؟

ـ ومعاشاتهم. أُعطوا كذلك بطاقة التموين، وهي علاوة غذائية تعطى للناس بناءً على الأيام التي عملوا فيها. كان ذلك بمثابة تموين مجاني. وقد تم وضع حد لهذا كله.

وماذا عن أسلحتهم؟

امتلك بعضهم جبخانة حقيقية. وقّعت على قرار وزاري أبلغهم فيه أنهم إذا لم يسلموا أسلحتهم وغيرها من ممتلكات الدولة في غضون فترة محددة من الزمن، فسيحاكَمون بتهمة العصيان واستعمال السلاح من دون وجه حق.

ـ كم كان في حوزتهم، تقريباً، من الأسلحة؟

بمعدل ستة أو سبعة أسلحة حربية للشخص الواحد، بما في ذلك الرشاشات، وقاذفات القنابل، وكل سلاح آخر موجود تحت الشمس.

ـ هل واصل الأميركيون الدخول إلى حصن تيونا كما لو أنهم يملكون المكان...

ـ نعم، كأنهم يملكون المكان. كانت لديهم بعثة عسكرية هنا في الداخل، ومكاتب في أبنية الجيش. إلا أنه تم وضع حد لهذا. وفي الأمكنة التي كانت فيها البعثة الأميركية، شُكلت مهمات مراقبة وتدقيق في الهويات ومعرفة من في الجوار.

ـ ماذا كانت تعني المناشير التي رأيناها في حصن تيونا، والتي تعرض مكافأة لمعلومات عن ضباط مطلوبين من القانون؟

ـ إنهم ضباط مؤيدون للانقلاب لهم ارتباطات بالقوى شبه العسكرية. قدّم الشعب أدلة ضدهم خلال التحقيق. وطالبنا، بوجود هذه الأدلة، بمذكرة توقيف. ولأنهم لم يظهروا طلبت الإذن من الرئيس بوضع هذه المناشير التي تعرض خمسين مليون بوليفار لكل من يتقدّم بمعلومات.

ـ وأظهر التحقيق أيضاً أنهم خططوا لقتل الكثيرين من الأناس الموالين للرئيس.

ـ خطط لقتل هؤلاء الناس؟

ـ نعم، القتل.

ـ هل وجدتم لوائح بهؤلاء الأشخاص، أو شيئاً من هذا القبيل؟

ـ نعم، وأيضا أمراً عملانيّاً لا يمكن، استناداً إلى التحاليل التي قمنا بها، إلا أن يصدر عن عضو في الجيش. وهو يحتوي على المقاطع الخمسة التي تحتوي عليها كل أوامر العمليات، مع الملحقات التابعة لها. ومن بينها كان مخطط التبخير ـ كما

سمّوا عمليات القتل المبرمجة ـ ولائحة بالضباط الذين سيقتلونهم.

ـ هل كنتَ على اللائحة؟

ـ نعم، وكان الرئيس على رأسها؛ وخوسي فيسينتي الرقم الثاني، وأنا الثالث.

ـ وهل تضمنت اللائحة عائلاتكم؟

ـ نعم.

ـ لماذا لم يُعلَن أي من هذا؟

ـ لأن الأمر لا يزال قيد التحقيق، ولأن لا مصلحة لوسائل الإعلام في نشره.

ـ بالحديث عن وسائل الاعلام، فإنها انتقدتك بقسوة لدفاعك عما تسميه مفهوم الدفاع الوطني المدمّج.

ـ آه، هذا مفهوم ثوري. يتحدث الرئيس عن مفهوم دفاعي جديد للأمة نحن ندعمه أيضاً. ويستند إلى ثلاث أفكار أساسية أو محاور: تقوية القوات المسلحة؛ توحيد الدوائر المدنية والعسكرية؛ والحركة الشعبية. أشبعنا هذا المفهوم تحليلاً، وهناك عدد من المقترحات الجدية رُفعت إلى الرئيس. وهو، باختصار، يتصوّر الدفاع عن الشعب بأكمله في سياق الوضع الفنزويلي. وبرؤيتنا وضع الولايات المتحدة في العراق، حتى مع جيشها القوي للغاية وأسلحته المتطورة، فإننا نستعد أيضاً لنوع جديد كامل من الحرب غير المتناظرة وغير النظامية. ولم نفكّر في

الأمر بعبارة إعطاء بندقية للجميع. فمفهوم الدفاع الوطني المدمج يعترف بالحاجة إلى تدريب الاحتياطيين، وتعليم الشعب كيفية الدفاع عن النفس، وتدريبه على التعاطي مع وضع صعب ما.

ـ جنرال، الكثيرون من القادة العسكريين الفنزويليين درسوا في الولايات المتحدة، وكان لهم موقف متحامل على كوبا. هل لا تزال الحال على هذا النحو، أم تبدّلت؟

ـ الحكومات السابقة لشافيز أضمرت موقفاً معادياً بقوة للحكومة الكوبية. وكنتُ محظوظاً جداً بالذهاب إلى كوبا منذ سنة. إنها المرة الأولى التي أزور فيها الجزيرة، وشاهدت أموراً حسنة: إنصافاً وظروفاً معيشية لا تتمتع بها غالبية الفنزويليين. أدركت أنها ليست الجحيم الذي جرى الحديث عنه لأعوام طويلة خلت في فنزويلا.

أمكنني أن أرى، بأم العين، ما هي الثورة وكيف يمكن بلداً، بموارد قليلة، أن ينمو. الشعب يعيش بسلام، ويتمتع بنظام تعليمي جيّد، وشبكة جيّدة من المستشفيات، وعدالة اجتماعية. وأنت تنظر إلى فنزويلا، ذات الموارد الكبيرة والهائلة جداً، والاقتصاد القوي، فترى غالبية الشعب تعيش في الفقر. ثمانية بالمئة من الشعب يعيشون تحت خط الفقر. وليس لهذا تبرير من أي نوع كان.

وهناك عامل حاسم آخر: حقد دفين على الامبريالية، ووعي واسع الانتشار لقوة الولايات المتحدة وما يمكنها أن تفعل. لا تنسوا أن الولايات المتحدة كانت وراء الانقلاب، وبلغت من

الوقاحة حد القول إنها قامت بذلك كي لا يتم إرسال برميل نفط إضافي واحد إلى كوبا. وأصبح شائعاً اليوم رؤية علمي فنزويلا وكوبا معاً في أي مسيرة. إنه أمر شائع.

ـ أي فنزويلا ترى في المستقبل؟

ـ دولة أفضل بدرجة غير متناهية من التي لدينا اليوم. أحمل آمالاً كبرى لشعبنا. وأعتقد أنه إذا أُعيد انتخاب الرئيس في ٢٠٠٦، فستصبح فنزويلا في ٢٠١١ مختلفة، ومكاناً أفضل [تحققت هذه «النبوءة»، وأعيد انتخاب شافيز، لولاية جديدة ـ المترجم].

ـ وستبقى معه حتى ذلك الوقت؟

ـ أتمنى ذلك.

السلطة للشعب(*)

أشكركم على دعوتكم إلى هذا اللقاء العظيم للمفكرين دفاعاً عن الإنسانية. أشكركم على تصفيقكم للشعب البوليفي الذي تعبّأ في هذه الأيام الحديثة العهد للكفاح، متّكلين على وعينا ونظرتنا إلى كيفية استرجاع مرافقنا الطبيعية.

ما حصل في الأيام الأخيرة في بوليفيا، ثورة عظيمة قام بها أولئك الذين أحسوا بوطأة الجور لأكثر من خمسمئة عام. فرض الشعب إرادته في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر الأخيرين، وأخذ يتغلب على مدافع الامبراطورية. لقد عشنا أعواماً طويلة من المواجهة بين ثقافتين: ثقافة الحياة التي عبّر عنها سكان البلاد الأصليون، وثقافة الموت التي يمثّلها الغرب. وعندما نقاتل، نحن الشعب الأصلي ـ إلى جانب العمال وحتى رجال الأعمال في بلادنا ـ من أجل الحياة والعدالة، تردّ الدولة بحكم القانون الديموقراطي الخاص بها.

(*) خطاب إيفو موراليس في منتدى دفاعاً عن الإنسانية في مدينة مكسيكو، بتاريخ ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

ماذا يعني حكم القانون للسكان الاصليين؟ بالنسبة إلى الفقراء، والمهمّشين، والمستبعَدين، يعني حكم القانون الاغتيالات المدبَّرة، والمجازر الجماعية التي قاسينا منها، ليس فقط في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر هذين، بل أيضاً لسنين طويلة حاولوا فيها فرض سياسات التجويع والفقر على الشعب البوليفي.

وفوق كل هذا، يعني حكم القانون الاتهامات التي طالما نسمعها، نحن الكيشوا، والآيمارا، والغارانتيي، من حكوماتنا، بأننا: ناركو، أي أننا فوضويون. ولم تكن انتفاضة الشعب البوليفي هذه تتعلق بالغاز والهيدروجين الفحمي وحسب، بل أيضاً بتقاطع قضايا خلافية كثيرة: التمييز، والتهميش، والأهم من ذلك: فشل الليبرالية الجديدة.

ويحمل سبب كل أعمال إراقة الدماء هذه، وانتفاضة الشعب البوليفي، اسم: الليبرالية الجديدة. فبشجاعة وتحدّ أسقطنا غونزالو سانشيز دي لوزادا ـ رمز هذه الليبرالية الجديدة في بلادنا ـ في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر، وهو ما نعتبره اليوم البوليفي للكرامة والهوية. وشرعنا في إسقاط رمز الفساد والمافيا السياسية.

وأريد أن أقول لكم، أيها الرفاق والرفيقات، كيف بنينا وعي الشعب البوليفي من أسفل الهرم إلى القمة. وبأي سرعة تحرّك الشعب البوليفي، وقال ـ على ما يقوله نائب القائد ماركوس ـ ya basta! (كفى!)، كفى سياسات تجويع وبؤس.

فتشرين الأول/أكتوبر، بالنسبة إلينا، هو بداية مرحلة جديدة من البناء. والأهم، هو أننا نواجه مهمة وضع حد للأنانية الفردية، وخلق أشكال أخرى من الحياة ـ من الكامبيسينو campesino الريفيين ومجموعات السكان الأصليين في الأحياء المدينية الفقيرة ـ ترتكز على التضامن والمساعدة المتبادلة. يجب أن نفكر في كيفية إعادة توزيع الثروة المركزة في بعض الأيدي القليلة. هذه هي المهمة الكبيرة التي نواجهها نحن الشعب البوليفي، بعد هذه الانتفاضة العظيمة.

كان من المهم جداً تنظيم أنفسنا وتهيئتها في طريقة تستند إلى الشفافية، والصدق، والسيطرة على منظماتنا الخاصة. ولم يكن التنظيم وحده المهم، بل أيضاً التوحّد. وها نحن الآن، مفكرّون موحدون في الدفاع عن الإنسانية. أعتقد أننا لا نحتاج فقط إلى الوحدة بين الحركات الاجتماعية، بل علينا أيضاً أن ننسق مع الحركات الفكرية. فكل تجمع من هذا النوع للزعماء العماليين الخارجين من الكفاح الاجتماعي، وكل حدث، هما بمثابة أمثولة كبرى تسمح لنا بتبادل الخبرات والاستمرار في تقوية شعبنا ومنظمات سكان الريف.

وهكذا، فإن حركاتنا الاجتماعية في بوليفيا، ومفكرينا، وعمالنا ـ وحتى تلك الأحزاب السياسية التي تدعم الكفاح الشعبي ـ تضافروا جميعاً لإسقاط غونزالو سانشيز لوزادا. ومن سوء الحظ، أننا دفعنا الثمن بالكثير من أرواحنا، لأن غطرسة الامبراطورية وظلمها مستمرّان في إذلال الشعب البوليفي.

ويجب، أيها الرفاق والرفيقات، القول إنه علينا أن نخدم الحركات الاجتماعية والشعبية بدلاً من المؤسسات التي تتجاوز الحدود الإقليمية. أنا حديث العهد في السياسة، ولطالما خشيت أن أصبح سياسياً محترفاً، وكرهت ذلك. إلا أنني أدركت أن السياسة كانت في ما مضى عِلْمَ خدمة الشعب، وأن التورط في السياسة مهم إذا أراد المرء مساعدة شعبه. وأعني بالتورط: العيش للسياسة بدلاً من العيش من السياسة.

نسّقنا كفاحاتنا بين مختلف الحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية، بدعم من مؤسساتنا الأكاديمية، بطريقة خلقت وعياً وطنياً أكبر. وهو ما مكّن الشعب من النهوض في هذه الأيام الأخيرة.

وأعتقد، عندما نتكلم على الدفاع عن الإنسانية، كما نفعل في هذا الحدث، فإن هذا يحصل فقط من خلال القضاء على الليبرالية الجديدة والامبريالية. إلا أنني أعتقد أننا لسنا وحدنا في هذا، لأننا نرى أن الفكر المعادي للامبريالية يزداد في كل يوم انتشاراً، وبخاصة بعد سياسة بوش في التدخل الدموي في العراق. إن طريقتنا في الانتظام والتوحّد ضد النظام، وضد عدوان الامبراطورية على شعبنا، آخذة في الانتشار، مثلها مثل استراتيجيات إنشاء سلطة الشعب، وتقويتها.

أؤمن فقط بسلطة الشعب. هذه كانت تجربتي في منطقتي الخاصة، وهي مقاطعة بسيطة. وهي توازي أهمية السلطة المحلية. وها أني أرى، مع كل ما حدث في بوليفيا، أهمية

سلطة الشعب بأكمله، والأمة بكاملها. وبالنسبة إلينا، نحن الذين نؤمن بأهمية الدفاع عن الإنسانية، فإن المساهمة الفضلى التي يمكننا تقديمها، هي المساعدة على خلق تلك السلطة الشعبية. ويحدث هذا عندما تتطابق مصالحنا الذاتية مع مصالح المجموعة.

نتقيّد، أحياناً، بالحركات الاجتماعية في سبيل الفوز بالسلطة. وعلينا أن ننقاد إلى الشعب، لا أن نستخدمه، أو نتلاعب به.

وقد تحدث خلافات بين زعمائنا الشعبيين، وصحيح أنها تحدث عندنا في بوليفيا. لكن عندما يعي الشعب، وعندما يعرف ما يجب القيام به، ينتهي أي خلاف بين مختلف الزعماء المحليين. حققنا تقدماً في هذا الإطار منذ فترة طويلة، بحيث أمكن شعبنا في النهاية أن ينهض معاً.

ما أريد قوله لكم، أيها الرفاق والرفيقات: ما أحلم به وما نحلم به نحن كزعماء من بوليفيا، أن مهمتنا في الوقت الراهن هي في تمتين الفكر المناهض للامبريالية. وها أن بعض الزعماء يتحدثون اليوم كيف أنه في إمكاننا ـ نحن المفكرين، والحركات الاجتماعية والسياسية ـ تنظيم قمة عظيمة من أناس مثل فيدل، وشافيز، ولولا، للقول للجميع: نحن هنا، نأخذ موقفاً ضد عدوان الامبريالية الأميركية. قمة تنضم إلينا فيها الرفيقة ريغوبرتا منشو، وغيرها من الزعماء الاجتماعيين والعماليين، وشخصيات عظيمة مثل بيريز إزكويفل. قمة عظيمة للقول لشعبنا: إننا معاً،

موحدون، وندافع عن الإنسانية. ليس لدينا خيار آخر، أيها الرفاق والرفيقات: إذا أردنا الدفاع عن الإنسانية، فعلينا أن نغيّر النظام [العالمي السائد]، وهذا يعني الإطاحة بالامبريالية الأميركية.

خطاب هوغو شافيز(*)

أصحاب السعادة، أيها الاصدقاء، عمتم مساء:

لقد حُرّفت كلّياً الغاية الأساسية من هذا الاجتماع. فمحور النقاش المفروض هو ما يُسمّى عملية الإصلاح التي تظلّل أكثر المسائل إلحاحاً، والتي تصر على المطالبة بها شعوب العالم: تبني إجراءات تتصدى للمشاكل الحقيقية التي تعرقل وتنسف الجهود التي تبذلها بلداننا في سبيل التنمية الحقيقية والحياة.

والحقيقة القاسية، بعد خمس سنين على قمة الألفية، هي أن الغالبية العظمى من الأهداف المتوقعة ـ وهي متواضعة كثيراً بالفعل ـ لن تتحقق.

ندّعي خفضنا إلى النصف عدد الـ ٨٤٢ مليون إنسان جائع بحلول سنة ٢٠١٥. وعلى المعدّل الراهن سيتم بلوغ هذا الهدف بحلول سنة ٢٢١٥. فمن من بين الحضور هنا سيبقى حياً للاحتفال بذلك؟ هذا إذا أمكن فقط الجنس البشري أن ينجو من الدمار الذي يهدد بيئتنا الطبيعية.

(*) خطاب هوغو شافيز في الأمم المتحدة (١٦/٩/٢٠٠٥).

وأخذنا على عاتقنا طموح توفير التعليم الابتدائي الأساسي العام بحلول سنة ٢٠١٥. وعلى المعدّل الراهن سيتم بلوغ هذا الهدف ما بعد سنة ٢١٠٠. فلنستعد إذاً للاحتفال بهذا.

يا أصدقاء العالم، يقودنا هذا إلى استنتاج حزين: استنفدت الأمم المتحدة نموذجها، ولا يتعلّق الأمر كله بالإصلاح. يستدعي القرن الواحد والعشرون تغييرات عميقة لا يمكن تحقيقها إلا إذا أُنشئت منظمة جديدة. الأمم المتحدة هذه لا تفي بالغرض. علينا الاعتراف بهذا. إنها الحقيقة. ولهذه التغييرات ـ تلك التي تشير إليها فنزويلا ـ في رأينا مرحلتان: المرحلة الفورية، والمرحلة الطموحة، وهي طوباوية. المرحلة الأولى إطارها الاتفاقات التي تم التوقيع عليها في النظام القديم. ونحن لا نريد التملّص منها. بل إننا نأتي باقتراحات ملموسة للمدى القصير في هذا النموذج. إلا أن حلم سلام عالمي دائم، حلم بأن يفرد عالم لا يُخجله الجوع، والمرض، والأمية، والفاقة القصوى، والعوز ـ بصرف النظر عن الجذور ـ جناحيه ليحلّق. نحتاج إلى أن نفرد أجنحتنا ونطير.

إننا على دراية بالعولمة الليبرالية الجديدة المخيفة، لكن يوجد أيضاً واقع عالم مترابط يجب أن نواجهه، ليس كمشكلة، بل كتحدّ. وعلى أساس الحقائق الوطنية، يمكننا تبادل المعرفة، ودمج الأسواق، والتواصل. لكن علينا، في الوقت نفسه، أن نفهم أن هناك مشاكل ليست لها حلول وطنية: الغيوم المشعّة، والأسعار العالمية للنفط، والأمراض، وازدياد سخونة الأرض أو

الفجوة في طبقة الأوزون. وهذه ليست مشاكل محلّية. وبينما نخطو في اتجاه نموذج جديد للأمم المتحدة يضمّنا جميعاً عندما يتحدثون عن الشعوب، فإننا نحمل إلى هذه الجمعية أربعة اقتراحات إصلاح ضرورية وملحة: الأول، توسيع مجلس الأمن في عضويته الدائمة وفي عضويته غير الدائمة، والسماح بذلك لبلدان جديدة نامية أو في طور النمو بأن تصبح أعضاء دائمة أو غير دائمة؛ الثاني، علينا تأمين ما يلزم لتحسين أساليب العمل من أجل زيادة الشفافية، وليس إنقاصها؛ الثالث، علينا أن نلغي فوراً ـ قلنا ذلك في فنزويلا مراراً وتكراراً على مدى الأعوام الستة الماضية ـ حق النقض في القرارات التي يتخذها مجلس الأمن، لأن الأثر النخبوي لا يتوافق مع الديموقراطية، ومع مبادئ المساواة والديموقراطية؛ والرابع، نريد دعم دور الأمين العام للأمم المتحدة. يجب ترسيخ دوره/أو دورها السياسي في ما يتعلّق بالدبلوماسية الوقائية. وتستدعي خطورة مشاكلنا كلها تغييرات عميقة. فمجرد الإصلاح لا يكفي لتحقيق ما نتطلع إليه، نحن كافة شعوب الأرض. بل أكثر من مجرد إصلاحات، فإننا نحن في فنزويلا ندعو إلى تأسيس أمم متحدة جديدة، أو كما قال معلّم سيمون بوليفيار، سيمون رودريغيز: إما أن نبتدع وإما ان نتوه.

في المؤتمر الاجتماعي العالمي في بورتو ألليغري في كانون الثاني/يناير الماضي، طالب أشخاص مختلفون الأمم المتحدة بنقل مقرها إلى خارج الولايات المتحدة في حال استمرار الانتهاكات المتكررة لحكم القانون الدولي.

ونحن نعرف اليوم أن العراق كان خالياً من أي أسلحة للدمار الشامل. ولطالما كان شعب الولايات المتحدة متشدداً في طلب الحقيقة من زعمائه؛ وتطالب شعوب الأرض بالأمر نفسه. لم تكن هناك أي أسلحة للدمار الشامل؛ وبرغم ذلك، قُصف العراق، واحتلّ، ولا يزال محتلاً. حصل ذلك كله متجاوزاً الأمم المتحدة. ولهذا، نحن نقترح على هذه الجمعية أنه على الأمم المتحدة أن تغادر بلداً لا يحترم القرارات التي تتخذها هذه الجمعية بالذات. وأشارت بعض الاقتراحات إلى القدس (المحتلة) بديلاً بوصفها مدينة دولية. وهذا اقتراح جيّد من حيث أنه يُطرح جواباً للنزاع الحالي الذي يصيب فلسطين. لكنه قد يحمل بعض الميزات التي قد تجعل من الصعب تحوله إلى حقيقة. ولهذا، نحمل اقتراحاً قدمه في عام ١٨١٥ سيمون بوليفار المحرر العظيم للجنوب. اقترح بوليفار يومها إنشاء مدينة دولية تستضيف فكرة الوحدة.

أعتقد انه حان الوقت للنظر في إنشاء مدينة دولية لها سيادتها الخاصة، وقوتها الخاصة، وأخلاقيتها، تمثّل كل أمم الأرض. وعلى مثل هذه المدينة الدولية أن تعيد التوازن إلى خمسة قرون من عدم التوازن. يجب على مقر الأمم المتحدة أن يكون في الجنوب.

إننا، أيها السيدات والسادة، نواجه أزمة طاقة لا سابق لها، يصل فيها الاستخدام المتزايد الذي لا يمكن وقفه للطاقة إلى ارتفاعات قياسية، بالإضافة إلى عدم القدرة على زيادة الإمدادات

النفطية، وإلى توقّع تراجع في الاحتياطي النفطي العالمي المعروف. فالنفط آخذ في النفاد.

في ٢٠٢٠، سيصبح الطلب اليومي على النفط ١٢٠ مليون برميل. مثل هذا الطلب، حتى من دون احتساب الزيادات المستقبلية، سيستهلك في ٢٠ عاماً ما استهلكته البشرية من بدايتها وحتى اليوم. وهذا يعني أن مستويات ثاني أكسيد الكربون سترتفع لا محالة، وتزيد بالتالي أكثر من حماوة كوكبنا.

كان إعصار كاترينا مثالاً مؤلماً لكلفة تجاهل مثل هذه الحقائق. فاشتداد حرارة المحيطات هو العامل الأساس في زيادة القوة التدميرية للإعصارات التي شهدناها في الأعوام الماضية. ولتكن هذه المناسبة فسحة نرسل من خلالها أشد تعازينا إلى شعب الولايات المتحدة. فأبناء شعبهم هم أخوة وأخوات لنا في الأميركتين وفي بقية العالم.

ليس من الناحية العملية ولا من الأخلاقية، التضحية بالجنس البشري عبر الترويج، في شكل جنوني، لفعالية نموذج اقتصادي اجتماعي يملك قدرة تدميرية سريعة الاستفحال. ومن الانتحار نشره وفرضه بوصفه علاجاً لا يخطئ لكل الشرور التي نتجت عنه بالتحديد.

منذ فترة ليست بالطويلة، مضى رئيس الولايات المتحدة إلى اجتماع لمنظمة الدول الأميركية ليقترح على أميركا اللاتينية والكاريبي زيادة في السياسات الموجهة نحو اقتصاد السوق، سياسات السوق المفتوحة ـ هذه هي الليبرالية الجديدة ـ، بينما

هي بالتحديد سبب الشرور الكبرى والمآسي العظيمة التي يعاني بسببها شعبنا في الوقت الراهن: الرأسمالية الليبرالية الجديدة، و«إجماع واشنطن». وكل ما تأتّى عن ذلك كان درجة عالية من البؤس، وعدم المساواة، ومأساة لا تنتهي لكل شعوب هذه القارة.

ما نحتاج إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى، هو نظام عالمي جديد. فلنستذكر الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الاستثنائية السادسة في ١٩٧٤، منذ ٣٢ عاماً، حيث تم، بغالبية ساحقة ـ ١٢٠ صوتاً مع الاستدعاء و٦ ضده وامتناع ١٠ ـ تبني خطة عمل لنظام اقتصادي عالمي جديد، إضافة إلى حقوق الدول الاقتصادية وشرعة واجباتها. تلك حقبة أمكن فيها التصويت في الأمم المتحدة. أما الآن فيستحيل التصويت. هم الآن يوافقون على وثائق مثل هذه الوثيقة التي بين أيدينا الآن، والتي أنبذها باسم فنزويلا بوصفها لاغية كأنها لم تكن وغير شرعية. تمت الموافقة على هذه الوثيقة في شكل ينتهك قوانين الأمم المتحدة الراهنة. هذه الوثيقة باطلة! هذه الوثيقة يجب أن تُناقَش؛ وستنشرها الحكومة الفنزويلية على الملأ. لا يمكننا القبول بديكتاتورية مكشوفة سافرة في الأمم المتحدة. تجب مناقشة هذه المسائل. ولهذا ألتمس من زملائي، رؤساء الدول ورؤساء الحكومات، مناقشتها.

جئت للتو من اجتماع مع الرئيس نستور كيرشنر، وحسناً، كنت أسحب هذه الوثيقة؛ فقد تسلّمت بعثتنا هذه الوثيقة منذ

خمس دقائق، بالإنكليزية فقط. هذه الوثيقة أقرتها مطرقة ديكتاتورية، وأنا هنا أنبذها بوصفها غير مشروعة، ولاغية، وباطلة، وغير شرعية.

استمع إلى التالي، يا سيدي الرئيس: إذا قبلنا بهذا نكون خاسرين فعلاً. ولنطفئ الأنوار، ونغلق كل الأبواب والشبابيك! فمن غير المعقول أن نقبل، نحن في هذه القاعة، بالديكتاتورية.

والآن، أكثر من أي وقت، وما برحنا نقول، نحتاج إلى إعادة العمل بالأفكار التي تم التخلّي عنها كالاقتراح الذي تمت الموافقة عليه في هذه الجمعية في ١٩٧٤، والمتعلق بالنظام الاقتصادي العالمي الجديد. فالمادة الثانية من هذا النص تؤكد حق الدول في تأميم الممتلكات والموارد الطبيعية التي تخص المستثمرين الأجانب. وتنص أيضاً على إنشاء كارتيلات منتجي المواد الخام. وفي القرار ٣٠٢١، في أيار/مايو ١٩٧٤، أعربت الجمعية عن نيتها العمل بأقصى درجة من الإلحاح لإنشاء النظام الاقتصادي العالمي الجديد على أساس من ـ رجاءً الاستماع بعناية ـ العدل، والمساواة في السيادة، والتكافل، والمصلحة المشتركة، والتعاون بين كل الدول، بغض النظر عن أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية، وتصحيح التفاوت، وإصلاح المظالم بين الدول النامية وغير النامية، وبالتالي أن نوفّر للأجيال الراهنة والمقبلة: السلام، والعدل، والتطور الاجتماعي والاقتصادي الذي ينمو بمعدل ثابت.

كان الهدف الأساسي للنظام الاقتصادي العالمي الجديد، تعديل النظام الاقتصادي القديم الذي وُضع في بريتون وودز.

وها نحن الشعب، نطالب ـ وهذه حال فنزويلا ـ بنظام اقتصادي عالمي جديد. إلا أنه من الملحّ أيضاً تطوير نظام دولي سياسي جديد. دعونا لا نسمحْ لدول قليلة بأن تحاول تفسير مبادئ القانون الدولي بهدف فرض مبادئ جديدة مثل الحرب الوقائية. أوَيهددوننا بتلك الحرب الوقائية! يجب أن نسأل أنفسنا: ماذا عن مبادئ مسؤولية الحماية؟ من سيتولى حمايتنا؟ كيف سيقومون بحمايتنا؟

أعتقد أن إحدى الدول التي تحتاج إلى الحماية هي الولايات المتحدة بالتحديد. ظهر ذلك في شكل مؤلم في المأساة التي سببها الإعصار كاترينا. فليست لهم حكومة تعمل على حمايتهم من الكوارث الطبيعية المعلنة، هذا إذا كنا نتكلّم على حماية بعضنا البعض. هذه مفاهيم خطرة للغاية تطبع الامبريالية وسياسة التدخل، بينما تحاول أن تشرّع انتهاك السيادة الوطنية. ويجب على الاحترام الكامل لمبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، أن يكون حجر الزاوية للعلاقات الدولية في عالمنا اليوم، والأساس للنظام الجديد الذي نحن في صدد اقتراحه.

من الملحّ أن نقاتل، بطريقة فعالة، الإرهاب الدولي. وبرغم ذلك، لا يجب استخدامه ذريعة لشن حروب عدائية عسكرية لا مبرر لها، وتنتهك القانون الدولي. فهذه كانت العقيدة التي

أعقبت الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وحده التعاون الحقيقي والوطيد، ووضع حد للخطاب المزدوج الذي تعتمده بعض الدول في الشمال في ما يتعلق بالإرهاب، يمكن أن يضعا حداً لهذه الفاجعة الرهيبة.

ويمكن شعب فنزويلا، بعد سبع سنين بالتمام على الثورة البوليفارية، أن يدّعي تحقيق تقدم اجتماعي واقتصادي مهم.

تعلّم مليون وأربعمئة وستة آلاف فنزويلي (جديد) القراءة والكتابة. ومجموعنا ٢٥ مليوناً. وستُعلَن البلاد ـ بعد أيام قليلة ـ منطقةً خالية من الأمية. وها أن ثلاثة ملايين فنزويلي، لطالما عُزلوا بسبب الفقر، يتابعون دراستهم الابتدائية والثانوية والعليا.

ويحصل ١٧ مليون فنزويلي ـ نحو ٧٠ بالمئة من الشعب ـ للمرة الأولى على عناية صحية عامة، بما في ذلك الأدوية. وسيتمكن جميع الفنزويليين، في غضون بضع سنين، من الحصول على خدمة صحية مجانية ممتازة. ويتم توزيع مليون وسبعمئة طن من الطعام على أكثر من ١٢ مليون شخص بأسعار مدعومة، أي نصف السكان تقريباً. ويحصل مليون منهم عليها مجاناً كونهم يمرّون في مرحلة انتقالية. وتم خلق ٧٠٠ ألف فرصة عمل جديدة، ما خفض البطالة تسع نقاط. وهذا كله وسط اعتداءات داخلية وخارجية، بما في ذلك انقلاب، ووقف لصناعة النفط نظمته واشنطن، بغض النظر عن المؤامرات والأكاذيب التي تنشرها وسائل إعلام قوية، والتهديدات المستمرة من الامبراطورية وحلفائها، بما في ذلك حتى الدعوة إلى اغتيال

رئيس. فالدولة الوحيدة التي يمكن فيها شخصاً أن يدعو إلى اغتيال رئيس دولة هي الولايات المتحدة [وإسرائيل في مطلق الأحوال ـ المترجم]. وهذه هي حال المحترم المدعو بات روبرتسون، المقرب جداً من البيت الأبيض: دعا إلى اغتيالي وهو لا يزال حراً طليقاً. هذا هو الإرهاب الدولي!

سنحارب من أجل فنزويلا، ومن أجل توحيد أميركا اللاتينية، ومن أجل العالم. ونعيد تأكيد إيماننا غير المحدود بالجنس البشري. نحن تائقون إلى السلام والعدل لننجو كسلالات بشرية. أقسم سيمون بوليفار، الأب المؤسس لبلادنا ومرشد ثورتنا، بألا يسمح قطُّ ليديه بالتوقف عن العمل، ولروحه بالراحة إلى أن يكسر القيود التي تربطنا بالامبراطورية. وها أنه وقت عدم السماح لأيدينا بالتوقف عن الحركة. ولأرواحنا بالراحة إلى أن ننقذ الإنسانية.

السلسلة السياسية

صدر منها:

○ **مؤلفات محمد حسنين هيكل:**

- □ **الحل والحرب**
- □ **بين الصحافة والسياسة**
- □ **حديث المبادرة**
- □ **خريف الغضب**
- □ **زيارة جديدة للتاريخ**
- □ **عند مفترق الطرق**
- □ **قصة السويس**
- □ **لمصر لا لعبد الناصر**
- □ **وقائع تحقيق سياسي**
- □ **السلام المستحيل**
- □ **آفاق الثمانينات**

- □ **أسرار مكشوفة** ـ اسرائيل شاحاك
- □ **المفكرة المخفية لحرب الخليج** ـ بيارسالينجر واريك لوران
- □ **حرب الخليج** ـ بيار سالينجر واريك لوران
- □ **عاصفة الصحراء** ـ بيار سالينجر واريك لوران
- □ **حرب تحرير الكويت** ـ د. حبيب الرحمن
- □ **الأسد** ـ باتريك سيل
- □ **الأيادي السود** ـ نجاح واكيم
- □ **مبادئ المعارضة اللبنانية** ـ الرئيس حسين الحسيني
- □ **الشرق الأوسط** ـ د. معين حداد
- □ **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ ـ ١٩٩٨** ـ محمود عثمان

- □ **الخيارات الصعبة** ـ د. إيلي سالم
- □ **الصهيونية الشرق أوسطية** ـ إنعام رعد
- □ **الضوء الأصفر** ـ عبد الله بو حبيب
- □ **المال إن حكم** ـ هنري ادة
- □ **الفهم الثوري للدين والماركسية** ـ زاهر الخطيب
- □ **رؤية للمستقبل** ـ جوزيف أبو خليل
- □ **فرنسا والموارنة ولبنان** ـ اللواء ياسين سويد
- □ **لبنان لماذا؟** ـ جوزيف أبو خليل
- □ **لبنان وسوريا مشقة الاخوة** ـ جوزيف أبو خليل
- □ **الأشياء بأسمائها** ـ العقيد عاكف حيدر
- □ **ثمن الدم والدمار** ـ كمال ديب
- □ **الفرص الضائعة** ـ أمين هويدي
- □ **الأمة العربية إلى أين؟** ـ د.محمد فاضل الجمالي
- □ **التحدي الإسلامي في الجزائر** ـ مايكل ويليس
- □ **الحصاد** ـ جون كوولي
- □ **الدولة الديموقراطية** ـ د. منذر الشاوي
- □ **السكرتير السابع والأخير** ـ ميشيل هيلر
- □ **اللوبي** ـ ادوارد تيفنن
- □ **الماسونية ـ دولة في الدولة** ـ هنري كوستون
- □ **بالسيف** ـ ستيفن غرين
- □ **قصة الموارنة في الحرب** ـ جوزيف أبو خليل

- مساومات مع الشيطان - ستيفن غرين
- حربا بريطانيا والعراق - رغيد الصلح
- طريق أوسلو - محمود عباس
- الخداع - بول فندلي
- من يجرؤ على الكلام - بول فندلي
- لا سكوت بعد اليوم - بول فندلي
- أرض لا تهدأ - د. معين حداد
- أبي لافرنتي بيريا - سيرغو بيريا
- رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم - د. عبد السلام المجالي

○ **مؤلفات د. عصام نعمان:**

- العرب على مفترق
- هل يتغير العرب؟
- أميركا والإسلام والسلاح النووي

- التشكيلات الناصرية - شوكت اشتي
- الديبلوماسية على نهر الأردن - د. منذر حدادين

○ **مؤلفات الرئيس سليم الحص:**

- للحقيقة والتاريخ - تجارب الحكم ما بين ١٩٩٨ - ٢٠٠٠
- محطات وطنية وقومية
- عصارة العمر
- نحن والطائفية
- صوت بلا صدى
- تعالَوا إلى كلمة سَواء
- سلاح الموقف

- الوجه الآخر لإسرائيل - سوازن نايثن
- النفط - هاني حبيب
- تواطؤ ضد بابل - جون ك. كولي
- دارفور حرب وإبادة - جولي فلنت والكس دي فال
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الحرب الخاطفة المجلد الأول - روبرت فيسك
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الإبادة المجلد الثاني - روبرت فيسك
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - إلى البرية المجلد الثالث - روبرت فيسك
- الولايات المتحدة: الصقور الكاسرة في العدالة والديموقراطية - برندهام، نعوم شومسكي ويليام بلوم وميشال شوسودوفسكي
- العلاقات اللبنانية - السورية - د. غسان أحمد عيسى
- على خط النار - مذكرات الرئيس الباكستاني برويز مشرف
- أصوات قلبت العالم - كيري كيندي
- إسرائيل والصراع المستمر - ربيع داغر
- الفساد سوكلين وأخواتها - غادة عيد
- تقي الدين الصلح سيرة وكفاح (جزآن) - عمر زين
- قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية - طارق علي

هذا الكتاب

ليسوا قراصنة بل هم ابطال البحر الشجعان
المطالبون بالحرية المسلطون على الطغاة والجشعين
شعوب الكاريبي

- يتحدث الكتاب عن حالة الغليان الدائم في تلك المنطقة ومعاناة شعوبها التي تعيش بغالبيتها تحت خط الفقر، وكأنه يتحدث عن الشرق الأوسط وعن معاناتنا: الأموال المنهوبة من قبل أصحاب السلطة، تصاعد النزعة الدينية، الرهان على الولايات المتحدة.

- يمرّ على أوضاع كل دولة بمفردها، **كوبا - فنزويلا - بوليفيا - تشيلي، الأرجنتين...**، ثم يربطها بمصير واحد.

- يميط اللثام عن التأثير المتواصل للثورة الكوبية في دول المنطقة.

- يتابع تأثير فيدل كاسترو على كلّ من شافيز وإيفو موراليس رئيس بوليفيا.

- يكشف عن الملابسات التي رافقت وصول شافيز إلى سدة الحكم، ليعلن من هناك عداءه لسياسة أميركا الخارجية. فتعدّه عديم الوفاء، ويكسب تعاطف شعوب الشرق الأوسط.

- يدخل في حوار ساخن وصريح مع هوغو شافيز حول أهم محطات حياته وأخطرها.

- يضع ديموقراطية أمريكا على محك النظرية والتطبيق.

- يشير إلى الانتهاك الغربي الفاضح للسيادة الوطنية باسم "صون حكومة الإنسا

ISBN 978-9953-88-052-5
9 789953 880525

توزيع: سويدان للتوزيع
هاتف: 33033203
خلوي: 0123653675

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٢٢ ٣٥٠ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥-٣٥٣٠٠٠-٣٤١٩٠٧ ١ ٩٦١+

tra... s.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر